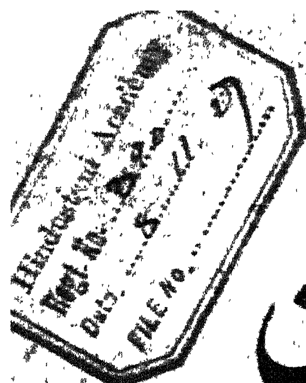


مختارات جرجي زيدان

في

فلسفة الاجتماع والعمران

تحوي مباحث أخلاقية وحكمية

ونسائية وسياسية وادبية

الخ . . . الخ . . .

الجزء الاول

مطبعة الهلال بشارع نوبار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩١٩



جرجي زيدان

قبيل وفاته

لحقت بمن أرّختهم فكأنكم لداتٌ لعهدٍ لم تفرقهُ أدهرُ

على الحيّ دون الميت تحسب أحقبٌ توالت وتحصى في التعاقب أعصرُ

وربّ عليمٍ لم يجيء متقدماً أتمّ علاه أنه متأخرُ

خليل مطران

مختارات

جرجي زيدان

مطبعة الهلال بشارع جوار نمرة ٤ بمصر

سنة ١٩١٩

مقدمة

هذه مجموعة مقالات لمؤسس الهلال رحمه الله تبحث في مواضيع اجتماعية وعمرانية وادبية واخلاقية تلذ مطالعتها لكل قارئ . وقد اختار هذه المقالات مؤسس الهلال بنفسه وكان عازماً على اصدارها في كتاب فعاجلته المنية قبل ان يتاح له تحقيق مراده

وانه ليسرنا ان نتمكن اليوم من نشرها ويقيننا اننا نؤدي بذلك واجباً وخدمة معاً . ومن مميزات هذه المختارات انها خلاصة اختبارات كاتبها ونتاج قريحته — انها خلاصة اختبارات رجل عرف الناس واعترك الدهر ونتاج قريحة استمدت وحيها من ملاحظة الحوادث والاشياء بعين الحكمة والتبصرة

اميل زيدان

ترجمة

صاحب الكتاب

أسرته

جاء في مذكرات للفقيد (١) عن أصل أسرته ما يأتي :

« حدثني والدي وأنا غلام عن أصل عائلتنا فقال ان أباه كان يسمى زيدان مطر (أو زيدان يوسف مطر) وكان خولياً عند الست حبوس والدة الامير مصطفى أرسلان وكانت تحكم عين عنوب وما يليها في أوائل القرن الماضي أي كان وكيلاً على أملاكها وأشغالها . فلما حمل ابراهيم باشا على سوريا وفتح عكا وأراد الاستيلاء على الجبل كانت الست حبوس من جملة الذين لا يريدونه وخافت سطوته فحدثتها نفسها بالفرار من وجهه فعزمت على ذلك وطلبت الى جدي زيدان أن يرافقها في هذا الفرار فأبى لانه رأى بعين البصيرة أن الدولة المصرية غالبة لا محالة وله أطفال وعائلة لا يطاوعه قلبه على فراقهم ولا على حملهم وهو هارب . فألحت عليه بمرافقتها فاعتذر بما تقدم فتركته وقد وجدت عليه وسافرت . فدخل ابراهيم باشا الجبل بمساعدة الامير بشير سنة ١٨٣٢ . وظلت الست حبوس مختفية الى أن ضعف أمر ابراهيم فرجعت الى بلدها عين عنوب وقد حقدت على زيدان وصادرت أملاكه وأمواله وتعمدت الحط من شأنه . فشق ذلك عليه وأثر في صحته فمات قبل أوانه وترك امرأة وابنتين وصبيين أحدهما وأكبرهما والدي ولم تكن سنه تجاوز العاشرة من العمر وهو كبير العائلة . ولم تقدر والدته على البقاء في عين عنوب فنزلت باولادها الى بيروت وليس لهم معين الا أبي . وبيروت يومئذ صغيرة لا مرتزق فيها غير الاتجار وصنع ضروريات الحياة كالاطعمة والالبسة ونحوها أو خدمة الحكومة في الكتابة أو الجندية

وجاء في مكان آخر منها :

« أما أصل عائلتنا فليس له خبر مدون لان والدي خرج من بيت أبيه مع سائر العائلة أشبه بالغرباء وهو طفل لا يعرف شيئاً وربي في بيروت يتيماً فقيراً مشتغلاً بإعالة العائلة فلم يهتم بالبحث عن أصل زوجته

« فلما شبت وأردت البحث عن ذلك كاتبت بعض أهل عين عنوب عما يعلمونه عن عائلة مطر هناك وأصلها فجاءني جواب على لسان شيخ من أهلها انه يذكر ان بضعة من آل مطر أتوا عين عنوب غرباء أشداء لا يعلم أصلهم وان أحدهم زيدان تقدم في خدمة الست حبوس

« وسمعت من رجل آخر ان عائلة والدي توالى منها في عين عنوب بضعة أعقاب وقال آخر غير ذلك . ويغلب على ظني ان أصل عائلتنا من حوران مثل اكثر عائلات الطائفة الارثوذكسية في الشوف وقد هاجرت موطنها الاصلي على أثر الضنك والفقر والاضطهاد مما كان يلاقيه عرب تلك البلاد . والغالب في اعتقادي ان اكثر أهل جنوبي لبنان الروم من عرب حوران ولعلهم من الغساسنة »

تاريخ حياته

نشأته في بيروت

ولد الفقيد في مدينة بيروت في ١٤ دسمبر (ك ١) سنة ١٨٦١ وتلقى مبادىء العلوم في بعض مدارسها الابتدائية حتى قضت عليه الاحوال بترك المدرسة صغيراً ومساعدة والده في أشغاله وهو لم يبلغ الثانية عشرة من عمره . غير ان ميله الغريزي الى العلم والادب جعله ان لا يدع فرصة لا يستفيد منها اما بمطالعة ما تصل اليه يده من الكتب أو بتقربه من رجال العلم . وقد كان مولعاً في أثناء ذلك بالرسم والتصوير حتى تكاد لا تجد كتاباً من كتبه الا عليه شيء من رسمه فكان كلما تعب من الدرس يتشاغل بمثل ذلك حرصاً على وقته أن يضيع بلا عمل

ودرس اللغة الانكليزية في مدرسة ليلية في مدة لا تجاوز خمسة أشهر مع ممارسة شغله طول نهاره وبعض ليله وكانت اكثر اوقات دروسه في اواخر الليل وهو لا يعرف التعب ولا يكل من العمل وكثيراً ما كان يصل ليله بنهاره

ثم انتظم في سلك جمعية شمس البر في بيروت وهي جمعية أدبية اكثر أعضائها من تلاميذ المدرسة الكلية الاميركانية فكان وجوده في هذه الجمعية باعثاً على تضاعف رغبته لما آنسه من ارتياح أعضائها الى صحبته والرغبة في محاضرته . وكثيراً ما كانوا يدعونه لحضور الاحتفالات السنوية للمدرسة الكلية الاميركانية وسماع الخطب والمباحث فكان اذا حضر احتفالاً وسمع ما يتلى فيه من الخطب والمباحث

العلمية والادبية خرج حزيناً يكاد يتقد قلبه غيرة وحمية

وفي سنة ١٨٨١ صمم على ترك شغله وطلب العلم فلاح له أن الطب خير وسيلة تقربه من العلم وتساعده على الكسب . فاستشار بعض أصدقائه من تلاميذ المدرسة الكلية فاشاروا عليه بالعدول عن هذا المسلك الصعب لانه يقتضي وقتاً طويلاً لدرس العلوم الاعدادية لا يقصر عن سنتين فضلاً عن اربع سنوات أخرى لدرس الطب . لكن ذلك لم يكن ليوهن عزمه فدرس العلوم الاعدادية كلها على أحد أصدقائه في نحو شهرين ونصف حتى آن افتتاح المدرسة فتقدم للامتحان وجازه



جرجي زيدان
في الثامنة عشرة



جرجي زيدان
في الحادية والعشرين

وقد كان في السنة الاولى من الطب مثال الاجتهاد مكباً على دروسه برغبة ولذة عظيمتين ونال في الامتحان السنوي شهادات الامتياز على تلاميذ صفه مع أنه كان يتعاطى أشغالاً خاصة تساعده على النفقات . ومع ما حازه من الفوز على أقرانه لم يرَ منهم ما يشاهد عادة بين الاقران من الغيرة والحسد بل كانوا يسرون لنجاحه ويتخذونه مثالاً للذكاء والاجتهاد لما يؤانسونه به من دماثة الاخلاق ولين المعاشرة والاخلاص في صداقتهم

ولما كانت السنة الثانية عاد الى المدرسة ولم يمض شهران حتى كان الاختلال المشهور في داخلية المدرسة الكلية الذي انجلى عن خروج معظم تلاميذها وكان

صاحب الترجمة في جملتهم . وقدم بعد خروجه امتحاناً بالعلوم الصيدلية مع بعض رفاقه أمام لجنة من أشهر أطباء سوريا في جملتهم الكولونيل مراد بك حكيمباشي العسكر والمرحوم الدكتور فانديك وغيرهما فنال الشهادة بالعلوم الآتية وهي اللغة اللاتينية والطبيعيات والحيوان والنبات والجيولوجيا والكيمياء العضوية والمعدنية والتحليل الكيمي والمواد الطبية والاقرباذين العلمي والعملي

سفره الى مصر والسودان وانكلترا

وشخص على أثر ذلك الى الديار المصرية عقب الحوادث العرابية لتكملة الطب في مدرسة قصر العيني غير أن طول المدة لنيل الشهادة الطبية حوّل عزمه عن صناعة الطب فاشتغل بالعلم وتولى تحرير جريدة الزمان — وهي حينئذ الجريدة اليومية الوحيدة في القاهرة — مدة سنة أو تزيد حتى كانت الحملة النيلية الى السودان سنة ١٨٨٤ لانقاذ غردون باشا فسار برفقتها مترجماً في قلم المخابرات وترك صناعة القلم موقتاً رغبة في استطلاع أحوال تلك البلاد . فقضى فيها نحو عشرة أشهر شهد في اثنائها أعظم الوقائع الحربية مثل واقعة أبي طليح والمتمة وغيرها . ولا تسل عما قاساه من الاهوال في تلك السفرة فقد رأى مواقع الحرب رأي العين تحت اطلاق المدافع وصفير القنابل وشاهد القتلى مئات وألوفاً الى ان عاد بعود الحملة بعد مضي عشرة أشهر فنال ثلاثة أوسمة مكافأة له على خدمته وشجاعته

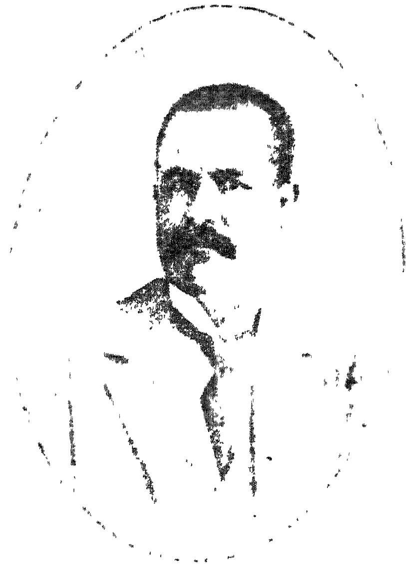
لكن ميله الى العلم كان يزداد مع الايام فلم يستقر في الديار المصرية بعد عودته من الحملة بل سافر تواً الى بيروت سنة ١٨٨٥ وبعد وصوله اليها بقليل انتدبه المجمع العلمي الشرقي ليكون عضواً عاملاً فيه . فمكث في بيروت حوالي عشرة أشهر يطالع اللغات الشرقية فدرس العبرانية والسريانية وأخواتهما ووضع على أثر ذلك كتابه في الالفاظ العربية والفلسفة اللغوية

وفي اثناء ذلك الف احد معارفه رواية دعاها رواية « البطلين » جعل صاحب الترجمة احد بطليها والجنرال غردون باشا البطل الثاني وقد بين المؤلف في سرد حوادث الرواية نتيجة الاجتهاد والمواظبة مع المحافظة على الآداب كما هو شأن صاحب الترجمة

وفي صيف سنة ١٨٨٦ زار عاصمة بلاد الانكليز وكان في اثناء اقامته هناك يتردد على اندية العلم ومجتمعات الآثار ولا سيما المتحف البريطاني الشهير . ثم عاد في

الشتاء الى مصر فطلبت اليه مجلة المقتطف ان يتولى ادارة أشغالها ففعل حتى أوائل سنة ١٨٨٨ فاستقال وانصرف الى الكتابة والتأليف فألف تاريخ مصر الحديث في مجلدين كبيرين وقد عانى في تأليفه صعوبات جمة . وفي سنة ١٨٨٩ الف تاريخ الماسونية العام وهو أول كتاب كتب في العربية من هذا النوع . ثم الف التاريخ العام وهو مختصر تاريخ ممالك آسيا وأفريقيا القديمة والحديثة

وفي أواخر سنة ١٨٨٩ انتدبته المدرسة العبيدية الكبرى لطائفة الروم الارثوذكس بمصر ليتولى ادارة التدريس العربي فيها فتولاها سنتين وفي أثناء ذلك



جرجي زيدان حول الاربعين

ألف رواية المملوك الشارد وهي أول رواياته فصادفت اقبالاً غريباً حتى طبعت غير مرة . وكان صاحب الترجمة قد استحضر بعض الادوات المطبعية فتنحى عن التدريس وثابر على الكتابة والتأليف وأصدر الهلال في اواخر سنة ١٨٩٢ وكان في اول نشأته يتولى من امور نفسه من ادارة وتحرير ومكاتبات وغير ذلك مما لا يستطيعه الا نفر من الرجال ولكنه كان يواصل العمل بلا ملل ولا تعب توصلاً الى النجاح حتى اذا استتم نطاق الهلال عهد بادارتها الى شقيقه واستخدم آخرين للاشغال الاخرى وانقطع هو الى التأليف والتحرير . فكتب منذ انشاء

الهلال مؤلفات عديدة سنأتي على بيانها . وقام في أثناء عطلات الهلال الصيفية بعدة رحلات أهمها رحلته الى الاستانة على اثر الدستور والى أوربا سنة ١٩١٢ والى فلسطين سنة ١٩١٣

وفي مساء الثلاثاء في ٢١ أغسطس سنة ١٩١٤ حوالي الساعة الحادية عشرة وافته المنية بغتة ولم يكن يشكو علة ولا أصيب بمرض . وما هي إلا دقيقة شهق فيها الفقيد شهقة أقامت أهل بيته مذعورين حتى فاضت روحه الى خالقها وانتقل من دار



جرجي زيدان حوالي الثانية والخمسين

الفناء الى دار البقاء . وكان الى آخر ساعة من حياته على تمام الصحة يشتغل كبضعة رجال من غير أن يعرف الكلل او الملل

الرجل وأخلاقه

كان الفقيد ربعة ممتلىء الجسم أسمر اللون متوقد العينين تظهر عليه ملامح الصحة والنشاط . وكان رحمه الله بسيطاً في جميع أعماله ثابتاً صادقاً لطيف الحديث

قريباً الى الناس لا يأنف من مجالسة من هم دونه ولا يلقى الا والبشاشة تملأ وجهه

ولعل الصفة الغالبة في أخلاقه كبر النفس . ولله در مطران حيث قال : « ما عرفت رجلاً أجمع منه للنقيضين : الكبر والاتضاع » فقد كان متساهلاً في جميع أموره لا يعبأ بالصغائر ولا يلتفت الى ما يقال عنه في معرض الذم . وكثيراً ما كانت تنشر الانتقادات الشديدة على مؤلفاته فلا يجيب عليها في الغالب او اذا فعل كان رده مختصراً مفيداً يشف عن نفس كبيرة وخلق رضي . من ذلك ما نشر في المجلد العشرين من الهلال في صفحة ٥٦٢ رداً على سؤال قارىء عن الباعث على الانتقادات المنشورة في بعض الصحف على مؤلفاته فأجاب : « ولا جواب عندنا على المطاعن غير المواظبة على العمل الذي وقفنا له حياتنا بما يضمن له ضميرنا في الخطة التي رسمناها لنفسنا منذ وضعنا يدنا على المحراث لا يهمنا إلا خدمة جمهور القراء ورضى نخبة الادباء وخاصة العلماء وهذا ميسور حاصل والحمد لله فحسبنا ذلك »

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما كتبه في المجلد ٢٠ من الهلال صفحة ١١٧ تحت عنوان « نحن والجامعة المصرية » على أثر الضجة التي حصلت عند تعيينه استاذاً لتاريخ الامم الاسلامية فيها ثم عدولها عنه فكان جوابه بسيطاً واضحاً شرح فيه كيف طلبت اليه الجامعة أن يبقى تحت الشروط [illegible] وهو قد قبل حباً بخدمة [illegible] العربية وقد وقف حياته هذا الغرض . ولا حاجة في مقالته هذه تعرب عن [illegible] اخلاقه الراقية ونفسه الكبيرة

وقد كان مخلصاً في عمله نزيهاً عن الاغراض لا يهمه الا الوقوف على الحقيقة والتمسك بأذيالها . ومن أقواله المأثورة « لا يصح الا الصحيح ولا يبقى الا الانسب » وتجد اخلاصه هذا واضحاً في كل عمل شرع فيه وفي كل حرف خطه قلمه

وكان رحمه الله يعرف اللغات العربية والانكليزية والفرنساوية والسريانية والعبرانية مع الالمام بسائر اللغات الشرقية وغيرها . واكثر ما عرفه انما عرفه باجتهاده الشخصي ودرسه على نفسه بالثبات وصدق العزيمة فكان اذا رأى الحاجة الى علم أو لغة أكب عليها حتى يتقنها كما فعل في وقته قد رأى حاجة ماسة الى الاطلاع على ما ألفه الالمانيون في آثار العرب وآدابهم من نتائج مباحثهم وتنقيبهم فدرس هذه اللغة بنفسه وبعد بضعة أشهر أصبح قادراً على فهم ما يقرأه منها وقس على ذلك

وكانت له منزلة كبيرة عند العلماء المستشرقين في أوربا فكان يعرف كثيرين

منهم شخصياً وكان يكاتبهم جميعاً . فضلاً عن منزلتـه في الشرق فقد كان له أحباء ومريدون كثيرون وقراؤه يعدون بالآلاف وكلهم معجب بما يكتبه مولع بمطالعته ولذلك انتشر هلاله ومؤلفاته ورواياته انتشاراً عظيماً لم يعهد في هذه البلاد

وكان رحمه الله يتحاشى مواقف المدح . ولما كان سائحاً في جهات فلسطين في صيف سنة ١٩١٣ لم يقبل ان تقام له الاحتفالات لكن أهل القدس وأهل نابلس أصروا على الاحتفال به بدون تعريفه علماً منهم برفضه اذا خير فدعوه بعد ان اعدت المعدات فلم يسعه الا القبول

وكان الفقيد عضواً في عدة جمعيات علمية وشرقية نخص منها الجمعيات الاسيوية الايتالية والانكليزية والفرنساوية . وأهدى اليه باي تونس وسام الافتخار من الدرجة الاولى فضلاً عن اوسمة حرب السودان وهي المدالية الانكليزية والنجمة المصرية والعروة المختصة بواقعة أبي طليح . وأنعمت عليه الحكومة المصرية برتبة المتمايز الرفيعة اعترافاً بفضله على اللغة العربية وآدابها . وقررت عمدة الكلية السورية الاميركية في بيروت قبل وفاته ببضعة اشهر منحه لقب شرف من القابها العلمية

آثاره

جاء مستشرق مرة لزيارة الفقيد فلما رآه سأله « أأنت جرجي زيدان ؟ » فاجاب « نعم » فقال « ما أبعد صورة شخصك المرسومة في مخيلتي عن شخصك الحقيقي فاني كنت انتظر ان ارى رجلاً شيخاً ذا لحية بيضاء لان من يطلع على مؤلفاتك لا يقدر عمرك باقل من ثمانين سنة ! » . فقد كان الفقيد رحمه الله مجتهداً للدرجة القصوى مثابراً منظماً في اعماله ولولا هذه الصفات ما قدر على انتاج تلك المؤلفات الضخمة والقيام بمشروعاته العظيمة

١ — الهلال

ومحور آثاره كلها « الهلال » الذي لم يكد يتم سنته الثانية والعشرين حتى فوجىء بوفاة منشئه . وهو منتشر انتشاراً عظيماً في اربعة اقطار الارض فانك لا تجد بلداً في احدى القارات الخمس فيها قوم يقرأون العربية إلا كان الهلال في جملة ما يطالعونه . والسبب في سعة انتشاره ان مواضيعه قريبة من حاجة القراء على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم وانه يتوخى العبارة السهلة في كل ما يكتبه مع توضيحه بالصور والخرائط العديدة

٢ — مؤلفاته التاريخية واللغوية والعلمية

كتب الفقيد في مواضيع مختلفة لكنه حاز شهرته الواسعة في الشرق والغرب بصفة كونه مؤرخاً مدققاً ولا سيما انه طرق مواضيع مهمة جديدة لم يسبقه اليها كاتب مع قلة المصادر التي يرجع اليها وافتقار اللغة العربية الى مثلها

واليك أهم مؤلفاته في التاريخ واللغة وغيرهما

تاريخ مصر الحديث جزآن	طبع مرتين
تاريخ التمدن الاسلامي ٥ اجزاء	طبع مرتين
تاريخ العرب قبل الاسلام	
تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر جزآن	طبع مرتين
تاريخ آداب اللغة العربية ٤ اجزاء	
الفلسفة اللغوية والالفاظ العربية	طبع مرتين
تاريخ الماسونية العام	
تاريخ اللغة العربية	
أنساب العرب القدماء	
علم الفراسة الحديث	طبع مرتين
طبقات الامم	
عجائب الخلق	

وقد نقل تاريخ التمدن الاسلامي الى خمس لغات : الاوردية أو الهندستانية والتركية والانكليزية والفرنساوية والفارسية . وترجم كتاب الفلسفة اللغوية الى التركية

٣ — رواياته

كان غرض الفقيد الاول تحبيب المواضيع الشرقية والتاريخية الى جمهور القراء فرأى افضل سبيل لذلك ان يجعل التاريخ في شكل روايات من غير ان يشوه الحوادث التاريخية . وقد نجح في مشروعه هذا نجاحاً كبيراً فعيد طبع رواياته مثنى وثلاث ورباع وترجمت الى عدة لغات شرقية وغربية

وقد جعل رواياته التاريخية متسلسلة منذ ظهور الاسلام تتناول كل واحدة منها عصراً تاريخياً فتصف رجاله وعاداته وحوادثه مع المحافظة على الاصل بقدر الامكان .

ورواياته تختلف من هذا القبيل عن روايات اسكندر دوماس . فالفقيد كان يكتب الروايات للترغيب في التاريخ اما الثاني فكان يستعير الحوادث التاريخية ترويجاً لرواياته . وقد ظهر من سلسلة روايات تاريخ الاسلام ١٨ حلقة اليك اسماء وعدد طبعاتها

١	فتاة غسان (جزءان)	طبعت ثلاثاً	١٠	العباسة اخت الرشيد	طبعت مرتين
٢	ارمانوسة المصرية	« «	١١	الامين والمأمون	« «
٣	عذراء قريش	« «	١٢	عروس فرغانة	« «
٤	١٧ رمضان	« مرتين	١٣	احمد بن طولون	« «
٥	غادة كربلاء	« ثلاثاً	١٤	عبد الرحمن الناصر	« «
٦	الحجاج بن يوسف	« مرتين	١٥	فتاة القيروان	
٧	فتح الاندلس	« «	١٦	صلاح الدين ومكايد الحشاشين	
٨	شارل وعبد الرحمن	« «	١٧	شجرة الدر	
٩	ابو مسلم الخراساني	« «	١٨	الانقلاب العثماني	

وله اربع روايات خارجة عن السلسلة وهي

المملوك الشارد	طبعت اربعاً	استبداد المماليك	طبعت مرتين
اسير المتمهدي	« ثلاثاً	جهاد المحبين	« «

وقد نقلت هذه الروايات الى اهم اللغات الشرقية وبعض اللغات الاوربية . وعلى الاجمال فاللغات التي نقلت اليها حتى الآن بعضها او كلها هي اللغة الاوردية (الهندستانية) والفارسية والدرويدية والتركية الاذربايجانية والتركية العثمانية والفرنسوية والانكليزية والروسية والبورتغالية

ان سرد اسماء هذه الكتب وعدد طبعاتها واللغات التي ترجمت اليها ابلغ من كل ما يقال في مكانة الفقيد وخسارة اللغة العربية بفقده رحمه الله بقدر ما افاد الناس

القسم الاول

الاخلاقيات والحكميات

الاخلاق الراقية

حاجتنا الكبرى (١)

تمهيد

نحن بين يدي نهضة اجتماعية هي من ثمار المدنية الحديثة . ولذلك فإننا في حب التطور أو التحول ولا بد لنا من أشياء كثيرة لتحقيق [illegible] في حاجة الى كثير من أسباب هذه المدنية [illegible] في هذه الحال . نحن في حاجة الى ترقية التعليم في المدارس والى اصلاح حالتنا الاجتماعية وسائر أحوالنا الاقتصادية والمعاشية والى كثير من عوامل الارتقاء على اختلاف وجوهه . لكن حاجتنا الكبرى انما هي الى « الاخلاق الراقية »

الاخلاق [illegible]

نحن في حاجة الى الاخلاق الراقية أكثر من حاجتنا الى أي شيء آخر لأن الاخلاق تمثل الامم أكثر مما تمثلها سائر المواهب . والامة [illegible] ترتقي أو تسقط وتسود أو تذل باخلاقها لا بعلومها ولا بثروتها . اعتبر ذلك في تاريخ الامم قديما وحديثا فانك لا تجد العصر [illegible] الا حيث تكون الاخلاق الراقية . [illegible] أهل خشونة وتقشف من العيش . [illegible] فتحوا [illegible] حول

(١) [illegible] سنة ٣٣ صفحة ١١

وروايانه تختلف من هذا القبيل عن روايات اسكندر دوماس . فالفقيد كان يكتب الروايات للترغيب في التاريخ اما الثاني فكان يستعير الحوادث التاريخية ترويجاً لرواياته . وقد ظهر من سلسلة روايات تاريخ الاسلام ١٨ حلقة اليك اسماء وعدد طبعاتها

١	فتاة غسان (جزءان)	طبعت ثلاثاً	١٠	العباسة اخت الرشيد	طبعت مرتين
٢	ارمانوسة المصرية	« «	١١	الامين والمأمون	« «
٣	عذراء قريش	« «	١٢	عروس فرغانة	« «
٤	١٧ رمضان	« مرتين	١٣	احمد بن طولون	« «
٥	غادة كربلاء	« ثلاثاً	١٤	عبد الرحمن الناصر	« «
٦	الحجاج بن يوسف	« مرتين	١٥	فتاة القيروان	
٧	فتح الاندلس	« «	١٦	صلاح الدين ومكايد الحشاشين	
٨	شارل وعبد الرحمن	« «	١٧	شجرة الدر	
٩	ابو مسلم الخراساني	« «	١٨	الانقلاب العثماني	

وله اربع روايات خارجة عن السلسلة وهي

المملوك الشارد	طبعت اربعاً	استبداد المماليك	طبعت مرتين
اسير المتمهدي	« ثلاثاً	جهاد المحبين	« «

وقد نقلت هذه الروايات الى اهم اللغات الشرقية وبعض اللغات الاوربية . وعلى الاجمال فاللغات التي نقلت اليها حتى الآن بعضها او كلها هي اللغة الاوردية (الهندستانية) والفارسية والدرويدية والتركية الاذربايجانية والتركية العثمانية والفرنساوية والانكليزية والروسية والبورتغالية

ان سرد اسماء هذه الكتب وعدد طبعاتها واللغات التي ترجمت اليها ابلغ من كل ما يقال في مكانة الفقيد وخسارة اللغة العربية بفقده رحمه الله بقدر ما افاد الناس

القسم الأول

الاخلاقيات والحكميات

الاخلاق الراقية

حاجتنا الكبرى (١)

تمهيد

نحن بين يدي نهضة اجتماعية هي من ثمار المدنية الحديثة . ولذلك فاننا في حال التطور أو التحول ولا بد لنا من أشياء كثيرة نحتاج اليها في أثناء هذا التحول . اننا في حاجة الى كثير من أسباب هذه المدنية لا غنى عنها لمن هم في مثل حالنا . نحن في حاجة الى ترقية التعليم في المدارس والى اصلاح حالتنا الاجتماعية وسائر أحوالنا الاقتصادية أو المعاشية والى كثير من عوامل الارتقاء على اختلاف وجوهه . لكن حاجتنا الكبرى انما هي الى الاخلاق الراقية

الاخلاق و[illegible]

نحن في حاجة الى الاخلاق الراقية أكثر من حاجتنا الى أي شيء آخر لان الاخلاق تمثل الامم أكثر مما تمثلها سائر المواهب . والامة انما ترتقي أو تسقط وتسود أو تذل باخلاقها لا بعلومها ولا بثروتها . اعتبر ذلك في تاريخ الامم قديماً وحديثاً فانك لا تجد نصراً الا حيث تكون الاخلاق الراقية . نهض الرومان وهم أهل خشونة وشظف من العيش . ولم يمض زمن بعيد حتى فتحوا عالم التمدن حول

---

(١) عن الهلال سنة ٢٢ صفحة ١١

البحر المتوسط وتسلطوا على أمم شتى خضعت لهم . ليس لقلة أموالها أو جهل أهلها بل لضعف أخلاقها . يكفيك من تلك الامم اليونان وهم أصحاب العلم والفلسفة دانوا للرومان وهم أهل جهالة وخشونة . وانما نبغ الرومان باخلاقهم اللازمة للفتح في ذلك العهد نعني البسالة والثبات والاتحاد ونحوها

نهض العرب في صدر الاسلام وهم أهل جاهلية لا علم عندهم ولا ثروة ولكنهم كانوا أهل أريحية ونجدة وشجاعة أدبية واستقلال فكر وصبر على المكاره . فحاربوا الروم خلائف أولئك الرومان الفاتحين وهم أهل ثروة وعلم وفلسفة . لكن الاخلاق اللازمة للتغلب كانت قد ذهبت منهم وضعفت نفوسهم من الانغماس في الترف والاركان الى الرخاء وقد تمزقت وحدتهم من ضعف الاخلاق فغلبهم العرب وهم أقل منهم عدداً وأضعف عدداً وانما غلبوهم بالاخلاق

وقس على ذلك الجرمان الذين هبطوا على المملكة الرومانية من الشمال وكانوا أهل بداوة وخشونة مثل العرب الذين صعدوا اليها من الجنوب . وقد فعلوا مثل فعلهم وأسسوا دولاً جديدة على أنقاض الدولة الرومانية هي الدول الاوربية الحديثة الباقية الى هذا العهد . وأرسخها قدماً في السيادة وسعة المملكة أمتنها أخلاقاً نعني الانكليز وهم يحكمون أضعاف عددهم من الامم بينها أمم تفوقهم ذكاء ونباهة وعلماً وثروة لكنهم حكموها بالاخلاق

ما هي الاخلاق الراقية

لكل تمدن أخلاق تسود فيه ويقدسها أهله لأنها من دعائم ذلك التمدن . فهي عندهم أخلاق راقية وقد لا تعد راقية في تمدن آخر . فالتمدن الاسلامي يرى ان الاريحية والنجدة والخير والسخاء والوفاء فهي من أرقى الاخلاق بالنظر الى ذلك التمدن . لكن بعضها لا يعدُّ راقياً بالنظر الى المدنية الحديثة والبعض الآخر لا يزال معدوداً من أرقى الاخلاق . ويهمنا في هذا المقام الاخلاق التي تلائم هذه المدنية والتي لا بدَّ منها لرقي الافراد واصلاح الجماعات . وهي ترجع الى خلقين رئيسيين ، الصدق والثبات ، كل منهما ينطوي على عدة فروع . فلنتكلم عن كل منهما

١ - الصدق

الصدق سيد الاخلاق لانه ينطوي على أهم السجايا الراقية ولذلك قلنا في غير هـذا المكان « علم ابنك الصدق والصدق يعمه كل فضيلة » ويوافق ذلك حديث نبوي في هـذا المعنى خلاصته ان رجلاً أتى النبي وأسلم ثم قال « يا رسول الله انما أؤخذ من الذنوب بما ظهر وأنا أستتر بخلال أربع الزنا والسرقة وشرب الخمر والكذب فايهن أحببت تركتها سراً » فقال « دع الكذب » فلما تولى الرجل من عنده هم بالزنا فقال « يسألني رسول الله فان جحدت نقضت ما جعلت له وان أقررت حددت » فلم يزن ثم هم بالسرقة ثم بشرب الخمر ففكر في مثل ذلك فرجع الى النبي فقال « يا رسول الله قد تركتهن جميعاً »

فلنذكر الاخلاق التي تدخل في باب الصدق وأهمها الشجاعة الادبية والاعتراف بالخطأ والامانة والوفاء والشعور بالواجب والتعويل على الحقيقة والمبادرة الى العمل واليك تفصيل ذلك :

١ ـ الشجاعة الادبية

وقوامها الجرأة في الرأي والصراحة في القول . في [illegible] الانسان رأيه بلا خوف ولا حذر . وهل هذا الخلق شائع بيننا ؟ نحن في حاجة اليه ؛ لا يختلف اثنان في انا من احط الامم في ابداء الرأي . ومن منا اذا سئل عن رأيه في موضوع أجاب بصراحة ولم يراع خاطر سامعه ، حتى في المسائل العامة التي تنشر في الصحف فانك لا تقرأ فيها رأياً لا تشم منه رائحة المسايرة أو المحاباة . واغرب من ذلك انك تجد لبعضهم رأيين متناقضين في مسألة واحدة قالهما في حالين مختلفين راعى فيهما مصلحته

ويتناول هذا الوجه من الشجاعة الادبية نشر النصح والارشاد في العامة ويدخل فيه بث المبادىء الصحيحة والآراء الصالحة ومحاربة ما ألفه العوام أو تعودوه . وهو من مقتضيات المدنية الحديثة في عصر [illegible] ، والنشر النصح فيهم يقوم أكثره بالصحف والمجلات أو القاء الخطب في الاندية . والاخلاص في ارشاد العامة أفضل ضروب الشجاعة لانه يجني عن [illegible] سواه . وقلة [illegible] الاخلاص نصح الامة [illegible] وواجبهم [illegible] مقاومة [illegible] ومن حكامهم

فهل ترى الأفكار عندنا عاملون بهذه الفضيلة ؟ من من اصحابك اذا سألته رأيه في مسألة هامة تثق أنه يخلصك النصح بلا مراعاة أو مجاملة ؟ ألا ترى الاكثرين يتهيبون من ابداء آرائهم لئلا يكون فيها ما يسوءك فيتنصلون ويواربون . وقد يقولون عكس ما يعتقدون ارضاء لك — لأن من الآداب الاجتماعية الشرقية أن نرضي جليسنا بأية وسيلة كانت ! ولو عقلنا لكان في ابداء نصحنا له ارضاء نافعاً لاننا اذا كان اعتقادنا فيه يسوءه والتصريح بفكرنا يغضبه فعذرنا اننا أردنا اخلاص النصح ثم يتحول ذلك الغضب الى امتنان . وفي كل حال فالصادق يجب عليه أن يبدي رأيه بصراحة واخلاص . والا فقد كذب لا عن رغبة في الكذب أو طمعاً في كسب وانما يفعل ذلك عن خجل لئلا يسيء مخاطبه . وقد يكون السائل من عامة الناس يتقدم الى بعض الكبراء بوساطة أو معروف يلتمسه منه فيعده خيراً ويسوّف الانجاز لانه لا يريد أن يجيب ملتمسه أو لا يقدر عليه . فما كان اجدره أن يقول له فكره بصريح العبارة من اول الامر . وهذه علة متمكنة فينا سببها الجبن الادبي

٢ — الاعتراف بالخطأ

الاعتراف بالخطأ من اكبر دلائل الارتقاء وهو لا يصدر الا عن نفس كبيرة وخلق قوي لان « الاعتراف بالخطأ صواب والاقرار بالعجز قوة » وهل اصغر نفساً ممن يعرف خطأه ويحاول كتمانه بالمكابرة . انه يكذب على نفسه ويخدع اصحابه ويحاول أن يشارك الله سبحانه وتعالى في العصمة من الخطأ

ولذلك رأيت الامم الراقية تبث هذه الروح في ناشئتها من طفولتهم برواية القصص التي تحسن هذه الفضيلة . وربما كان الانكليز من اكثر الامم سعياً في هذا السبيل . وهذه كتبهم المدرسية ملأى بحكايات من هذا القبيل . وناهيك بما يتناقله حكماؤهم من الاقوال المأثورة في هذا المعنى

فاذا اقتدينا بهم وبثثنا هذه الروح في اطفالنا وشجعناهم على الاعتراف بالخطأ الذي يقع منهم شبوا عليه وهان على احدهم اذا انتقد صاحبه عملاً من اعماله او خلقاً من اخلاقه أن ينظر في انتقاده بعين الاخلاص فاذا رأى الحق في جانبه وافقه وشكر له صنعه واجتهد في اصلاحه . ولا يتأتى الاصلاح من غير هذا السبيل . والشاب الذي يهون عليه الاعتراف بالخطأ يثمر بمستقبل جيد . واما المكابر المغرور فالامل

٣ ـ الامانة والوفاء

لا حاجة بنا الى بيان فضيلة الامنة والاستقامة وصدق المعاملة او وفاء الحقوق فانها من ابسط مظاهر الصدق وهي بديهية شائعة . وانما نوجه الانظار الى خلق منها نحن في حاجة الى اصلاحه نعني « الاخلاف بالوعد » فانها عادة شائعة كأنها طبيعية فينا ويعدها الاجانب من الغرائز الشرقية . دعنا من المماطلة في دفع ما علينا من الحقوق المدنية او التجارية فان القضاء يعلمنا القيام بها رغم ارادتنا . وانما نوجه التفات القارىء الى الاخلاف بالحقوق الادبية من وعد بزيارة أو مقابلة وهو بالحقيقة عنوان الاخلاف بسواها لان الرجل الذي يهون عليه أن يعدك بزيارة وهو ينوي الاخلاف بوعده ينبغي لك أن تتجنب معاملته لانه يخلف كل وعد ولو اقسم لك انه فاعل . فانه يحنث باليمين ويكذب على نفسه فكيف عليك .

أليس من الاخلاق الساقطة أن يعدك صديقك بعمل يؤديه في وقت معين ويؤكد لك ذلك وهو لا ينوي القيام بوعده مع علمه انك في انتظاره على مثل الجمر ? ـ الا اذا كان تخلفه عن اضطرار وعند ذلك وجب عليه أن ينبئك بما حال دون وفائه بأقرب وقت . ولكننا لا نفعل هذا ولا ذاك . نعد لوعد ونحن لا ننوي الوفاء ولا نبالي بمشقة الانتظار أو القلق . انا في حاجة الى صلاح هذا النقص بالتربية من الصغر في البيوت ثم في المدارس

على اننا سائرون في هذا السبيل من طبيعة العمران الحديث احتكاكنا بالاجانب الذين يقدسون الوعود ويدققون في انجازها . وناهيك بنظامات العمل في الحكومة وغيرها فانها مبنية على الدقة في المواعيد وقد عودت الناس على القيام بوعودهم والتدقيق بالوقت لاضطرارهم الى اطاعة تلك المصالح والا عاد اهمالهم عليهم بالخسارة . كالمسافر بالقطار الحديدي لا تمكنه التخلف عن وقت سفره الا بضياع الفرصة . غير ما نستفيد من المدارس والاسفار في البلاد المتمدنة . ولكننا لا نزال في حاجة الى المزيد حتى يصير ذلك خلقاً فينا

٤ ـ الشعور ...

وهو من قبيل الوفاء لكن له شأناً خاصاً ونحب أن نستلفت به ... خاصاً لانه يمس أهم مصالحنا . ونعني به أن شعور الانسان ... ...

ينبهه اليه احد . وهي منقبة شائعة في العالم المتمدن يشبُّ عليها ابناؤه من طفولتهم ويتغنى بها رجاله وتحلم بها نساؤه

ما اجمل أن يعرف الانسان ما عليه ويقوم به من تلقاء نفسه سواء كان ذلك من حيث المعاملة التجارية او الحقوق الادبية ؟ ان هذه الحاسة ضعيفة فينا وهي خلق راقٍ يجب علينا تعوده

٥ ـ التعويل على الحقيقة

ومن قبيل الصدق التعويل على حقائق الامور دون ظواهرها ونحن اكثر جنوحاً الى الظواهر مما الى الحقائق في اكثر اعمالنا . يعجبنا زخرف القول وترضينا المجاملة وان كان باطنها عكس ظاهرها . فما اجدرنا أن نقتدي بأقرب الامم المتمدنة جواراً منا واكثرها علاقة باحوالنا نعني الامة الانكليزية فانها اكثر أمم الارض تعويلاً على الحقيقة المحسوسة وبُعداً عن الاوهام . لو عولنا على الحقائق ونظرنا في اعمالنا الى حقائقها وما يعود منها بالنفع علينا ولم تنخدع بزخارف الاقوال لكنا في حال غير حالنا . ولكننا فطرنا على التأثر من الظواهر يستفزنا القول ويهيجنا الكلام على ظاهره فنقوم له ونقعد ولو تدبرناه لما حرك منا ساكناً

اعتبر ذلك في كثير من احوالنا السياسية والاجتماعية وفي سائر اعمالنا اليومية . اننا نُسمعك جعجعة ولا نريك طحناً . وهو من الاخلاق الضعيفة التي يجب العدول عنها بالتربية

٦ ـ المبادرة الى العمل

التسويف من اقبح ما يتهم به الشرقيون . وقد ألف الافرنج في ذلك الكتب ونظموا القصائد وهم يستعيرون في تعبيرهم عن ذلك التسويف قولهم « بكرا » أي غداً يريدون أن الشرقي ليس أسهل عليه من تأجيل الوعد . ويدخل في ذلك تراخيه في انجاز ما عليه من عمل أو قول وهو من الاخلاق الضارة . فالعاقل من بادر الى العمل ولم يؤجل الى الغد ما يقدر أن يفعله اليوم وهو من ثمار النشاط والاقدام ويدخل في باب الصدق لان صاحبه يصادق به على اعتقاده

٢ — الثبات

الثبات قوة في النفس تساعد صاحبها على مقاومة العوارض . وهو ينطوي على عدة مناقب هاك أهمها :

١ ـ متانة الخلق

هي غريزة تساعد صاحبها على الثبات في ما يعتقده وان خالف مصلحته أو قاسى
العذاب في سبيله . ومن اصحاب هذه السجية طائفة من كبار الرجال وشهداء الحق
والحرية في كل زمان . نعني الذين تعرضوا للقتل في سبيل اصرارهم على ما يعتقدونه
وتجاهرهم به كما فعل سقراط وغليليو وغيرهم من نصراء العلم . وكما فعل الشهداء في
نصرة الدين والحق وهم كثيرون عند النصارى . ومنهم عند المسلمين ابو ذر الغفاري
وحجر بن عدي الكندي واحمد بن حنبل وغيرهم . وهي من أرقى الغرائز البشرية
ويعبر عنها بالثبات في المبدأ ونحن في اشد الحاجة اليها لقلة من يثبت منا في خطة
يرسمها أو قول يقوله . انما نحن من حيث المبدأ كريشة في مهب الريح نكاد لا نفهم
معنى المبدأ أو الثبات فيه . اذا سئل أحدنا عن رأيه في مسألة من المسائل العمومية
اجاب بما يتبادر الى ذهنه انه الصواب . فاذا خالفته فيه وافقك بلا دليل يقنعه ولكنه
فعل ذلك لضعف الخلق

ويدخل فيها الثبات في ما يباشره الانسان من الاعمال حتى يتمه وهو من اكبر
اسباب النجاح في أعمال البشر . لان الانسان مهما بلغ من ذكائه ونشاطه واقدامه
لا يفيده ذلك شيئاً ان لم يكن متين الخلق ثابتاً في عمله صابراً على ما يعترضه في
سبيله .

٢ ـ الاعتماد على النفس

وهو من قبيل متانة الخلق لانه يتوقف على اعتماد صاحبه في قوة عزيمته .
ونحن في حاجة الى غرسه في ناشئتنا فاننا فقدنا الاعتماد على انفسنا لتعود ما مر على
اسلافنا من التعويل على الآخرين وتقييد الافكار في أثناء عصور الذل فاصبحنا عالة
على الحكومة في اسباب التربية والتعليم وفي سائر الشؤون الاجتماعية . واصبحت
اعمالنا في ايدي الاجانب . والاعتماد على النفس يعوّد الانسان على مباشرة عمله بنفسه
فيصير في عداد الاحياء المستقلين

٣ ـ سعة الصدر

وهي من ارقى الفضائل وتدخل في الثبات او متانة الخلق لانها مبنية على قلة
تأثير العوارض في نفس صاحبها لكبر عقله . وقد قالوا « ان أعقل الناس اعذرهم
للناس » فواسع الصدر لا يكترث بصغائر الامور ولا يهمه الا الامور الهامة . واكثر

يمل هذا بالتأني والروية . ولذلك كان خطأه قليلاً وكان موضوع التجلة والاحترام . بخلاف اهل النزق والحدة . ولسعة الصدر نصيب حسن من اخلاق الشرقيين لانها من المناقب المتوارثة فيهم من عهد التمدن الاسلامي

الخلاصة

... في حاجة كبرى الى ما ذكرناه من الاخلاق الراقية ولا سبيل اليها الا بالتربية الصحيحة في المنزل والمدارس . وقد انتبه الى ذلك سعادة الوزير حشمت باشا وزير المعارف العمومية . فوجه التفاته الى اصلاح الاخلاق كما وجهه الى ترقية العلوم . ولم يكتف بالمدارس الاميرية بل وجه عنايته حفظه الله الى المدارس الاهلية ووضع ... ونحوهم . وتجاوز ذلك الى طلاب العلم في اوربا من المصريين سواء كانوا من الارساليات الاميرية او غيرها . والف لجنة للنظر في تصرفهم في ديار الغربة . فعينت رجالاً يراقبون سيرهم ويرفعون ذلك الى الوزارة . غير ما امر بادخاله من الدروس الاخلاقية في المدارس المصرية في كتب اختارها من افضل الكتب الاخلاقية التي تدرس في ارقى مدارس اوربا وامر بنقلها الى العربية لتعليم ... منذ الصغر

المرء باخلاقه

لا بذكائه [1]

قد يرى القارىء غرابة بعنوان هذه المقالة لان الانسان انما يمتاز عن الحيوان بالذكاء وهو الذي ينهض به من مهاوي الفاقة . وبه تمت الاكتشافات والاختراعات ولولا الذكاء لظل الناس في ظلمات الهمجية فكيف يكون ثانوياً ويكون للاخلاق المقام الاول ؟

ذلك كله حقيقي لا جدال فيه . وانما اردنا تفضيل الاخلاق بالنظر الى علائق الناس بعضهم ببعض . والانسان يمتاز عن سائر الحيوان بالاجتماع والاتحاد والتآلف والتكاتف . فالاجتماع من اهم شروط الانسانية وهو يتوقف على الاخلاق اكثر مما

(١) عن الهلال سنة ١٨ صفحة ٩٣

على الذكاء . ونعني بالاخلاق الصدق والامانة والاخلاص والحنو والشفقة والالفة وسعة الصدر ونحوها من الفضائل . وبالكذب والغدر والدناءة والحماقة ونحوها من الرذائل

فالفضائل اذا اجتمعت في الانسان ولو كان قليل الذكاء فانها تنهض به وتأخذ بيده . وتكون من الجهة الاخرى وسيلة الارتباط بأصدقائه وابناء وطنه فيعامله الناس وهم مطمئنون واثقون فتروج بضاعته لا تضره قبل ذاته او هي لا تضر عملاءه او رفاقه او مواطنيه تبعاً لما يكون من مركزه او عمله

اما الرذائل اذا غلبت على الرجل ولو كان ذكياً او كان له علم الاولين والاخرين فان علمه قلما يفيده او يفيد سواه بل هو يستعين بذكائه وعلمه على الاذى . ولو كان جاهلاً خاملاً لكان خيراً للناس لانه يكون قليل الاذية واخف شراً

ماذا يستفيد الناس من غني جمع المال بذكائه واقدامه ان لم يكن صادقاً محباً لاهله مخلصاً في معاملاته محسناً الى المعوزين . ألم يكن خيراً لهم لو كان هـذا الرجل من الفقراء وكان ماله او علمه لرجل ذي اخلاق سامية يفيد ويستفيد

ومن الاخلاق ما يؤثر في مصلحة الفرد ومنها ما يؤثر في مصلحة الجمهور ومنها ما يشترك فيهما جميعاً . فالاخلاق التي تؤثر في مصلحة الفرد هي التي تنفعه او تضره فاولها وسيدها « الصدق » فالرجل الصادق اذا تعاطى عملاً وان كان علمه قليلاً فانه ينجح ومهما كثر علمه واختباره في صناعته او مهنته او تجارته وكان كاذباً فبشره بالخيبة ولو بعد حين . وقس على ذلك سائر الاخلاق اللازمة للنجاح كالثبات والمواظبة ولين الجانب ودماثة الخلق وغيرها

أما الاخـلاق اللازمة للامة أو الجماعة لحفظ جامعتها أو نجاح اعمالها فأهمها الاخلاص وصدق الطوية والصراحة في القول والعمل . وضدها الملق والغدر والرياء والتملق ونحوها . فالرجال العموميون ـ ونعني بالعمومي من يكون عمله في سبيل المصلحة العامة ـ وهم خدمة المصلحة العامة من رجال السياسة والدين وارباب الاقلام وخصوصاً رجال الصحافة والخطباء ـ فهؤلاء مهما بلغ من علمهم وسعة معارفهم وبلاغتهم وفصاحتهم اذا لم يكونوا ذوي اخلاق عالية عنوانها صدق اللهجة والاخلاص والصراحة فان ذكاءهم يكون وسيلة للخراب . لانهم يقودون الامة في مهاوي الضلال

أو هم يشوشون عليها مجاري آمالها لما ينشرونه من الآراء الكاذبة تبعاً لما تقتضيه مطامعهم . وفيه من يبيع قلمه ــ وكأنه باع وطنه ــ لمأرب في نفسه او جراً لمغنم مالي او جاهي والى ذلك اشار الشاعر بقوله :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان همُ ذهبت اخلاقهم ذهبوا

فهؤلاء يزداد ضررهم بازدياد ذكائهم لان ذلك الذكاء آلة يستخدمونها لما تتطلبه اخلاقهم الساقطة

أما اذا كان خدمة الامة أوكتابها جميلي الاخلاق من حيث الاخلاص وصدق النية فانهم يخدمونها بصدقهم خدماً جزيلة ولا يضرهم أن لا يكونوا من نوابغ الاذكياء وفطاحل العلماء . على أن نفعهم يتضاعف طبعاً اذا تضاعف علمهم . أما اذا كان لا بد من نقص في احدى الموهبتين « الاخلاق الحسنة أو الذكاء » فالافضل في نظرنا ان يكون ذلك النقص في الذكاء فيكون ضرره أخف

وقد أتينا على هذه المقدمة لنعرب عما يخامر اعتقادنا من نفع الاخلاق الفاضلة وما نحن في حاجة اليه منها ــ نحن في حاجة الى صدق النية في خدمة المصلحة العامة . الى الصراحة في القول . نحن في حاجة الى ذلك اكثر من حاجتنا الى الدستور او الاستقلال او الى انشاء المصارف المالية او المعامل الصناعية . نحتاج الى الصراحة على الخصوص في صحفنا بمصر والشام وفي سائر الاقطار فان بينها صحفاً تقول ما تريده لا ما تعتقده . ان اختلاف الآراء في الصحف طبيعي ومفيد بشرط أن يكون أساسه صدق اللهجة أي ان يقول الكاتب ما يعتقده لا ما يسوقه اليه الغرض . لذلك رأينا بعض أولئك الكتاب يدورون مع الاحوال ويتقلبون مع الاهواء فاذا كثر امثالهم بين قادة الامة وزعماء الآراء فيها قادوها الى البوار والعياذ بالله

الانسان

إما صادقٌ وإما ساقط[1]

الصدق أن يقول الانسان ما يعتقده سواء طابق الواقع أم لم يطابقه فاذا اعتبرنا هذه القضية بكل ما ينطوي تحتها لا نكاد نجد احداً صادقاً . لان الناس تعودوا

(١) عن الهلال سنة ١١ صفحة ١٤٩

الخروج عن هذه القاعدة في بعض احوال المجاملة أو المساومة . وقد جرت على ألسنتهم الفاظ وعبارات يقولونها في عرض أحاديثهم مما لا يطابق ما يعتقدونه أو هي تخالفه على خط مستقيم . ومع ذلك لا يعدون ذلك كذباً بل هو عندهم من قبيل المجاملة أو المسايرة . فلا نطمع بازالة هذه العادة وقد رسخت في الهيأة الاجتماعية وتمكنت من اخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم وخصوصاً في الشرق

ويقال نحو ذلك فيما تعوده الباعة من المبالغة في امتداح سلعهم ترغيباً للشاري ولا بأس منها اذا لم تجر الى الغش أو الخداع لانها تكون من قبيل المجاملة أيضاً وان كنا نفضل التخلص منها كما تخلص منها كثيرون من رجال الاستقامة والصدق . فان بين الباعة من لا يقول غير ما يعتقد وهم الرابحون ولكنهم قليلون وخصوصاً بيننا

وهناك نوع آخر من الكذب جوزه الناس ويسمونه الكذب السياسي وهو ما يدور بين رجال السياسة من المخابرات وما يتخللها من الابهام والمخاتلة والدهاء . وهم يغتفرون ذلك لانفسهم بما يرجون به من النفع العائد على أمتهم اذا فازوا بسياستهم . فيندر بين رجال السياسة من يتوخى الصدق بمعناه الحقيقي الذي ذكرناه

على ان ذلك وأمثاله لا يغير المراد بالصادق — فهو الذي يقول ما يعتقده سواء طابق الواقع أو لم يطابقه ولا عبرة في ما قد يفرط منه مخالفاً لاعتقاده لاسباب طارئة لا تضرّ باحد او ربما كان الكذب فيها نافعاً ومن اقوالهم « الصدق محمود من كل أحد الا من الساعي »

فاذا تبين المراد بالصدق فلا يستغرب القارئ قولنا « الانسان إما صادق وإما ساقط » أي أن من لم يكن صادقاً فهو ساقط . والدليل على ذلك أن الصدق يستلزم كل الفضائل وينفي كل الرذائل ومن أقوال القدماء « الصدق عمود الدين وركن الادب وأصل المروءة لا تتم هذه الثلاثة الا به » فالصادق لا يكون غادراً ولا ناكثاً ولا يكون عاقاً ولا زانياً ولا خائناً ولا سارقاً ولا خبيثاً ولا مرائياً — الصادق لا يقدم على أمثال هذه الرذائل لانها تحتاج في اتيانها الى استخدام الكذب وتسخير الضمير وهما لا يتفقان مع الصدق . ومن الاحاديث المأثورة « الكذب يهدي الى الفجور »

ولا يكون الصدق مصدر الفضائل الا اذا شمل الفكر والقول والفعل . فصدق الفكر أن يفكر الانسان بحرية أي أن لا يجعل في سبيل تصوراته ما يشوشها أو يكدرها حتى لا تتجلى له الحقيقة تماماً بهوى [illegible] حرية الفكر أو حرية

الفكر . وصاحبه يرى الحقائق كما هي فلا يقف في سبيل فكره غرض أو تقليد أو عادة قبيحة تشوش صورة الحق في ذهنه . وصدق القول يستلزم أن يقول الانسان ما يعتقده كما قدمناه . وصدق العمل أن لا يعمل الانسان غير ما يعتقد صوابه . فمن صدق ضميره وقوله وفعله لا يمكنه أن يغدر بصديق أحسن اليه أو يخون رجلاً أمنه على ماله أو عرضه . وكيف يجيز لنفسه السرقة وهو يعتقد أنه يمد يده الى ما ليس له وصدق العمل ينافي ذلك . ولنفس هذا السبب لا يكون الصادق عقوقاً ولا ناكثاً ولا غادراً ولا نماماً ولا واشياً ولا ساعياً . فانه اذا حدثته نفسه بارتكاب مثل هذه الدنايا كان له من ضميره رادع . على أن السعاية وان كانت في الظاهر تدل على صدق القول لكنها تنافي صدق الفكر وصدق العمل. لان الساعي وهو ينقل طعن أحد الناس في آخر انما يفعل ذلك بقصد الوقيعة ويتظاهر بغير ذلك وهو ما نعبر عنه بكذب الضمير . ومن لطيف ما روي من حوادث النميمة ان انساناً رفع الى الصاحب بن عباد رقعة يحثه فيها على أخذ مال يتيم وكان مالاً كثيراً فكتب اليه على ظهرها النميمة قبيحة وان كانت صحيحة والميت رحمه الله واليتيم جبره الله والساعي لعنه الله ولا حول ولا قوة الا بالله »

فاذا تحريت الفضائل التي هي أساس العمران رأيت معظمها يرجع الى الصدق. فلن يكون الانسان عادلاً إن لم يكن صادقاً والعدل يستلزم صدق الضمير وصدق العمل ولا يقدم الانسان على ظلم الانسان الا اذا خالف ضميره وناقض احكام عقله . والعبادة لا تصح الا بالصدق فمن أدى فروض الصلاة وهو لا يعتقد أنه يفعل صواباً لا تنفعه صلاته شيئاً . وكذلك المودة والوفاء وحفظ العهد والبر بالوالدين فانها تقتضي أن يقول الانسان أو يفعل ما يعتقده وقس على ذلك سائر الفضائل الرئيسية ـ فهل تنكر بعد ذلك ان الانسان إما صادق وإما ساقط »

فالصدق أس الفضائل. علموا أولادكم ـ علموهم الصدق والصدق يعلمهم كل فضيلة . على انكم قد لا تحتاجون الى تعليمهم اياه بل يكفي أن لا تعلموهم الكذب لان الطفل يولد صادقاً لا يعرف التظاهر بغير ما في ضميره ثم يساق بضعف الطبيعة البشرية الى التخلق بهذه المؤثرات . فاذا لم ينتبه الوالدون الى هذا المبدأ افسدوا أولادهم وهم لا يعلمون فيعودونهم الكذب في سبيل المجون أو الممازحة وقد يرون الكذبة يكذبها ابنهم ويعدون ذلك ذكاء منه فينشطونه على السير في

هذه الطريق وهم غافلون . ومن اكبر مفسدات التربية ممازحة الطفل بالكذب كأن تعده بشيء على أن يأتي اليك مثلاً فاذا جاء لا تعطيه اياه . أو أن تقول له جاء فلان وهو لم يجيء أو نحو ذلك مما لا يظهر لاول وهلة في شيء من الاهمية ولكنه يجر الى امتهان الصدق . فلا تعد ابنك بشيء الا وفيت له به . واذا كذب ابنك كذبة ولو كانت صغيرة فأوهمه أنها كبيرة جداً — اتعب نفسك في تدريبه على الصدق منذ طفولته فاذا فعلت ذلك فانك تكون قد بنيت له أساساً لسائر الفضائل

الصدق سيد الاخلاق

علم ابنك الصدق والصدق يعلمه كل فضيلة (١)

لو علمت ابنك كل علم ولقنته كل فن وخرجته في اكبر الجامعات ودربته على أبواب الكسب حتى صار فيلسوف زمانه وقارون أيامه وألبسته الحرير والدمقس وأقمته في أفخم القصور وأحطته بالخدم والاعوان وجعلته آية من آيات الزمان ولم تعلمه الصدق فقد أركبته مركباً خشناً وسلكت به مسلكاً زلِلاً وكنت كالباني على الرمال أو الكاتب على الماء لان المرء بأخلاقه لا بعلمه ولا ماله . والكاذب ذليل ولو عز والصادق عزيز وان ذل ولله در القائل :

لا يكذب المرء الا من مهانته ... أو عادة السوء أو من قلة الادب
لجيفة الكلب عندي خير رائحة ... من كذبة المرء في جدٍّ وفي لعب

والفضائل تعد عند علماء الاخلاق بالعشرات وفي جملتها المحبة والعفة والامانة والاستقامة والتقوى والحنو والشفقة والشهامة والبر والاحسان وحرية الضمير وصدق اللهجة وغيرها . ولو أردنا تحديد كل منها على حدة لضاق بنا المقام وتشابهت علينا أساليبها وقواعدها واختلطت لدينا تعاريفها . والرذائل كثيرة أيضاً وهي ضد الفضائل ومنها السرقة والطمع والكذب والظلم واللؤم والفسق وغير ذلك مما لا يقع تحت الحصر

ولكننا لو بحثنا في كل من الفضائل والرذائل بحثاً تحليلياً لرأيناها تجتمع في

---

(١) عن الهلال سنة ١٨ صفحة ٤٠٧

خلتين تنطوي تحت احداهما الفضائل وتحت الاخرى الرذائل . وهما الصدق والكذب

واذا نظرنا الى الصدق من حيث أحوال الناس رأيناه يرجع الى أربعة أقسام ١ صدق الفكر ٢ صدق القول ٣ صدق المعاملة ٤ صدق الوعد

فصدق الفكر يراد به حرية الفكر وهي ان يصدق الانسان نفسه في اعتقاده فلا يحمله الطمع او الشره على تأويل اعتقاده فيكذب على نفسه . فان من الناس من تصور له نفسه الحقيقة فيتعامى عنها او يقلبها في ذهنه حتى يراها على غير ما هي . ولو أطلق لفكره العنان ونظر في الحقيقة كما تعرض له لما انخدع لشهواته . وقد يخطر لمرء عمل يعلم انه رذيلة ولكن رغبته في ذلك العمل تحمله على تقليبه واعمال الفكرة فيه بالتأويل والتغيير حتى يراه كما يريد ــ فهو بذلك يكذب في فكره

قال ابو العتاهية

كن في امورك ساكناً فالمرء يدرك في سكونه
واعمد الى صدق الحديـ ـث فانه ازكى فنونه
ربَّ امرء متيقن غلب الشقاء على يقينه

وصدق القول ان يقول الانسان ما يعتقده وهو ما يعبرون عنه بصراحة القول وهي عنوان التمدن الصحيح وقد قال الشاعر :

وكن صادقاً في كل شيء تقوله ولا تك كذاباً فتدعى منافقا

وقال الآخر

الكذب عار وخير القول اصدقه والحق ما مسه من باطل زهقا

وقال آخر

الصدق منجاة لمن هو صادق وترى الكذوب بما يقال يوبخ

ولا نرى اتعس حالاً من نفس الكاذب في ما يقول فهو كالسارق أو المزوّر لانه يعلم الحقيقة ويقول خلافها . ويدخل في هذا الباب حرية القول وهي من اكبر دلائل المدنية الصحيحة وما احوجنا اليها في الشرق فان توالي الظلم علينا اجيالاً متطاولة عودنا الخوف من الصدق فصرنا نكذب ونسمي كذبنا مجاملة

والامة مهما بلغت من الثروة والحضارة ولو تبسط اهلها في العيش وبنوا القصور وغرسوا الحدائق وافترشوا الخز والديباج وصاغوا آنيتهم من الذهب ورصعوها



[illegible] من شعبهم [illegible] كتباً وشعراً وفلسفة .
[illegible] تصفحت [illegible] وكثير نجده من كتبهم —
مهما يكن [illegible] فقد [illegible] لا تزال [illegible] ضعيفة — ما تكن حرية [illegible]
شعارها وقاعدة معاملاتها فيتعامل أبناؤها بالصدق ويتخاطبون بالصراحة ويخطبون باللهجة الصادقة ويطلبون حقوقهم بالشجاعة الادبية

واذا أعملت الفكرة في تواريخ الامم رأيت حرية القول ترافق الامة في ابان مجدها ثم تحول عنها حتى تزول في ايام انحطاطها . ألا ترى كيف كان العرب في صدر الاسلام يخاطبون الخليفة كما يخاطبون آحاد الناس ويبثون شكواهم او تظلمهم اليه ولو كانت الشكوى عليه ? فلما استبد الامويون قيدوا افكار الناس وقطعوا ألسنتهم بالسيف أو بالعطاء فاضطروا الى المداجاة خوفاً أو تزلفاً . وتوالى ذلك حتى صار ملكة رسخت برسوخ الظلم وخوف الناس على ارواحهم ان لم يرضوا اميرهم . فصاروا يداجون ويزدادون مداجاة بازدياد الاستبداد

أما صدق المعاملة فهي أساس الاخذ والعطاء ولا يعرف قيمتها الا الذين يتعاطون التجارة ونحوها فهؤلاء يقولون « صدق المعاملة من الدين » أي انهم رفعوا قدرها الى درجة الدين . وقد انصفوا فان الناس اذا تعايشوا بالمعاملة فاذا لم يصدقوا فيها اصبحت اشغالهم فوضى — ويدخل في صدق المعاملة الامانة وهي ان يؤدي المرء لكل انسان حقه في حينه وهذا قليل بيننا وخصوصاً في مصر حيث شاعت المماطلة باداء الحقوق حتى صارت عادة عند التجار على اختلاف طبقاتهم . فالتاجر مهما بلغ من صدق معاملته قلما يؤدي الحق في حينه حتى الصكوك لى آجال معينة يأتي أجلها والمدين لم يبدأ بالتفكير في دفعها . ولا يطعن ذلك المطل في ذمة الرجل في عرفهم لانه أصبح عادة راسخة — فما احرانا أن نقلع عنها

والصدق في الوعد وهو الوفاء فانه يدخل في صدق المعاملة ولكننا خصصناه بالكلام لانه كثير التفشي بين ظهرانينا وهو ينخر في هيأتنا الاجتماعية نخر السوس في الخشب . كم يعدك فلان بالمجيء اليك في يوم كذا وساعة كذا فتلبث في انتظاره فلا يأتي ثم هو لا يعتذر عن تخلفه كأنه لم يأت أمراً فرياً

ان اخلاف الوعد او التخلف عن المواعيد من اسهل الامور عندنا . ويدخل في صدق الوعد التدقيق في الوقت اي ان نأتي في الوقت المحدد للمجيء فلا يكون

ميعاد الاجتماع الساعة التاسعة فتأتي في العاشرة . على ان المجيء متأخراً خير من الغياب بمرة ولكن المرء يطالب بوعده كما يطالب بدين عليه ولذلك قالوا « الوعد دين على الحر دين » وهو من الحر ان الاخلاف وتعده نقيصة . قال المثنى بن خارجه « لان اموت عطشاً احب اليّ من اخلف وعداً » وقد يخلف الرجل منا لا رغبة في الكذب ولكنه يعد حياء وهو غير قادر على الوفاء وما اجدره ان يتمثل بقول يعقوب بن يزيد :

متى ما اقل يوماً لطالب حاجة نعم يا فتى افعل وذلك من شكلي
وان قلت لا بينتها من مكانها ولم أؤذه فيها بجرّ ولا مطل

او يقول الآخر :

اذا قلت في شيء نعم فاتمه فان نعم دين على الحر واجب
والا فقل لا واسترح وارح بها لكي لا يقول الناس انك كاذب

ولكن العمل بهذا القول يفتقر الى الشجاعة الادبية وهي حديثة العهد بيننا فما اجدرنا ان نربيها وننميها ونغرسها في عقول ابنائنا وقلوبهم فننهض بهم من ذل الكذب بل نحن اذا علمناهم الصدق بكل وجوهه فقد أنقذناهم من كل الرذائل . لان الصادق فكراً وقولاً وفعلاً لا يسرق لان السرقة عمل لا يطابق اعتقاد الناس في حفظ حقوق الآخرين . ولا يظلم لان الظلم يخالف صوت الضمير . ولا يقدم الصادق على القتل ولا غيره من الشرور وهو يعتقد مخالفته للناموس أو الحق . وأما الكاذب فيهون عليه كل ذلك

فاذا أردت ان تربي أولادك وتغرس فيهم الفضائل فلا تكثر الوصايا عليهم ولا تشغل أذهانهم بالقواعد الكثيرة والقوانين المختلفة بل يكفيك من ذلك كله أن تعلمهم الصدق فكراً وقولاً وفعلاً . علمهم الصدق فقط والصدق يعلمهم كل شيء . ربّ ابنك على حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل فيشبّ صادقاً اميناً مستقيماً محسناً شجاعاً فاضلاً عفيفاً وهو لا يشعر انه تعلم ذلك من أحد ولا انه تكلف شيئاً قهرياً

ولا تستسهل هذه الامثولة أو تظنها بسيطة هينة . ولا تقل في نفسك « انني طالما وعظت أولادي وبينت لهم هذه الفضيلة وحرضتهم على الصدق وزجرتهم عن

الـكذب بالتعنيف والقصاص مما يفعله كل والد مع اولاده . . . »

ليس بالزجر ولا بالقصاص يربو الاولاد على الصدق بل بالقدوة والمواظبة . لا توص ابنك ان لايكذب ثم تعده انت وعداً ولا تفي به . لا تقل لابنك غداً أعطيك الشيء الفلاني او آخذك الى المحل الفلاني وانت تنوي ان لا تفي بوعدك وانما تقول له ذلك لاسترضائه وتحسب نفسك تغلبت على طباعه وتخلصت من الحاحه . ولا تمازحه بالـكذب فتقول له أنى فلان وهو لا يأت . ولا تقل له مثلاً ليس عندنا تفاح فاذا ألح في الطلب تخرج له التفاحة من جيبك أو من خزانتك وتعطيه اياها . بل عوده على الصدق في كل ما تقوله له او تعامله به . عوده ان يرى الصدق في اقوالك وافعالك في كل امر طفيفاً كان او عظيماً

الجرأة الادبية[1]

أو الجرأة في الرأي

ونريد بها الجرأة في ابداء الرأي بلا خوف ولا حذر . ومهما قيل في فضل الشجاعة البدنية او الحربية فان الجرأة في الرأي او الشجاعة الادبية افضل كثيراً . ويرى علماء الاخلاق والطبائع البشرية ان الشجاعة الادبية أرقى في سلم الفضائل لانها نتيجة الاقتناع بالحق وتجعل صاحبها اذا عمل بها في الدفاع عن الحق لا يخاف مقاومة ولا يخشى اهانة وقالوا « ان الشجاعة في الحرب تذري بالاخطار فتجعل صاحبها صالحاً للجندية . واما الشجاعة الادبية فصاحبها لا يهاب سائر الآراء فيصلح ان يكون مشيراً للدولة . والرجل العظيم ينبغي أن يتصف بكليهما » وتقسم الجرأة الادبية الى اربعة اوجه سننظر في كل منها على حدة

١ ــ الجرأة في سبيل الدين

الجريئون في سبيل الدين يثبتون في اعتقادهم ولو ادى بهم ذلك الى القتل . وهم كثيرون منهم في النصرانية الوف ومئات الالوف . يكفي الشهداء الذين قتلوا في الاضطهادات الدينية في الاجيال الوسطى ولا يحيط الحصر بعددهم . وناهيك بدعوى

---

(١) عن الهلال سنة ٢٠ صفحة ٢١٨

التفتيش الظالم ـ قال فلورنتي ان عدد الذين قتلهم ديوان التفتيش في اسبانيا ٣٢٠٠٠ والذين نالوا العذاب وظلوا أحياء ٢٩١٠٠٠ نفس . غير الشهداء في اوائل النصرانية باضطهادات الامبراطورين الرومانيين قبل تنصرهم آخرها اضطهاد ديوقليطيان . وفي أخبار الرسل حوادث كثيرة تدل على جرأة ادبية في الآباء الاولين يندر مثلها فقد قتل بعضهم صلباً وبعضهم نشراً مما يطول شرحه ـ وهم ثابتون

أما المسلمون فقد استشهد منهم كثيرون في سبيل الجرأة الادبيــة في الدين . وينظر في ذلك من وجهين : الاول ما كان بين الاحزاب الاسلامية او اصحاب الآراء الدينية والثاني بين المسلمين وغيرهم

فحوادث الاستشهاد بسبب اضطهاد احدى الفرق الاسلامية للفرق الاخرى اكثرها بين السنّة والشيعة . وكان في اول امره بين بني أمية وأتقياء المسلمين من الصحابة او التابعين لان الاسلام كان في زمن الراشدين مؤسساً على التقوى والحق والعدل فلما قبض بنو امية على الدولة حولوه الى السياسة واعتمدوا على التغلب بالسيف والقهر واضطهدوا أهل التقوى وعذبوهم . فمن هؤلاء الاتقياء من فضل الموت على الرجوع عن اعتقاده فظل ثابتاً في قوله ومعتقده ولو خالف رأي الخليفة او الامير

واقدم من استشهد في هذا السبيل أبو ذر الغفاري الذي جاهر باستقباحه جشع بني أمية وكان معاوية لا يزال عاملاً للخليفة عثمان بن عفان في الشام ولم يبال أبو ذر بالقوة الغالبة . واحتال معاوية في استرضائه او تهديده فلم يبال فاتهمه بالفتنة وكتب الى عثمان « انك أفسدت الشام على نفسك بأبي ذر » فكتب اليــه « احمله اليَّ على قتب بغير وطاء تعنيفاً له » . فلما جاء المدينة حاكمه عثمان فلم يرهب سلطانه وجاهر بما يراه من طمع بني أمية وخروجهم عن الحق · فاخرجه عثمان من المدينة الى الربذة بالعنف وظل هناك وهو ثابت في عزمه حتى مات

ومنهم حجر بن عدي الكندي المتوفى سنة ٥١ هـ فقد كان يعتقد فضل علي بن أبي طالب وحقه في الخلافة وان الامويين اغتصبوها منه . فلما تغلب بنو أمية على علي حملوا المسلمين على لعنه . فمنهم من اطاع ومنهم من أبى واحتمل القتل من اجل ذلك . وأشهر الذين استشهدوا في هذا السبيل حجر بن عدي المذكور ـ وذلك ان المغيرة والي الكوفة من قبل معاوية كان يقف على المنبر فيستغفر لعثمان ويلعن عليًّا والناس يسمعون واكثرهم غير راضين ولم يجسر على مقاومته الا حجر بن عدي ·

فانه كان يعترض الوالي في كلامه ويقول « أنا اشهد ان من تذمون أحق بالفضل ومن تزكون اولى بالذم » وكان المغيرة يخوفه غضب الخليفة وهو لا يبالي فقاصه بقطع ارزاقه . فاعترضه مرة في المسجد وانحاز اليه بعض الناس وحدثت ثورة طال أمرها . واخيراً قبضت الحكومة على حجر وقد صارت الامارة الى زياد بن أبيه . وكان مع حجر جماعة قالوا مثل قوله واتحدوا معه فكلفوهم لعن علي فابوا وهددوهم بالموت فلم يبالوا . ومن اقوال احدهم واسمه صيفي وقد سأله زياد « ما تقول في علي ؟ » قال « أحسن قول » فامر بضربه حتى لصق بالارض ثم قال « اقلعوا عنه .. ما قولك في علي » فقال « والله لو شرحتني بالمواسي ما قلت فيه الا ما سمعت مني » فقال « تلعنه او لاضربن عنقك » قال « لا افعل » فاوثقوه وحبسوه . ثم ارسل زياد حجراً وبعض اصحابه الى معاوية في الشام وزوروا عليهم شهادات توجب قصاصهم . فلما جاؤا معاوية أمر بقتلهم فجاء الذين تولوا قتلهم فقالوا لهم « اذا كنتم تتبرأون من علي وتلعنونه لا نقتلكم والا قتلناكم » فقالوا « لسنا فاعلين ذلك » فحفرت القبور وجيء بالاكفان وقام حجر واصحابه يصلون عامة الليل وفي الصباح قتلوهم فرضوا بالقتل ولم يرجعوا عن رأيهم في علي

ويقال نحو ذلك في من قتلهم الحجاج بن يوسف بعد واقعة الجماجم فان الحجاج ألزم من بقي حيًّا من رجال ابن الاشعث أن يعترف انه كفر بعصيانه على الخليفة فيخلي عنه والا قتله . فكان يؤتى بالاسير الى ما بين يدي الحجاج فيقول له الحجاج « اشهد انك كفرت » فان قال « نعم » اطلقه والا قتله . فكان كثيرون ينكرون قوله فيقتلهم . ومن هؤلاء رجل من خثعم كان معتزليًّا فسأله الحجاج عن حاله فاخبره باعتزاله فقال له « أتشهد انك كافر » قال « بئس الرجل أنا اعبد الله ثمانين سنة ثم اشهد على نفسي بالكفر ؟ » قال « اذاً اقتلك » قال « وان قتلتني » فقتله . ومنهم سعيد بن جبير التابعي الشهير وغيره . وحوادث اضطهاد الشيعة كثيرة بتفضيلهم الموت على الخروج من طاعة العلويين او انكار فضل علي

ومن حوادث الاستشهاد في سبيل اثبات في الرأي الديني حادثة احمد بن حنبل واصحابه لانكارهم القول بخلق القرآن بعد ان أمرهم الخليفة المأمون أن يقولوا بخلقه وكان المأمون يعتقد ذلك . وشدد في نشر هذا الاعتقاد بين رعاياه فكتب الى نائبه في بغداد أن يمتحن القضاة والشهود والمحدثين بالقرآن فمن اقر انه مخلوق خلى سبيله

ومن أبى اعلمه به ليرى رأيه فيه . ففعل ذلك فاجابه الاكثرون وأبى جماعة فبعث المأمون الى نائبه المذكور أن يرسل اليه بهم موثقين بالحديد . فلما رأوا ذلك التهديد خافوا واعترفوا بما أراده الخليفة الا اربعة منهم احمد بن حنبل الامام المشهور . ثم اعادوا عليهم القول وهددوهم فاجاب اثنان وظل اثنان وهما ابن حنبل وابن نوح فشدا بالحديد وحملا الى المأمون في طوس ومات المأمون في تلك السنة . فلما تولى المعتصم احضر احمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن وأمره ان يقول انه مخلوق فأبى فامر به فجلد جلداً عنيفاً حتى غاب عقله وتقطع جلده وحبس مقيداً وظل على اعتقاده حتى مات

أما حوادث استشهاد المسلمين بسبب اضطهاد اهل الاديان الاخرى فلا يخلو التاريخ من شواهد صريحة فيه غير ما يؤخذ من القرآن العديدة التي يطول بنا شرحها . اما الحوادث التي ورد ذكرها صريحاً في هذا الشأن فاكثرها في اثناء حروب الروم والمسلمين في الشرق أو الافرنج والمسلمين في الاندلس . من ذلك أن تيودورة ملكة الروم كان قد وقع في حوزتها عدة آلاف من أسرى المسلمين فعرضت عليهم سنة ٢٤١ هـ أن يتنصروا فمن تنصر استبقته وجعلته أسوة من قتله من المتنصرة ومن أبى قتلته . فابى كثيرون وذهبوا ضحية ثباتهم في اعتقادهم . وهكذا يقال في مسلمي الاندلس لما غلب عليهم الافرنج وهموا باخراجهم فخيروهم بين النصرانية والموت فاختار الموت جماعة كبيرة منهم

واعتبر ذلك في اكثر الانبياء والمصلحين فان ثباتهم في دعواتهم والاستهلاك في نصرتها حتى الموت ساعد على نشرها . ومن لم يثبت منهم ضعفت عزائم انصاره وانفض الناس من حوله . كما اصاب آريوس لما انكر لاهوت المسيح في اوائل القرن الرابع وهو من كهنة كنيسة الاسكندرية . فالتف حوله جماعة كبيرة واشتد ساعده فاهتم الامبراطور قسطنطين بالامر فأرسل اليه وحاكمه وحكم بضلال بدعته والزمه أن ينكر تلك البدعة فغلب خوف الموت على قلبه وانكرها موقتاً فاطلق سراحه فعاد الى التعليم فاستقدموه وخوفوه فاقسم انه يرجع عن ذلك التعليم وعاجلته المنية بعد قليل

ويعد من قبيل الجرأة الادبية ظهور لوتيروس صاحب المذهب الانجيلي فانه حارب معتقدات راسخة وتقاليد متوارثة وقوانين مدونة وطغمات مسلحة ولم يبال بالموت والاضطهاد فوفق الى تأسيس شيعة من اعظم الشيع النصرانية الان .

وهكذا يقال في أكثر اصحاب المذاهب والمصلحين فانهم يلاقون عقبات كالاطواد راسخة منذ اجيال يصعب تمهيدها ولا يفلح في ذلك الا اهل الثبات والصبر وسعة الصدر

ولا يزال عهدنا قريباً بما قاساه المرحومان الشيخ محمد عبده في سبيل الاصلاح الديني الاسلامي وقاسم بك امين بشأن الاصلاح الاجتماعي فاظهرا جرأة أدبية كبرى في مقاومة تيار التقاليد والعادات وقد وضعا اساساً لاصلاح كبير سيكون له شأن عظيم في الاجيال القادمة وسيذكره لهما التاريخ

٣ – الجرأة والثبات في نصرة العلم

كثيراً ما يكتشف العلماء حقائق علمية تخالف ما تعوده الناس من العادات أو تمسكوا به من الاعتقادات . فالتصريح بتلك الحقائق يحتاج الى جرأة أدبية ولا سيما في القرون الماضية يوم كان الناس عبيد التقاليد والاعتبارات . وأقدم من ذهب ضحية هذه الجرأة على ما نعلم سقراط الفيلسوف واضع الفلسفة الادبية العلمية أو محول الفلسفة القديمة من الخيال الى العمل . فخالفت تعاليمه مصالح كثيرين من معاصريه وربما وقفت عثرة في سبيل أرزاقهم فنقموا عليه – كما ينقم عبيد التقليد على رجال الاصلاح في كل عصر . فتصدى له خطيب اسمه أنيتوس وأخذ في مقاومته وتحقير تعاليمه وسعى بالدسائس والوشايات عليه ورفع للحكومة تقريراً بين فيه ما ارتكبه سقراط من احتقار الآلهة وخرق حرمة القانون – وهي حجة المقلدين على المصلحين – وطلب قتله

فطلبت الحكومة من سقراط ان يدافع عن نفسه فأبى لعلمه انهم قاتلوه لا محالة فحكموا عليه بالاعدام فاستقبل الحكم بثبات وهدوء فسجنوه قبل الاعدام مدة تردد عليـه في أثنائها بعض محبيه ونصحوا له ان يفر وسهلوا له الفرار فقال « اخبروني عن مكان لا يموت فيه فافر اليه »

ولما آن الاعدام أتوه بالسم في كأس ودفعوه اليه فشربه دفعة واحدة وأصحابه حوله . فلما رآهم يبكون قال « ما بالكم تبكون ونحن انما أخرجنا النساء حتى لا نسمع بكاء كونوا رجالاً وتصرفوا تصرف الرجال »

ويقال نحو ذلك في غليليو صاحب مذهب دوران الارض في القرن السابع عشر وان لم يقتل في سبيله ولكنه سجن واضطهد . وقد حوكم في مجلس ديني رأى أن هـذا الرأي في العلم يخالف تعاليم الكنيسة . وحاولوا اقناعه بان يعترف بفساد رأيه ويرجع عنه فأبى

وألزموه مرة أن يقول بثبوت الارض وهددوه فقال ثم عطف ورفس الارض برجله وصاح « ومع ذلك فانها لتدور » وقضى بقية حياته معذباً بالمراقبة والدسائس ولكنه كان مطمئناً لثباته في اعتقاده العلمي

ويعدّ من هذا القبيل قيام دروين في القرن الماضي بمذهب النشؤ والارتقاء ولا يزال صدى المجادلات التي احتدمت بشأنه ترنّ في آذاننا

٤ ــ الجرأة الادبية في النصح والارشاد

ويتناول هذا الوجه من الشجاعة الادبية نشر النصح والارشاد في العامة ويدخل فيه بث المبادىء الصحيحة والآراء المصيبة ولو خالف ما الفه العوام أو تعودوه. وهو من مقتضيات المدنية الحديثة التي صار للعامة فيها صوت يسمع. ونشر النصح فيهم يقوم اكثره بالصحف والمجلات او بالقاء الخطب في الاندية ــ وهو المراد من هذه المقالة لانها في اشد الحاجة اليه. ان الاخلاص في ارشاد العامة افضل ضروب الشجاعة لانه يغني عن سواه. وقادة الافكار اذا اخلصوا النصح للامة وعرفوها حقوقها وواجباتها كفوها مؤونة الخلاف بينها وبين حكامها. وقد يتصل نصحهم بالحكام فيحسنون السياسة مع الرعايا فلا تبقى حاجة الى الفتك ولا التعرض للقتل

فهل قادة الافكار عندنا عاملون بهذه الفضيلة ؟ كم من الصحف العربية لا تقول الا ما تعتقده ؟ وكم هم المرشدون الذين يخلصون النصح فيقولون الحق ولو جرهم ذلك الى اغضاب قرائهم. نقول بكل اسف ان أولئك المخلصين قليلون بيننا. واكثر كتابنا يقيدون اقلامهم بقواعد مقررة لمصالح معينة. او هم يكتبون ليرضوا قراءهم واكثرهم من العامة يؤخذون بنعرة الدين او اثارة الخواطر. فيتوخى الكاتب ما يلذ لهؤلاء ويجتذب قلوبهم. ويفرح باقبال الناس على ما يكتبه أو التأمين على ما يقوله

وهناك طبقة أخرى من الكتاب يصرفون هممهم الى مسايرة اصحاب النفوذ خوفاً من غضبهم او تزلفاً اليهم في مأرب او غرض ويغضون عن سقطاتهم. ونحن في عصر دستوري يطلب فيه ولاة الامر من رجال الاقلام ان يساعدوهم في الآراء لمصلحة الامة بدليل ما صرح به رئيس الوزارة المصرية غير مرة

فعدولنا مع ذلك الى مسايرة اصحاب النفوذ او مجاراة تيار العامة انما هو من نقص في الجرأة الادبية. يجب على الكاتب ان يمد يده ليرفع القارىء اليه لا ان يداجيه ويحسن عمله وهو يعتقد انه في ضلال

وقد آن لمصر وهي جزء من اوربا في مدنيتها وارتقائها ان تتمثل بالامم المرتقية في حرية القول وصدق اللهجة . وقد يعتذر بعض ارباب الاقلام انهم اذا فعلوا ذلك أغضبوا القراء وكسدت بضاعتهم . وهو عذر ضعيف لان الصحافة غير التجارة أو الحياكة او الخياطة لتكون رهن ارادة « الزبائن » في شكل ما يطلبونه من الادوات او الاثواب ـ حتى النجار او الحائك اذا رأى زبونه على ضلال أرشده الى الصواب وبين له خطأه في طلبه بما له من الاختبار في صناعته . فكيف بالصحافة وهي مدرسة تعليم وارشاد واصحابها أساتذة الامة وقادة أفكارها ؟ فاذا كان القراء في ضلال فعلى الصحافي ارشادهم ولو أغضبهم فلا يلبثون أن يعرفوا الصواب فيشكروه وقد لا يغضبهم اذا احسن الاسلوب في تفهيمهم

وقس على ذلك حرية القول في سائر ما يرجى منه الارشاد والنصح او ما نحتاج اليه في معاملتنا اليومية . قد تعودنا المجاملة وبالغنا فيها حتى صارت الى المداجاة او الرياء واصبح احدنا يستحيل عليه أن يعرف حقيقة منزلته بين اقرانه . ومن كان سريع التصديق صغير النفس أخذه الغرور وقضى ايامه وهو يعتقد نفسه في منزلة هو بالحقيقة أحط منها كثيراً . ولو أتيح له ان يسمع أقوالهم في غيابه لرأى فرقاً بعيداً . ولا يخفى ما في ذلك من الضرر لان الانسان اذا عرف خطأه اجتهد في اصلاحه واذا فهم عجزه وقف عند حده . فالمداجاة تقف في سبيل تقدمه

ويقال نحو ذلك في ارشاد العامة الى النزوع عما استغرقوا فيه من العادات والاخلاق . والكاتب اذا فعل ذلك قد ينقمون عليه او يطعنون فيه ويتهمونه بالمروق من الدين او الوطنية ولكنه يثبت في ارشاده ويصبر على تلك المطاعن بنسبة ما في نفسه من العظمة وما في صدره من السعة ـ كذلك فعل كبار الرجال الذين حفظ التاريخ اسماءهم مثل سقراط وغليليو ومحمد عبده وقاسم امين وغيرهم

٥ ـ الاعتراف بالخطأ

وكما يطلب من الناصح المرشد ان يخلص في القول ولو خالف المألوف فعلى السامع أو القارىء ان يتدبر قوله باخلاص ويعوّد نفسه على الاعتراف بالخطأ . وهذا أيضاً يحتاج الى جرأة أدبية لا نزال مع الاسف بعيدين عنها . وقد بينا في غير هذا المكان « ان الاعتراف بالخطأ صواب والاقرار بالعجز قوة » ـ ان الاعتراف بالخطأ من اكبر أدلة التعقل وهو هيّن على العقلاء لانهم يعرفون ضعف الجنس البشري وان

الانسان ليس أسبق من الخطأ الى لسانه وقلمه وان العصمة لله وحده . ولا يعتقد العصمة باقواله وأعماله الا الجاهل المكابر ــ يدلك على ذلك اجماع الناس على ذم الاستبداد بالرأي وجنوحهم الى الشورى حتى الانبياء والملوك ــ ومما قالوه في مدح المشورة :

اقرن برأيك رأي غيرك واستشر   فالحق لا يخفى على اثنين
المرء مرآة تريه وجهه   ويرى قفاه بجمع مرآتين

فاذا سمعت نقداً على عمل عملته أو رأي رأيته فلا يشق عليك ذلك ولا تتسرع الى الغضب أو تعمد الى المكابرة قبل تدبر النقد واعمال الفكرة فيه . فاذا تحققت خطأك اعترف به واشكر الذي اصلحه ونبهك اليه اذ يندر أن تسمع الانتقاد على عملك ولا سيما في الشرق لشيوع المجاملة فيه فلا يبلغ الى الانسان غير مدح اعماله وقلما يعلم بمواضع النقص فيها . فمن يطلعك على خطئك فقد أحسن اليك فلا تقابل الاحسان بالاساءة وما في ذلك حطة من قدرك . واذا كان كاشف اغلاط غيره عظيماً فالمقر بغلطه اعظم

وقد يشق على بعضهم الاعتراف بالخطأ خوفاً من حكم الجمهور عليهم بالضعف لان العامة لا تدرك فضيلة ذلك الاعتراف . وقد يضر ذلك بمصالحهم اذا كانت مرتبطة برضى العامة . ولا يخلو خوفهم هذا من اصابة ولكنه ايضاً من آثار الضعف . فاذا بقينا على هذا الخوف دفنّا في هذا الضلال . والمرجو من أدباء الامة وخاصتها أن يرقوا اخلاق العامة ويرفعوها الى أفقهم لا أن يهبطوا معهم الى مهاوي ضعفهم . ولذلك رأيت كتاب الشعوب الراقية لا ينتقدون من الاعمال أو المؤلفات الا ما يقع من نفوسهم موقع الاحترام . فاذا ألف أحدهم كتاباً ولم ينتقده الكتّاب عدّ ذلك دليلاً على احتقارهم اياه وعدم اعتنائهم عليه . ولا ينبغي أن تحول طريقة الانتقاد دون الاستفادة منه . وانما العبرة في حواه الانتقاد من الاصلاح في سبيل المصلحة العامة

فالارشاد يحتاج الى جرأة أدبية وقبول الارشاد او الاعتراف بالخطأ يحتاج الى جرأة أدبية ــ فهو من ادعى الى العمل به لشدة افتقارنا اليه . لان الامة مهما يبلغ من رقيها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي لا تزال في خطر التقهقر حتى تعود صحافتها حرة تنتقد ويعود غيرها قرائها الرجوع الى الصواب والسلام

الصراحة في القول

عنوان الاخلاق الراقية (١)

في مصر الآن نهضة اجتماعية سياسية يقتدي اصحابها بالامم المتمدنة في طلب الدستور أو اشراف الامة على اعمال الحكومة . ويتذرعون الى ذلك باسباب مختلفة فبعضهم يرجو الوصول اليه بالمطالبة والاحتجاج . وآخرون يظنون الثروة واتساع المزارع تضمن لهم ذلك . والبعض الآخر لا يرى سبيلاً اليه بغير العلم . والرأي الاخير اقرب الى الصواب . ولكن الباحث في نواميس الاجتماع وقواعد الارتقاء لا يرى العلم كافياً لنيل هذه البغية ان لم يقرن بالتربية . أو هي مقدمة عليه . نعني تربية الاخلاق فان الامة مهما بلغ من ثروتها وعلمها فلا فائدة من صياحها في طلب الدستور أو غيره من الرقي السياسي ان لم ترتق اخلاقها بالتربية والتهذيب

وللاخلاق الراقية شروط كثيرة ترجع الى صدق المعاملة وعلو الهمة واستقلال الفكر ومعرفة الواجب وتنزيه النفس عن الدنايا وترويضها بالآداب الصحيحة . وأهمها في نظرنا صدق اللهجة والشجاعة الادبية . وتبدو بأجلى مظاهرها في « الصراحة في القول » وهي من قبيل الجرأة في الرأي التي بسطنا الكلام عنها في الهلال الرابع من هذه السنة . وانما افردنا هذا الفصل للصراحة خاصة لاننا نرانا في أشد الحاجة اليها لما اثقل كواهلنا بتوالي الاجيال من القيود السياسية التي أذلت نفوسنا وأضعفت اخلاقنا فتعودنا المداجاة والمسايرة وعبرنا عن ذلك « بالمجاملة » وعددناها من الآداب الشرقية . وما هي الا صورة مزوقة للمداجاة والمواربة . فاصبحنا اذا سئل أحدنا عن رأيه في أمر نظر في ما يكون من تأثير جوابه على عواطف السائل — قبل النظر عن الصواب أو الخطأ . فاذا كان رأيه مخالفاً لما يرضي السائل عدل عنه الى ما يرضيه وان خالف الواقع .

ولو وقفت المجاملة عند تلطيف الاسلوب مع صدق القول لكان خيراً ولكنها يغلب ان تتجاوز ذلك الى المداجاة والرياء . وليست المداجاة من الاخلاق الفطرية الطبيعية لان الانسان من فطرته صريح القول صادق اللهجة اذا سئل عن أمر فاول

(١) عن الهلال سنة ٢٠ صفحة ٤١٤

ما يتبادر الى ذهنه ان يقول ما يعتقده . واذا رأى عوجاً في عمل اندفع من نفسه ليظهر استنكافه منه ـ كذلك شأن أهل البادية الذين تعودوا اباء الضيم واستقلال الفكر ولم تشبهم مفاسد المدنية ومفاسدها . وفي تاريخ الاسلام شواهد كثيرة على ما كان من جراءة العرب في صدر دولتهم حتى كانوا ينتقدون الخلفاء والامراء بصراحة ولا يرى هؤلاء بأساً بانتقادهم . ثم ذهبت تلك الانفة بتوالي الظلم والخسف ولا سيما في الاجيال الاسلامية الوسطى وخصوصاً بمصر في زمن المماليك . فاقبل القرن التاسع عشر والعامة تساق كالانعام لا ارادة لها ولا حرية ولا رأي . فهي طبعاً بعيدة عن الصراحة في القول

فلما أخذنا باطراف المدنية الحديثة وذقنا طعم الحرية ورأينا ما صار اليه العالم المتمدن من التربية الراقية تحت الحكم الدستوري وكيف صار للامة صوت وانفتحت ابواب الرقي للعامة على نسبة اجتهادهم وسعيهم أخذنا نتحدى الامم المتمدنة وننسج على منوالها في أسباب المدنية والاجتماع كما تحدتها حكومتنا في القواعد الدستورية . فتناولنا كثيراً من أسباب تمدنها كالعلم والصحافة والطباعة والاقتصاد وغيرها . وزعمنا اننا بلغنا شأوها ـ وقد يكون ذلك صحيحاً في كثير من أسباب هذه المدنية الا « الصراحة في القول » فاننا لا نزال في حاجة اليها . وهي ترجع الى وجهين : الاول الصراحة في النصح أو الرأي والثاني في المعاملة

١ ـ الصراحة في النصح او الرأي

اذا سألت أوربياً أو اميركياً عاقلاً عن رأيه في شأن من الشؤون لا يستنكف من التصريح بما يخطر له ولو كان في قوله ما يسوءك أو يغضبك • وهي حرية في القول لا مشاحة في انها من الفضائل الناجمة عن التربية الصحيحة • وأما اذا وجهت ذلك السؤال الى شرقي فقد يدرك منه نحو ما ادركه ذاك لكنه يستنكف من التصريح لك برأيه فجأة فيجعل جوابه لطيفاً تخلله ما يخفف غضبك من الاعذار وهو ما يعبر عنه بالمجاملة . ولا بأس من المجاملة اذا وقفت عند هذا الحد واقتصرت على لطف المعاملة بل هي تفضل على الحرية الجافية

أما المجاملة على ما نراه شائعاً بيننا فقد خرجت عن اللطف الى المداجاة . فهي لذلك مجلبة للاضرار بل هي سوس ينخر في جسم العمران فتضل الناس وتسيء التعامل فلا يثق الانسان بنصيحة ولا يركن الى رأي . وقد تقود الى الغرور

وخصوصاً في حديثي العهد في مخالطة الناس فينخدعون بما يسمعونه من امتداح اعمالهم فيتمادون الى ما لا تحمد عقباه . وهم معذورون لانهم لا يسمعون نصحاً صحيحاً بل لا يسمعون الا اطناباً واطراء

من منا اذا رأى صديقه أو جاره في ضلال يجرأ على التصريح له بخطئه أو يرشده الى ما يعتقد فيه الصواب . ولو جاءه ذلك الصديق مستشيراً أو مستنصحاً فاول ما يتبادر الى ذهنه أن يوافقه على رأيه أو يطري عمله . ويعد ذلك من المجاملة أو « الادب » ولو كان اعتقاده يخالف ذلك . وهو لا يتعمد أذى صاحبه أو خداعه لكنه يخشى غضبه أو أن يظن فيه الجفاء فيداجيه باسم المجاملة واللطف

وقد يقع ذلك الخطأ من جماعة كبيرة كأن يساق الجمهور بجهله او عواطفه أو تعصبه الى ثورة او نقمة أو يتخذ في تصرفه خطة يخشى عليه من عواقبها . فاذا كان زعماؤه واصحاب الكلمة النافذة فيه مستقلي الفكر صريحي القول عارضوه ونصحوه وبينوا له خطأه على صفحات الجرائد أو على المنابر فيرجع عن غيه ويكتفي مؤونة الخطر . فهل يفعل كتابنا أو زعماؤنا ذلك دائماً أو غالباً ؟ نعم انهم يفعلونه ولكن نادراً ــ لان اكثر ارباب الاقلام عندنا يجعلون نصب أعينهم قبل كل شيء أن يكتسبوا رضى القراء فيكتبون لهم ما يرضيهم من الآراء السياسية أو الاجتماعية أو الدينية ــ فيضربون لهم على وتر الدين او الجنس أو غيرهما من الاوتار الحساسة ويكفيهم من وراء ذلك تصفيق الغوغاء لهم واقبالهم على ما يكتبون . واذا خالفهم كاتب في رأيهم حملوا عليه واتهموه بنقائص تهيج عليه غضب العامة . فلو كانوا يفعلون ذلك عن اعتقاد لكانوا ناصحين مخلصين ــ وهي الصراحة في القول التي ننشدها . ولكن فيهم من ينصر رأي العامة لمجرد ارضائهم . لان جرائدنا تعول في رزقها على مشتركيها واكثرهم من العامة فيندر من يثبت من ارباب الاقلام في معارضة عواطف الجمهور بل هم يسيرون مع تيار العواطف على اعتقاد منهم أنهم يخدمون الرأي العام . فصحافتنا وان كان كتابها من خيرة الادباء والعلماء فان بعضها خاضع لارادة العامة التي يسمونها الرأي العام تقليداً للامم المتمدنة

ان للرأي العام في أوربا شأناً عظيماً وهناك جرائد تتعلق بلسانه . ولكن هل في مصر او غيرها من الاقطار الشرقية رأي عام ؟ لا ادري . واذا صح وجود هذا الرأي عندنا فهو غير ما نعرفه عند الاوربيين . ويختلف عنه باختلاف حال عامتنا عن

أحوال عامتهم . ولا بد في كل حال من احترام الرأي العام ولكن لا ينبغي الاستسلام له عندنا لان عامتنا لا يزالون اطفالاً في السياسة ولا بد من نصحهم وارشادهم ريثما يشتد ساعدهم ويكون لصوتهم تأثير فعلي في الدولة اذا اجمعوا على أمر وتمسكوا به لم ترَ الدولة بداً من مجاراتهم . وقد رأينا بالاختبار انهم لا يزالون بعيدين عن ذلك

فواجبات الكاتب الحر أن يقول فكره بصراحة . ولا تنكر صعوبة ذلك على كتابنا لان صحافتنا تختلف عن صحافة اوربا كما تختلف عامتنا عن عامتهم . ومركز الصحافي الشرقي من اصعب المراكز ولذلك فلا يستطيع النبوغ في هذه الصناعة عندنا الا أصحاب المواهب القوية لان من أصعب الامور على كاتبنا ان يرضي قراءه وهم مختلفون في كل شيء من حيث التربية والمذهب والمشرب والغرض . فاذا أضفت الى ذلك ارضاء ضميره وجدت للصحافي العربي بعض العذر في تقصيره عن زميله الافرنجي . ولكن لا بدَّ من التضحية في سبيل الخدمة العامة ولا يكون ذلك الا بالصراحة في القول وصدق اللهجة . وقد ضحى الافرنج وقاسوا كثيراً من عذاب السجن والفقر في سبيل الدفاع عن الحق قبل ان وصلوا الى هذه الدرجة من الرقي . لكنهم خدموا أممهم ودولهم

واعتبر ضرر المجاملة أيضاً في ما يُعرض على الصحف أو رجال العلم من المؤلفات أو المقالات للانتقاد أو التقريظ فيتهيبون من نقدها مخافة ان يغضبوا أصحابها لانهم لم يتعوَّدوا سماع الطعن في أقوالهم . فاول ما يخطر للكتاب عند الاطلاع على كتاب أو مقالة أو قصيدة أن يمدحوها ويطروا عمل صاحبها وهو التقريظ . وقد يفعلون ذلك باسم « التنشيط » لئلا تضعف عزيمة المؤلف ـ وهو قصد حسن . لكن الانتقاد اذا احسن أسلوبه وروعيت شروطه كان اوقع في نفس العاقل واكثر فائدة للكتاب والقراء . لان المؤلف اذا كان حديث العهد في التأليف وسمع الاطراء والثناء فقط خدع وغلب عليه الغرور . ومن الضرر الفاحش ان لا يسمع الانسان غير الاطراء والمدح في أعماله وأقواله اذ لا يُعهد الكمال في شيء من أعمال البشر

وقس على ذلك اطراءهم مناقب أصدقائهم وأعمالهم . فانك لا تجد رجلاً ينتقد على صديقه ما يرتكبه من الخطأ في تصرفه أو معاملته وهو عالم بذلك لكنه لا يجرأ على التصريح به . أو هو يقول لا يعنيني لكنه اذا غاب صديقه تناوله بالنقد والتعيير

ولذلك قلنا في غير هذا المكان :

« اذا زعمت انك تعرف حقيقة منزلتك فقد طاش سهمك وأخطأ زعمك . لان العين لا ترى حدقتها والكف لا تستطيع القبض على معصمها . فكيف اذا باعد المتملقون بينك وبين الحقيقة ـ انك لا تزداد بذلك الا اغتراراً . وما التملق للبصيرة الا كالغشاوة للبصر لا يزداد صاحبها الا تعامياً . ولذلك فان اخلص محبيك من نبهك الى معائبك وأعدى اعدائك من اطراك وداجاك . وهذا هو المراد من قول الشاعر

عداي لهم فضلٌ عليَّ ومنةٌ فلا ابعد الرحمن عني الاعاديا

هم عرفوني زلتي فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليا

واعقل الناس من يمهد لاصدقائه السبيل الى انتقاده بالتواضع ولين العريكة . واحمقهم من يسدُّ باب الانتقاد بالعنفوان وادعاء الكمال

لو سمعت ما يقوله اصحابك في غيابك لتغيرت منزلتك في عين نفسك وتغيرت منازلهم في نظرك . وربما عاديت بعض اصدقائك وصاحبت بعض اعدائك اذ قد يكون رأي بعض هؤلاء فيك اجمل من رأي أولئك . فكيف لو كُشفت لك سرائر الناس حتى عرفت مكنونات قلوبهم . انك لتغضُّ عند ذلك من بصرك اكباراً لما تقرأه في ضمائرهم

على انك لو انصفت لعذرتهم جميعاً وقست ما تضمره من حقيقة رأيك فيهم على ما قد يضمرونه من حقيقة آرائهم فيك . فتقلع عن غرورك وتماديك . واسعد الناس حظاً من يعرف اقوال جلسائه فيه بعد ذهابه لانها اقرب الى الحقيقة من اقوالهم في حضوره فيستفيد من انتقادهم ما يصلح به شأنه . وغاية ما يبلغ اليه المرء من درجات الكمال ان يرى نفسه كما يراه الناس » اه

فما اجدرنا ان نعدل عن المداجاة أو المجاملة ونعمد الى الصراحة في القول وهي عنوان الاخلاق الراقية

٢ ـ الصراحة في المعاملة

ونعني بها أن يكون الانسان صريحاً في معاملة الناس أي أن لا يعد وعداً أو يقصد عملاً الا وهو مصمم على القيام به . وهذا ايضاً قليل بيننا فاننا نرى من آداب المجاملة أن لا نردَّ طالباً اذا رجانا شيئاً وان كنا لا ننوي القيام بما يطلبه منا فيكفينا أن نجيبه بالايجاب . فالافرنجي العاقل اذا سألته قضاء حاجة ولم يكن يستطيع قضاءها أو لا

يريد أن يقضيها قال لك حالاً اني لا استطيع ذلك أو لا أريده . وقد يكون جوابه عنيفاً جافياً ولكنه خيرٌ من جواب الشرقي « حاضر » أو « من عيني » أو « على رأسي » وهو يقول ذلك وينوي أن لا يفعل . وقد تخاطبه في هذا الشأن مثنى وثلاث ورباع وهو يختلق الاعذار ويجدد الوعود ولا يبالي بما تنفقه في سبيل الانتظار من الوقت وغيره — أليس ذلك من الرياء والخداع ولكننا ألفناه وعددناه من قبيل الملاطفة وما هو منها في شيء

اذا كلفت صديقك امراً فاما أن تعده وتفي أو ان تصرح له بعدم اقتدارك على القيام بطلبه فتترك له سبيلاً للبحث عن مصلحته . ويدخل في هذا الباب الاخلاف في المواعيد وخصوصاً مواعيد المقابلة فقد يعدك بعضهم بالمقابلة في الساعة الفلانية في المكان الفلاني وهو لا ينوي الوفاء أو يترك ذلك للتقادير وانما كان وعده حياءً منك . ومن الغريب أن لا يستحي من إخلافه . وما أثقل ذلك على الغريب الذي يرى منا هذه المعاملة لاول مرة — على أنه لا يلبث ان يألفها لكنه لن يستحسنها لما فيها من ضياع الوقت . ويسرنا أن نرى تحسيناً واضحاً في هذه العادة في الاعوام الاخيرة من فضل العلم والتربية ونتوقع التخلص منها كلها تدريجاً

وجملة القول اننا في أشد الحاجة الى تربية الاخلاق لان عليها تتوقف سعادة الامة اكثر مما على الثروة أو العلم او غيرهما من ظواهر المدنية . والانسان الواحد يتوقف نجاحه في اعماله الخصوصية على اخلاقه اكثر مما على علمه — فكيف الامة . ولذلك قال الشاعر :

وانما الامم الاخلاق ما بقيت فان هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وافضل الاخلاق الراقية الشجاعة الادبية وعنوانها الصراحة في القول

حرية القول

عنوان ارتقاء الامة (١)

الحرية ثلاث درجات : حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل . فحرية الفكر هي أن تطلق الحرية للفكر ليتصرف في المسائل التي تعرض عليه ويحكم فيها على

(١) الهلال سنة ١٧ صفحة ٥٨

مقتضى نواميس العقل . وقد يستغرب القارىء هذا التعريف لاعتقاده أن ذلك هو الواقع وأن كل انسان ينظر في الامور على هذه الكيفية فهو حر الفكر . والحقيقة ان احرار الفكر قليلون ولا سيما بين أهل التقاليد والتعصب . اذ لا يخلو الانسان من عوامل أثرت في فكره من الصغر أو رسخت فيه بالمزاولة حتى صارت جزءاً من وجدانه كأنها اظلال ذات الوان تغشى العقل فلا ينظر في القضايا المعروضة عليه الا من خلال تلك الاظلال فتتلون افكاره بها . وقد يغلب عليه اعتقاد يسبق الى ذهنه صدقه فيجعله قاعدة يقيس عليها ما يعرض له ولا تصدر عليه احكامه الا اذا وافقت ذلك الاعتقاد . ولا ينتبه الناس الى قيود الفكر الا اذا أمعنوا النظر في اسرارهم وخاطبوا وجدانهم بعد تجريده من العوامل الراسخة أو الاعتقادات الغالبة

وحرية الفكر أول خطوة في سبيل الرقي الاجتماعي بل هي أساس ذلك الرقي . ولكن حرية القول اعظم أهمية منها بالنظر الى سير ذلك الرقي ونموه لان الانسان اذا اخطأ في فكره انحصر ضرر ذلك الخطأ في نفسه فلا خوف على الامة منه . أما حرية القول فهي عنوان ارتقاء الامة وأصحابها هم خدمة المصلحة العامة . ويراد بحرية القول أن يقول الانسان ما تدله عليه حرية الفكر أي أن يصرح بما يعتقده بلا تدجيل أو مداجاة أو تمويه فلا يقول شيئاً وهو يعتقد خلافه . وتظهر حرية القول بمظاهر تختلف باختلاف الاحوال : في المعاملات الشخصية بين الناس يعبر عنها بالصدق وفي معرض الارشاد أو التنبيه يقال لها صدق اللهجة او الصراحة في القول . وفي سبيل الانتقاد او الاعتراض تسمى الشجاعة الادبية . ومهما اختلفت اسماؤها والقابها فانها ترجع الى تحديد بسيط هو « أن يقول الانسان ما يعتقده » . وارقى طبقاتها جميعاً « الاعتراف بالخطأ والاقرار بالعجز » أي أن يقول الانسان ما يعتقده ولو كان على نفسه . وعندنا ان الانسان لا يزال مخطئاً حتى يستسهل الاعتراف بالخطأ فيصير مصيباً . ولا يزال ضعيفاً حتى يعترف بالعجز فيصير قوياً ـ لان الاعتراف بالخطأ صواب والاقرار بالعجز قوة . . .

ومن نتائج المداجاة كثرة الالقاب ونعوت التفخيم . وقد شاع ذلك حتى بين العامة في مخاطباتهم . فبعد ان كان الخلفاء يخاطبون الناس في مراسلاتهم بقولهم « من عبد الله فلان (الخليفة) الى فلان » اصبح يقول « انا سلطان السلاطين وملك الملوك ... الخ » وبعد ان كان الناس يخاطبون الخليفة بقولهم « أمير المؤمنين فلان

لقبوه بظل الله على الارض ونور العالمين و و . . . الخ

واذا نظرت الى الامم الراقية اليوم رأيتها تقرب من الارتقاء بقدر تعويلها على حرية القول اي ان اكثرها حرية ارقاها منزلة واقواها شوكة . هـذه امة الانكليز وليس من ينكر منزلتها في السياسة والثروة والجاه فان اهلها اكثر الامم صراحة في اقوالهم وقد يبالغون في تلك الصراحة حتى تظهر منهم احياناً مظاهر الفظاظة والخشونة كان يذكر احدهم لصديقه أو رفيقه عيبه في وجهه مما يعده الشرقيون خشونة ويعدلون عنه الى المجاملة ولكنهم يتمادون في مدلولها ويتطرقون منهـا الى المداجاة والرياء حتى اصبح احدنا يستحيل عليه أن يعرف حقيقة منزلته بين اقرانه . ومن كان سريع التصديق صغير النفس أخذه الغرور وقضى ايامه وهو يعتقد نفسه في منزلة هو بالحقيقة أحط منها كثيراً ولو أتيح له أن يسمع اقوالهم في غيابه لرأى فرقاً بعيداً

ولا يخفى ما في ذلك من الضرر لان الانسان اذا عرف خطأه اجتهد في اصلاحه واذا فهم عجزه وقف عند حده . فالمداجاة تقف في سبيل تقدمه وتقضي على مستقبله — انه ضرر بليغ ولكنه لا يذكر بالقياس على الضرر الذي يعود على الجماعات اذا غرر بهم الخطباء او المعلمون . وأبلغ من كليهما الضرر الذي ينجم عن مداجاة الصحافة لان اصحابها قادة الافكار وهي عنوان آداب الامة . اذا قال الخطيب قولاً يسمعه مئة او مئات مرة واحـدة فقط . أما الصحيفة فيقرأها الالوف وقد يراجعونها مراراً ويتدقونها في الاعقاب . ان مهمة الصحافة في خدمة الامة اعظم كثيراً مما يتبادر الى اذهان الناس . فهل هي تقوم بما عليها في مصر ؟

ان الصحافة العربية بمصر ارتقت في اوائل هذا القرن ارتقاء بيناً فاتسعت مواضيعها وتعددت صفحاتها وصارت تبـذل الاموال في استخدام مهرة الـكتاب والمكاتبين وفي الحصول على الرسائل التلغرافية واستطلاع الاخبـار الهامة وهي تكتب المقالات الضافية في الاحوال الداخلية والخارجية وقد ارتفع صوتها وقوي نفوذها — فلو كانت مع ذلك كله حرة القول أي لو كانت تقول للنـاس ما تعتقده نهضت بالامة نهوضاً حسناً — لا نتهم الصحف كلها بهذا القصور على السواء وان كانت تشترك في المجاملة والمجاملة لا بأس منهـا احياناً ولـكنها لا تخرج عن كونها تخالف حرية القول ولا فاصل بينها وبين المداجاة . والصحافة منبر يعلوه الخطيب والمعلم والناصح والمتظلم يعظون ويخطبون وينقمون ويتظلمون يسمعهم المئات والالوف

يتوقف على نشر اقوالهم العمران أو الخراب . فارباب الصحافة مسؤولون عن ارشاد لامة الى ما فيه خيرها جهد طاقتهم . وقد نغتفر لهم خطأً يقعون فيه عن تسرع و جهل لان العصمة لله وحده ولكنهم مسؤولون عما يفهمونه ويقولون فيه غير ا يعتقدون مراعاة لمصلحة او اكراماً لخاطر

ان الامة التي بلغت مثلما بلغت اليه مصر في العهد الاخير من الرقي الاقتصادي السياسي حتى اصبحت كأنها جزء من أوربا وقام اهلها يتمثلون بامم تلك القارة ـ ن الامة التي هذا شأنها لا تزال في خطر التقهقر أو السقوط حتى تتعود صحافتها حرية القول فتصدق قراءها النصيحة وترشدهم الى الصواب وتكون قدوة لهم في صدق اللهجة والشجاعة الادبية . وقد يعتذر بعض ارباب الاقلام بانهم يكتبون في صحفهم ما يروج لدى قرائهم ولو كتبوا الحق لكسدت بضاعتهم وعادت عليهم بالخسارة . هو عذر ضعيف لان الصحافة غير التجارة أو الحياكة أو الخياطة لتكون رهن رادة « الزبائن » في شكل ما يطلبونه من الادوات او الاثواب ـ حتى النجار او لحائك اذا رأى زبونه على ضلال أرشده الى الصواب وبين له خطأه في طلبه بما له ن الاختبار في صناعته . فكيف بالصحافة وهي مدرسة تعليم وارشاد واصحابها ساتذة الامة وقادة افكارها ؟ فاذا كان القراء في ضلال فعلى الصحافي ارشادهم ولو غضبهم فلا يلبثون أن يعرفوا الصواب فيشكروه . وقد لا يغضبهم اذا احسن الاسلوب ي تفهيمهم

الحاسة الاجتماعية (١)

او سلامة الذوق وحسن الاختيار في المعاملة

نريد بقولنا « الحاسة الاجتماعية » نحو ما يريده الانكليز بقولهم Common sense و Good sense وهو عند الفرنساويين Bon sens وقد اخترنا لفظ « الحاسة » في هذا التعبير قياساً على الحواس الطبيعية التي يستعين بها الانسان على ادراك ما يحيط به ن المؤثرات الخارجية . وكانت الحواس في عرف القدماء خمساً : اللمس والنظر

(١) عن الهلال سنة ٢١ صفحة ٤٠٤

والسمع والذوق والشم . ثم اكتشفوا حاستين اخريين سموا احداهما « حاسة التوازن » وهي التي يتمكن بها الانسان من موازنة جسمه في وقوفه ومشيه . وسموا الاخرى « حاسة الثقل » التي يهيىء بها عضلاته لحمل الاثقال على اختلاف أوزانها . وفي الانسان أيضاً نوع من الشعور أو الحس يميز به بين حقائق الاشياء وأعراضها ويدرك حكم الآخرين على أعماله أو أقواله فيكيفهما على ما يلائم حاجاتهم . وكما سمى القدماء الآلة التي ندرك بها المرئيات « حاسة البصر » والتي ندرك بها الملموسات « حاسة اللمس » فقد سمينا الشعور الذي ندرك به علاقاتنا الاجتماعية بالآخرين « الحاسة الاجتماعية » ريثما نوفق الى تسمية أخرى أدلّ على المراد من هذه . وانما غرضنا الآن وصف هذه الحاسة وما يترتب عليها من الاهمية في نجاح الانسان بأعماله على اختلاف أغراضها ومناحيها

علة النجاح

ان نجاح الناس في أعمالهم يتوقف على مقدار ما فيهم من هذه الحاسة اكثر من مقدار ما أحرزوه من سعة العلم أو المهارة في الصناعة أو التجارة أو غيرها من وسائل المعاش . وهي أعظم أهمية في معترك الحياة من الذكاء وأقل شيوعاً منه . لا تزيد نسبتها في الناس بالنظر الى الذكاء على اثنين أو ثلاثة في المئة . أي ان الامهات يلدن اربعين ذكياً قبل أن يلدن واحداً من ذوي الحاسة الاجتماعية . ولذلك كثر الاذكياء وقل الناجحون منهم . لان النجاح لا يتأتى للذكي ان لم يعلم كيف يستخدم ذكاءه ولا فائدة من العلم ان لم يحسن الاسلوب في أدائه

ان ثمار الذكاء عديدة كالعلم والسياسة والصناعة وغيرها من أسباب العمران . لكنها لا تأتي بالفائدة المطلوبة حتى توضع في موضعها على كيفية تلائم الذين وضعت لهم . ولا يتأتى ذلك ان لم يدرك صاحب تلك المواهب ما يكون من تأثير عمله في أذهان الناس ومقدار استعدادهم له وهذا لا يتم الا بالحاسة الاجتماعية . ولهذه الحاسة دخل أيضاً في اختيار ما يعرض للانسان من أسباب المعاش فلا يتناول منها الا النافع الذي تمكن استثماره . قال أحد فلاسفة الانكليز « ان المعرفة بدون هذه الحاسة حماقة » ولو أحرز المرء كل المواهب بدون الحاسة الاجتماعية فكأنه لم يعط شيئاً . أو كانت تعطي البذور لمن لا يعرف الزراعة أو السلاح لمن لا يحسن استخدامه . ولذلك كانت الحاسة الاجتماعية سيدة المواهب اذ لا يكفينا ان نعمل الخير بل يجب أن

تعمله في الوقت المناسب وتضعه في المكان المناسب . فالذكي يعرف ان يعمل ولكن صاحب هذه الحاسة يعرف كيف يعمل ومتى يعمل

ومقام الانسان في المجتمع الانساني يتوقف على هذه الحاسة كما يتوقف على غيرها من الخلال الراقية . ويمكن للذكي ان يكتسب كل علم او تجارة أو صناعة بالاجتهاد والسعي لكنه عبثاً يسعى في اكتساب هذه الحاسة ان لم تولد معه . على انها تقوى وتنمو بالتربية والتعليم . وهي اذا وجدت وكان الذكاء قليلاً تكفلت باستثمار ذلك القليل لتكون غلته كثيرة . والنجاح في الاعمال يتوقف على الادارة اكثر مما على العلم والادارة لا تتوفر في غير اصحاب هذه الحاسة ولنأت بأمثلة من ذلك في أهم الاحوال الاجتماعية :

تأثير الحاسة الاجتماعية في السياسة

أهل السياسة أذكياء على العموم لان الانسان لا يبلغ الى المناصب السياسية الهامة ان لم يكن من أهل الذكاء والعلم . وانما يتفاوتون في النجاح بنسبة ما عندهم من الدهاء وهو من ثمار الحاسة الاجتماعية . فالسياسي المحنك لا يقول الكلمة الا وهو يعرف تأثيرها في السامع كأنه مطلع على أعماق قلبه . فيقول ما يرجو من تأثيره الوصول الى غرضه . فلو شهدتَ رجال السياسة في مؤتمر وأعطيتَ اكتشاف سرائر الناس لرأيت الدهاء مجسماً وعلمت كيف تحارب العقول وما قد نصب في تلك الحرب من المكامن والمراصد والمزالق وما تخلل ذلك من الهجوم والدفاع والمهادنة والمناوشة والمناورة . واكثرهم دهاء أسعدهم حظاً يصرُّ أحدهم على طلب العشرة وهو يقنع بالثمانية وقد يقتضي دهاؤه الرفض وهو لا ينوي غير القبول . وانما يفعل هذا وذاك تبعاً لما يدركه بشعوره الدقيق من وقع أقواله عند زملائه

تأثيرها في التجارة

التاجر من اكثر الناس حاجة الى معاملة الناس ولا سيما الباعة في الاسواق فهؤلاء لا يفلح منهم غير دقيق الشعور الذي يعرف تأثير كلامه في الشاري بين ترغيب وتحبيب ومساومة . ولا يكفي ان تكون بضاعته حسنة بنفسها بل يقتضي أن تكون مناسبة للوسط الذي يقيم فيه ولا يعرضها الا على قوم يحتاجون اليها . ومن مقتضى الحاسة الاجتماعية ان يختار المرء التجارة التي تتفق مع أمياله ومواهبه وان يحسن استجلاب السلع التي تلائم القوم الذين يعاملهم

وناهيك بحاجته الى هذه الحاسة في معاملة عملائه بحيث يعلم ما يرضيهم أو يوافقهم ويشعر بحقيقة علاقاته معهم . ويدرك نظرهم في بضاعته وحقيقة منزلته عندهم . فلا تأخذه الظواهر فيطمع أو يشمخ فيفسد ما بينه وبينهم فيتحولون الى سواه . ومن شأن هذه الحاسة ادراك حقائق الاشياء وعدم الاغترار بالظواهر . فالتاجر الحساس يعلم ان علاقته مع عملائه لا تثبت الا اذا عاملهم بالحق والامانة وراعى مصلحتهم بانواع السلع وأثمانها مراعاة حقيقية لا يقتصر منها على الكلام وتزويق الحديث وكثرة الاعلان . فان هذا وحده لا يجدي نفعاً ولا يكتسب شارياً . وانما المعول في ارضاء الشاري اقناعه بان بضاعته توافقه وتعود عليه بالنفع أو الكسب . ولا يقتنع ان لم يكن ذلك حقيقياً يؤيده الاختبار . فالتاجر ضعيف الحاسة الاجتماعية لا يشعر بهذه الحقائق فيتوهم انه يكتسب « الزبائن » بالترغيب والتزويق وكثرة الكلام . وأما الحساس فانه يجعل همه تحسين بضاعته حتى توافق عملاءه وهي تنوب عنه في الترغيب

واذا تدبرت احوال التجار وما بينهم من التفاوت في النجاح رأيت أسباب سقوطهم في الغالب اغترارهم بالظواهر وتعاميهم عن الحقائق . وكما يخدعون عملاءهم بالمظاهرة من الترغيب والتزويق يتخدعون هم أنفسهم بظواهر أحوالهم . يجدون النقود كثيرة بين أيديهم وهي ليست لهم بل لاصحاب المعامل التي يستوردون بضائعهم منها وسيأتي يوم يستحق عليهم دفعها فيغفلون عن ذلك . أو هم بالحقيقة لا يشعرون بثقل تلك الديون لضعف تلك الحاسة فيهم . فيتورطون في الانفاق مما بين أيديهم بلا حساب. فاذا آن الدفع وقصرت يدهم عنه استغربوا ذلك ووضعوا الحق على التوفيق أو الأزمة المالية . والواقع انهم لم يكونوا يشعرون بحقيقة مركزهم ولا يميزون بين ما هو حق لهم وما هو أمانة لاصحابه . وسقوط المحلات التجارية أو تفليسها ان لم يكن سببه التزوير أو السرقة يندر أن يقع من غير الخطأ في تقدير حقائق الاشياء ولا ينجو من ذلك غير صاحب الحاسة الاجتماعية

تأثيرها في العلم

وللحاسة الاجتماعية دخل كبير في العلم من حيث تطبيقه على حاجة الامة . فالمشتغل بالعلم لا يكفي أن يكون عالماً بل ينبغي له أن يعرف كيف يستخدم علمه أو كيف يجعله للناس أو يكون مفيداً لهم . لانه لو أحرز علوم الاولين والآخرين ولم [illegible] الذي هو فيه ويطبق ما يكتبه أو ينشره على حاجات أهله ذهب

علمه ضياعاً وأضاع وقته سدًى . وقد ينفق على ما ينشره من جيبه ولا يسترجع شيئاً منه . فيشكو كساد بضاعة الادب وينحي على القراء بالثلاعة ويتهم الامة بالجهل ونكران الجميل لانها لم تعرف قدره ولا أقبلت على نفثات يراعه ويهددها بالقعود عن خدمتها . ولو تبصر وأنصف لحكم على نفسه بانه لم يحسن الاختيار في ما كتبه أو ألفه . ولا راعى فيه الوسط من حيث حاجة الناس الى هذا الموضوع أو ذاك . أو انه لم يحسن سبكه حتى يلائم أذواقهم او مداركهم او غير ذلك مما يرجع الى نقص في الحاسة الاجتماعية اكثر مما الى الجهل

نحن في حاجة الى العلم لكننا احوج الى الشعور بحقيقة حالة الامة بحيث نطبق علمنا على حاجتها . وهذا التطبيق يحتاج الى الحاسة الاجتماعية في كل جزء منه بل في كل سطر مما يكتبه المؤلف في اي موضوع من المواضيع العمومية . فينبغي له وهو في مخدعه يجرُّ القلم على القرطاس لكتابة مقالة ان يتصور القارئ يتثاءب ويتململ من كل فقرة معقدة وينفر من كل عبارة غير صريحة ويتضجر مما يتخلل تلك الكتابة من المغامز التي يتوهم الكاتب انها تخفى على القارئ لغرض في نفس الكاتب يحاول اخفاءه بين العبارات المزخرفة بالتمويهات الدينية أو النعرات الجنسية . وليعلم قبل كل شيء ان القارئ كالشاري انما يهمه حقيقة ما تحويه تلك المقالة من المنافع الادبية او المادية بقطع النظر عن زخرف الكلام . وان كان في القراء من تهمه تلك الزخارف فلأنه لم يتعود الحقائق بعد . فاذا تعودها لا يلتفت الى سواها والواجب على الكاتب العاقل ان يعوده اياها

ظهر في نهضتنا هذه مئات من الكتاب والعلماء في مصر والشام وغيرهما لم ينتفع منهم في خدمة الامة — أو لم تعرف الامة منهم في خدمتها — الا عدداً قليلاً . وظهر مئات من الصحف والمجلات لم يبق منها الا عشرات قليلة لا يعدُّ ناجحاً منها نجاحاً حقيقياً الا عشرة واحدة . وقد ظهر في هذه النهضة مئات من الكتب في موضوعات شتى لم يرج منها الا القليل . واذا تدبرت هذا التفاوت في نجاح بعض هذه المشاريع وسقوط معظمها لا تجده ناجماً عن تفاوت طبقات الكتاب في العلم اكثر مما عن تفاوتهم في الشعور بحاجة الامة وتفاوت اقتدارهم على تطبيق ما يعرفونه على حاجتها فالصحف او الكتب الرائجة الآن لا تدل دائماً على تفوق اصحابها في العلم وسعة المعرفة وانما هي تدل دائماً على تفوقهم بالشعور وحسن الاختيار وهما من ثمار الحاسة

الاجتماعية ـ فضلاً عن السعي أو الاجتهاد حتى هذا ان لم يكن مقيداً بحسن الاختبار فانه لا يفيد اذ لا يكفي الرجل ان يكثر من السعي والركض وانما يطلب منه ان يكون سعيه في طريق الصواب والا الهمام النشيط عاد عليه بالضرر

تأثيرها في المعاشرة

ان تأثير هذه الحاسة في المعاشرة عظيم الاهمية . لان المعاشرة مفتاح المعاملة . قد تجمعك الصدفة بانسان لم تره من قبل فيقع من نفسك موقعاً جميلاً . وقد يترتب على ذلك الاجتماع معاملة تجارية أو مالية أو عائلية من زواج ونحوه . وقد تنفر منه وتشعر بدافع يدفعك عن عشرته ولا تزداد مع الزمان الا نفوراً وبعداً . واذا سئلت عن الفرق بين الاثنين لقلت ان الاول خفيف الروح والثاني ثقيلها . ولو حللت هذا التعبير تحليلاً دقيقاً لرأيته يرجع الى الحاسة الاجتماعية . وان هذه الحاسة حية نامية في خفيف الروح وضعيفة أو ميتة في سواه

يأتيك بعض الناس لشغل فلا يكلمك الا في ذلك الشغل وهو يلاحظ وقع كل كلمة من كلماته على اذنك . ويستدرك ما قد يقع من هفوة او نحوها . ويشعر من تلقاء نفسه بالوقت الذي ينبغي له ان ينصرف فيه من عندك . ولا يبالي بمجاملتك اياه وطلب بقائه في زيارتك . ويأتيك آخر لشغل أو زيارة وتكون مشغولاً بما يحول دون مقابلته لكن الآداب الشرقية لا تسمح لك برده فتستقبله فلا يبالي بشواغلك ولا يشفق على وقتك ولا يعرف لحديثه حداً . وقد يكون اكثر كلامه عن نفسه أو ذاتيته وما يأكلون أو يشربون مما أتاه أبوه او جده أو هو نفسه من جليل الاعمال . وقد يتطرق الى الطعن في الناس أو العتب على الزمان ويتشعب حديثه من موضوع الى آخر وقد يكون فيه ما لا يجوز ذكره بين يديك أو يدي بعض الحاضرين . لكنه لا يشعر بذلك لضعف الحاسة الاجتماعية فيه . ولا تطمع منه باصلاح ذلك الخطأ لانه متأصل في نفسه . ولا مانع ان يكون ذلك الثقيل عالماً في بعض المواضيع الهامة التي تحتاج الى إعمال الفكرة فينبغ فيها ويفوز على أقرانه ولكنه يعجز عن اصلاح ذلك النقص فيه . واذا تعمد الاصلاح ليقال انه خفيف الروح ظهر ذلك منه مظهر تكلف فتزداد روحه ثقلا

فسلامة الذوق وحسن الاختيار او الشعور الدقيق في المعاملة والتمييز بين حقائق الاشياء وأعراضها ووضع الاشياء في مواضعها ترجع كلها الى « الحاسة الاجتماعية »

التي نحن في صددها وعليها تتوقف حال المرء في المجتمع الانساني اكثر مما تتوقف على ذكائه وعلمه . فعلى الذين يتولون تربية الناشئة ان يوجهوا التفاتهم الى هذه الحاسة ويربوها فيهم بالتنبيه الى محاسنها كما ينبهونهم الى فوائد الفضائل واضرار الرذائل فان عليها يتوقف حالهم في دنياهم . وهي اذا ارتقت تكفل بارشادهم الى سواء السبيل وتغنيهم عن نصح الناصحين

طبقات العقول [1]

او التدبير سيد القوى العاقلة

اختلف العلماء في تحديد العقل وفي تعيين ما ينطوي عليه من القوى كالذاكرة والفهم وغيرها . وليس غرضنا البحث في ذلك بحثاً تحليلياً فسيولوجياً أو فلسفياً وانما أردنا النظر فيه من وجه اجتماعي اصلاحي نريد به خدمة الهيئة الاجتماعية من حيث تربية القوى النافعة والتمييز بين أعمال العقل وبيان تأثيرها في المجتمع الانساني . ولذلك فانا سنختار في تقسيم قوى العقل ما يقرب فهمه من المطالع لايضاح الغرض المقصود من هذه المقالة . ونستأذن علماء العقليات وأصحاب الفلسفة في خروجنا عن التقسيم المعروف لقوى العقل أو قوى النفس مراعاة لما نريد بسطه

اقسام القوى العاقلة

اذا نظرنا في أعمال العقل نظراً اجمالياً رأيناها تنقسم الى طبقتين . الطبقة الاولى تشتمل على أعمال « انفعالية » يأتيها العقل منفعلاً من تأثير خارجي كالشعور والتصور والادراك — فانها تحدث من تأثير الصور التي تتصل الى العقل من الخارج . والطبقة الثانية الاعمال « الفاعلية » وهي ما يجريه العقل من عند نفسه ويظهر انه البادىء به كالوجدان والارادة والحكم

وتقسم الطبقة الاولى من أعمال العقل الى قوتين رئيسيتين هما

أولا الوجدان : وهو شعور الانسان بوجوده وبما يحيط به

---

(١) عن هلال سنة ٢٢ صفحة ١٢٨

ثانياً الفهم : وهو ينطوي على عدة قوى لا يتم عمله الا بها . أو هي درجات ينتقل فيها العمل العقلي حتى يتم الفهم وهي :

(١) الشعور : هو اتصال المؤثرات الخارجية الى الدماغ بواسطة الحواس

(٢) التصور : حصول صور الاشياء أو الافكار في الذهن

(٣) الادراك : هو تفهم القضايا التي تعرض على العقل

(٤) الذاكرة أو الحافظة : هي اختزان تلك الصور الى حين الحاجة

فهذه الاعمال انفعالية تعرض على العقل فيقبلها ويحفظها . وقد يشترك فيها الحيوان فتكون في العجماوات كما في الانسان وتختلف بالدرجة لا بالنوع

يليها الاعمال الفاعلية التي يباشرها العقل من نفسه وهي أرقى من تلك وأقرب الى مناقب الانسان العاقل . وعليها تتوقف حال الانسان في المجتمع الانساني وهي :

أولاً التفكير : وهو مقارنة الافكار أو الصور التي أدركها العقل وترتيبها واستيضاحها

ثانياً الحكم : وهو التمييز بين صحيح تلك الافكار وفاسدها واستخراج النتيجة اللازمة منها

ثالثاً الارادة : وهي الاقرار على ما يجب اجراؤه بعد صدور الحكم . أو توجيه العقل الى ما يلزم البحث فيه ونحو ذلك

رابعاً التدبير : وهو في نظرنا أرقى القوى العاقلة لان عليه يتوقف الانتفاع من سائر القوى العقلية واختيار الخطة اللازم اتباعها في أعمال الحياة . والتدبير يتوقف على قوتين هامتين :

١ التوليد أو الاستنباط : وبه يستنبط العقل الاراء والاساليب

٢ الحيلة العقلية : وهي الدهاء وبه يحسن العقل تدبير الطرق وترتيبها حتى تأتي بالغرض المطلوب

تلك هي أهم القوى العاقلة وقد رأيت من تدبرها والمقابلة بين ثمار أعمالها أنها تتفاوت في أهميتها تفاوتاً عظيماً بعضها بسيط يشترك فيه الانسان والحيوان والبعض الآخر خاص بالانسان . وهو درجات متفاوتة أرقاها التدبير أو الحيلة العقلية فانها سيدة القوى العاقلة والمسيطرة عليها وهي التي تستثمرها

فالانسان يكتسب بعض العلوم بالفهم وحده ويحتاج في اكتساب العلوم الاخرى

الى التفكير والاستنتاج أو الحكم . لكن علمه هذا لا يكون نافعاً ان لم يكن هو مدبراً يحسن استخدام العلم واستثماره . واعتبر ذلك في الصنائع والفنون والآداب فان الانسان يكتسبها بالفهم أو الذكاء فاذا لم يحسن تدبيرها لم ينفعه علمه . وبعكس ذلك صاحب التدبير فانه وان قلّ ذكاؤه يستطيع استثمار ذكاء الآخرين فيستخدم أصحاب تلك المواهب بتدبيره وحيلته العملية

ومن الخطأ الشائع اعجاب الناس باصحاب الفهم أو الذكاء أو القرائح وان لم يكن عندهم تدبير يستثمرون به قرائحهم . كالشعراء والمصورين والكتاب والصناع وأرباب الفنون والمهن العلمية مما يكفي في اكتساب الادراك والفهم أو القريحة الطبيعية وقلما يعجبون باصحاب التدبير أو الحيلة العقلية

ان صفحات التاريخ مملوءة باسماء الشعراء والادباء والمصورين والمغنين والممثلين ونحوهم وقد أشبعهم الناس اطراء واعجاباً ويندر ان يعجبوا باصحاب التدبير العقلي أو الدهاء وفيهم رجال السياسة والادارة والتجارة . ولا يذكر التاريخ من هؤلاء الا من يأتي بالمعجزات أو يكون لعمله علاقة بمصالح الامة . وأما الشاعر فقصيدة واحدة تشهره والمصور صورة متقنة تحفظ ذكره عدة أجيال . وهي لا تثمر ولا تنفع . وأما رجال التدبير فهم المسيطرون على أعمال العالم — حتى ثمار قرائح أولئك لا تشيع وتنتشر وينتفع بها الناس الا بسعي هؤلاء

يغلب في الناس عادة ان لا يخلو أحدهم من القوى العاقلة كلها لكنها تتفاوت فيهم حسب الاشخاص . ففي كل انسان فهم وارادة وتدبير وذاكرة لكن قد يكون الفهم في بعضهم أقوى من التدبير أو التدبير أقوى من الذاكرة أو غير ذلك . على ان التدبير أهمها كلها لانه يستثمر سائرها — كالقائد للجند اذا أحسن التدبير ربما استطاع ان يرتب جنده ترتيباً يجعل قوة الرجل منهم أضعاف قوة الجندي من عدوه

التدبير

فالتدبير سيد القوى العاقلة وعليه يتوقف حال الفرد وحال العائلة وحال الامة اكثر كثيراً مما على الذكاء أو القريحة أو الفهم . وهو درجات يدخل في كبار الاعمال كما يدخل في صغارها واليك البيان :

١ — التدبير الشخصي

ابسط ضروب التدبير ان يحسن الانسان تدبير نفسه من حيث طعامه وشرابه بان يتخذ أسهل الوسائل المؤدية الى ذلك مع اعتبار الاقتصاد والنفع وتطبيق هذا على أحواله المالية والصحية

وهذا الضرب من التدبير على بساطته عظيم الاهمية بالنظر الى الفرد . لان عليه تتوقف صحته وصفاء ذهنه وعليهما يتوقف مستقبله . ومن الناس من لا يحسن حتى هذا التدبير البسيط فتجده عرضة للامراض العضالة لاهمال في الطعام أو اللباس. ولو احسن تدبيره لكفاه ذلك مؤونة المرض

٢ — التدبير العائلي

ونريد به عناية الانسان باهله وتدبير شؤونهم والتفكير في مستقبل كل منهم مع الانتباه الى ما تحتاج اليه امرأته وأولاده من أسباب المعاش . وهو أهم من التدبير الشخصي لان عليه تتوقف سعادة العائلة ومستقبل الابناء . ولا يخفى ما في ذلك من الاهمية بالنظر الى المجتمع الانساني لانه مؤلف من العائلات . غير ما يحدثه سوء التدبير من أسباب الشقاء لكل فرد من أفراد تلك العائلة مما يستطاع تلافيه بسهولة لو أحسن رب العائلة التدبير وانتبه لمستقبل عائلته من أول أمرها . ونعرف أناساً أحجموا عن الزواج مبالغة في الحذر من سوء عاقبة الزواج عليهم وعلى ابنائهم لئلا تعجز احوالهم المالية عن القيام باود البنين وتربيتهم التربية اللازمة

ونعرف أناساً لا يشعرون بمسؤولية العائلة على الاطلاق . قد يكون أحدهم لا يملك شروى نقير وليس في معجنه رغيف ولا في جيبه قرش وأولاده ليس لهم ما يقتاتون به في الغد ولا ما يلبسونه بعد شهر وهو هادئ البال ينتظر الفرج من الغيب . ولذلك تراه قد حفظ كل ما قيل من الامثال أو الحكم أو الآيات في الاتكال على الله والتسليم للعناية وإن القناعة كنز لا يفنى . ولولا فقره وعجزه لم يعمد الى ذلك . على انه سعيد باخلاقه وتسليمه . لكن سعادته هذه لا تتعدى شخصه بل هي سبب شقاء عائلته لانه لسوء تدبيره واهماله يتركها للطبيعة تدبرها . وأنما يهمه أن لا يسمع صراخ أطفاله وهم يلعبون او يتذمرون . واذا احس أحدهم بمسؤولية الزواج القى تبعة ذلك على امرأته لانها هي المسؤولة عن العائلة اكثر منه !

وليس الفقر وحده علة شقاء العائلة . ونعرف عائلات شقية وهي في سعة من

العيش وأما شقاؤها من سوء تدبير اربابها لاشتغال الام بالزيارات والاب باللعب . وقد لا يغفلون عن ارسال الابناء الى المدارس لكنهم لا يفعلون ذلك عن تفكير أو تدبير وانما يفعلونه على سبيل العادة والقدوة أو تخلصاً من ضجة الاولاد في البيت وما سبب ذلك إلا عدم ادراك مسؤولية الزواج وضعف الانتباه لمستقبل الابناء . وتجد من الجهة الثانية أناساً يبالغون في العناية حتى ينقلب التدبير الى ضده فيدققون في ما يأكله ابناؤهم أو يشربونه بدعوى اعتمادهم على القوانين الصحية لكن بلامعرفة فيعود ذلك بالضرر على صحتهم . ويبالغون من الجهة الاخرى في تربية اخلاق أبنائهم فيمنعونهم من الخروج الى الاسواق ومخالطة الناس لئلا يسمعوا كلمة بذيئة او قصة غير ادبية فينشأون على الجبانة وضعف الخلق . وهذا كله من سوء التدبير

٣ ـ تدبير الاعمال

ان ما قدمناه من ضروب التدبير ـ نعني تدبير الشخص وتدبير العائلة ـ هما أبسط درجات هذه القوة . تليهما في الصعوبة تدبير اسباب المعاش وهو درجات بعضها فوق بعض تبعاً للمهنة او التجارة التي يتعاطاها الانسان وما تحتاج اليه من اعمال الفكرة . فالصانع كالنجار والحداد ونحوهما لا يفتقر في تدبير اموره الى أعمال الفكرة . ونجاحه يتوقف على اتقان صناعته وارضاء « زبائنه » وهم قليلون قد يرضيهم منه ان يتقن ما يصنعه لهم . واذا تساوت المعرفة الصناعية فالسابق منهم صاحب التدبير في معاملة الذين يترددون اليه

واحوج منه الى التدبير التاجر الذي لا بد له من منافسة جيرانه . فلا تروج سلعه الا بالتحسين والتزويق والترغيب واسترضاء الناس على اختلاف طبقاتهم ونزعاتهم والاحاطة بما يرضي كل واحد منهم حسب طباعه ، فضلاً عن الاستقامة والاجتهاد وحسن الاختيار في انتقاء السلع . ومن التدبير ان يقتني السلع الرائجة . واذا تساوت السلع فالناجح صاحب التدبير . اذ قد يباشر جماعة تجارة واحدة في سوق واحدة فلا يمضي بضع سنين حتى يظهر تفاوتهم في النجاح ويزداد الفرق بينهم اتساعاً كل سنة . ثم ينفرد اكثرهم تدبيراً ويصير من كبار التجار وربما صار جيرانه من بعض اعوانه في تجارته .. وقد يكون بينهم من يفوقه ذكاء وفهماً ولو تسابقا في المدرسة لكان هو الفائز في اللغة والتاريخ والشعر لكنه لضعف قوة التدبير فيه

لم يستطع مجاراته في مهنة تحتاج الى مصانعة الناس والسهر على ما يحتاجون اليه من السلع ومعرفة ما يرضيهم من ضروب المعاملة

ولا يخلو تاجر ولا صانع من قوة التدبير لكنهم يتفاوتون في درجات نجاحهم بتفاوت تلك القوة فيهم . فيقضي بعضهم حياته في حانوت يديره بنفسه ولا تتسع تجارته حتى يحتاج معها الى معين لان عقله لا يتسع لا كثر من ذلك وترى جاره قد اتسعت تجارته وتعدد العمال في حانوته ووسع محله واكثر من الاصناف وشغله يتسع وارباحه تتضاعف . لا يقعده عن ذلك عجز ولا يضيق تدبيره عن الاحاطة بذلك العمل الواسع . واذا رأى جاره الضعيف اهتمامه في توسيع خطواته وتطلبه المزيد من الربح اقنع نفسه ان ذلك تهورٌ وانه لا يلبث ان يندم على ذلك التوسع . فاذا تحقق نجاحه في مشروعه انحى عليه باللائمة لتكبده المشاق في الاستكثار من المال والدنيا زائلة لا تساوي هذا العناء . واذا سمعه يشكو تعباً او مرضاً افرغ عليه جام تعنيفه لانه حمل نفسه فوق طاقتها

واعتبر ذلك في الصنائع ايضاً فان النجار الصغير قد يصير بتدبيره صاحب معمل للنجارة كبير يضم عشرات من العمال وربما حوَّل معمله الى تجارة في المصنوعات الخشبية ويكون شأنه مع زملائه واقرانه مثل شأن ذلك التاجر الكبير .

وهكذا المهن العلمية كالطب والحقوق والتعليم والصحافة والكتابة ونحوها فان نجاح أصحابها يتوقف اكثره على تدبيرهم . كم من طبيب كان انجح تلاميذ صفه ونال الامتياز عليهم في اكثر العلوم قد سبقه في عالم العمل رفيقٌ له كان وسطاً في المعرفة — فالسابق اضعف من المسبوق في الفهم والذكاء لكنه أقوى منه في التدبير . والطبيب يحتاج الى تدبير كثير في مصانعة المرضى وأهلهم واغتنام الفرص لاقناع الناس بمهارته حتى يعرفوا له فضله على سواه . وقس على ذلك تفاوت المحامين في تلك القوة وتفاوت نجاحهم بنسبة ذلك . والمحاماة تفتقر الى فهم كثير ودرس طويل وصبر جميل لكنها تحتاج ايضاً الى تدبير . ولذلك رأيت من المحامين من يقضي حياته في دائرة ضيقة من العمل وزميله الذي تخرج واياه في مدرسة واحدة وسنة واحدة قد اصبح مكتبه اشبه بدائرة من دوائر الحكومة لكثرة العمال فيه من المرافعين والكتاب والمترجمين وغيرهم

صناعة القلم

وصناعة القلم على الاجمال اكثر المهن العلمية حاجة الى التدبير لانها تتعلق بشعور الناس وتمس حاجاتهم الادبية واعتقاداتهم الاجتماعية . ولاسيما في الشرق لاختلاف المشارب والمذاهب والاذواق والاخلاق فيه عمَّا في سواه . فالكاتب الفرنساوي او الانكليزي يكتب لقوم اكثرهم من مذهبه الديني او الاجتماعي . يشتركون معه في العادات والاخلاق والتربية فيعلم وهو يجر القلم على القرطاس ماذا يرضي قراءه او يفيدهم فيعدّل مقالته ويحوّرها حتى تطابق حاجاتهم وتوافق اذواقهم . وأما الكاتب الشرقي فقبل ان يتناول القلم يرى العقبات تتوالى امامه . ومهما يكن من تفاهة موضوعه او اهميته لا يدري ما يكون تأثير اقواله على قرائه . ولا سيما في المواضيع الاجتماعية او الاخلاقية . فاذا ارضى المسلم لا يرضي المسيحي واذا ارضاهما لا يرضي الاسرائيلي . واذا ارضى المصري قد لا يرضي المغربي أو السوري او العراقي او الهندي . واذا ارضى الناشئة المتعلمة اغضب المحافظين على القديم . وقد يرضي الفقراء ولا يرضي الاغنياء . واذا ارضى هؤلاء جميعاً فانه لا يرضي نفسه لانه لا يطلق لقلمه الحرية اللازمة لكاتب في الاجتماعيات ونحوها . ويضطر لتقرير الحقيقة الاجتماعية أو التهذيبية التي يقولها الكاتب الافرنجي بصراحة أن يحتاط لما قد يقيمه المتعنتون من الاعتراضات التي لا طائل تحتها لكنها تؤثر في نفوس القراء لأنها تضرب على أوتارهم الحساسة . فاذا خامرهم شك في ما يقرأونه ذهبت الفائدة المرادة منه . وأول واجب على الكاتب اذا أراد ان يكون لكلامه تأثير في قرائه أن يغرس في قلوبهم حسن الظن به . فاذا ساء ظنهم فيه ذهب تعبه سدًى

فالكاتب العربي سواء كان صحافياً أو مؤلفاً في المواضيع العمومية لا يقدر ان يفيد قراءه ويستفيد هو من مهنته الا اذا أحسن التدبير . ولا يكفيه ان يكون عالماً في موضوعه بل لا بد من التدبير في ما يكتبه تجنباً لسوء الظن فيه . فيجب ان يكون على بينة من حاجات قرائه وأخلاقهم وان يحسن سبك أفكاره بما يرضيهم ويفيدهم . وهذا لا يكون الا بالتدبير واذا تساوت المعرفة والوسائل كان النجاح على قدر التدبير . ويدخل في ذلك اختيار الموضوع وانتقاء الاسلوب والكيفية والكمية . ولهذا السبب رأيت طائفة من خيرة العلماء تقاعدوا عن الكتابة لكساد ما يكتبونه بالنظر الى ما يتوقعونه من الرواج فينسبون ذلك الكساد الى جهل الامة . وقد تكون

الامة جاهلة فهي لذلك في حاجة الى كتّاب يعلمونها ويحسنون التدبير في ما يكتبونه لها

والتدبير اللازم للكتابة يختلف مقداره باختلاف المواضيع . فالمترجم من لغة الى لغة اقل الكتاب حاجة الى التدبير . يليه المؤلف الذي يطالع عدة كتب يستخرج منها كتاباً وتزيد حاجته الى التدبير كلما تعددت الكتب وتفرعت المواضيع ـ هـذا من حيث الكتابة بحد ذاتها . ثم هو يحتاج الى التدبير في كيفية ايصال أفكاره الى القراء وارضائهم مع اختلاف أغراضهم واخلاقهم

٤ ـ التدبير الاداري

نعني ادارة الحكومة وتنظيم شؤونها المالية والداخلية والحربية وهو أرقى ضروب التدبير التي تقدم ذكرها وأهمها . لان على التدبير العائلي والتجاري والصناعي يتوقف نجاح عائلة أو جماعة . وأما هـذا فعليه يتوقف نجاح الامة وحفظ النظام فيها والمحافظة على حقوق افرادها . وهو طبقات تتدرج في الاهمية من المناصب الصغيرة في الكفور والنواحي على ايدي المشايخ والعمد الى المأمورين والمديرين فالولاة فالوزراء تبعاً لنظام تلك الحكومة

يستخف بعض الناس بخدمة الحكومة من حيث قلة حاجتها الى اعمال الفكرة والتدبير . وربما توهم بعض الادباء ان كتابة مقالة او نظم قصيدة تحتاج الى مواهب عقلية تفوق ما تحتاج اليـه الولاية او المديرية . وهم يعبرون عن ذلك بقولهم « وما الذي يفعله الوالي غـير اصدار الاوامر وختم الاوراق ؟ » ويخيل اليه انه لو جعلوه والياً مكانه لكان اكثر اهلية منه لهذا العمل

وهذا وهمٌ . لان ادارة بلد صغير تحتاج الى تدبير وجهد يكفيان لنظم ديوان أو تأليف كتاب ـ لا نعني طبعاً ان العمدة يقدر ان ينظم القصائد الرنانة اذا لم يكن ذا قريحة شعرية . ولكننا نعني ان حل مشكلة قضائية او ادارية صغيرة تحتاج الى قوة عقلية تربو على القوة التي يستنفدها الشاعر في نظم قصيدته والصحافي في كتابة مقالته . فكيف بأصحاب المناصب الكبرى في الدوائر الواسعة ؟

انظر كم يحتاج اليه المدير او الوالي من اعمال الفكرة لتطبيق اوامره على طلب الوزارة وحاجة الاهلين . وهو في خلال ذلك لا يثق ان اوامره ينفذها وكلاؤه وكتابه كما يريد لا يحرف بهم عنها غرض أو طمع . واعتبر ذلك في اعمال الوزراء او من يقوم مقامهم على رؤوس الحكومات فانها اصعب كثيراً مما يتوهمه غير العارف . ولهذا

السبب كثرت الانتقادات على الوزراء العثمانيين الذين تولوا شؤون الحكومة بعد الدستور وسلقهم الكتاب بألسنة حداد وهم يزعمون في خلال انتقاداتهم ان في الامة عشرات يستطيعون تدبير شؤون الحكومة بأحسن مما دبره اولئك . وهذا وهمٌ . ويختلف التدبير اللازم للادارة باختلاف المسؤولية الملقاة على عاتق صاحب ذلك المنصب

٥ ــ التدبير الحربي

نريد به تدبير القواد في ساحة الحرب وهو ارقى ما تقدم من ضروب التدبير الاداري لانه يتصل باعز ما تملكه الامة ــ نعني الحياة والشرف . فالقائد الماهر ينبغي أن يكون كثير التدبير واسع النظر لانه وهو في خيمته او مكتبه يرسم خطته للهجوم أو الدفاع ويعين موقف كل كتيبة وكيفية هجومها أو دفاعها ويفرض ما قد يأتيه العدو من اسباب الدفاع أو الهجوم أو ما يدبره من الحيل الحربية أو الخديعة ونحوها ــ عليه أن يتصور ذلك كله وينظم جنده على مقتضاه . وقد يطرأ عليه في اثناء المعركة ما لم يكن في حسبانه . فهو عند ذلك لا بد له أن يحكم حالاً في ماذا ينبغي أن يفعل لدفع تدبير عدوه . ولا يساعده الوقت على طول التفكير أو التجربة . فن كلمة واحدة قد تتوقف عليها حياة الامة أو موتها . والتباطؤ دقيقة واحدة قد يعود بالفشل ويقضي على استقلال تلك الامة أو على آمالها

فانظر ما يقتضيه ذلك من التعقل والتدبير والحزم ورباطة الجأش . وهو ما اشتهر به كبار القواد في التاريخ

٦ ــ التدبير السياسي

هو أهم ضروب التدبير الاداري على الاطلاق . لان التدبير السياسي يشمل النظر في علائق الدول بعضها ببعض . وعلى تدبير رجال السياسة يتوقف السلم والحرب فكم يقتضي أن تكون دائرة تفكيرهم واسعة حتى تحيط بمصالح دولتهم وعلاقاتها بمصالح الدول الاخرى . ورسم الخطة التي يمشون عليها للمحافظة على مصالحهم . ولا سيما في اثناء عقد المؤتمرات اذ تتبارز المواهب وتتناضل العقول ويغلب صاحب التدبير الاقوى والحيلة العقلية الكبرى . كم من دولة فشلت في تدبيرها الحربي في اثناء المعارك لضعف تدبير القواد . ثم فازت بتدبيرها السياسي في اثناء عقد الصلح لقوة تدبير السفراء . هكذا اصاب روسيا بعد حرب اليابان والعثمانيين بعد حرب البلقان

الخلاصة:

فقوة التدبير تتدرج في الرقي من تدبير الشخص أمور نفسه الى تدبير العائلة فالتدبير الصناعي والتجاري على اختلاف طبقاتهما . ثم التدبير الاداري فالحربي واخيراً التدبير السياسي وهو ارقاها أو أوسعها . ثم ان لكل ضرب من ضروب التدبير هذه حداً قد يقف صاحبه عنده وقد يتعداه . فصاحب التدبير الشخصي قد يتعداه الى التدبير العائلي فالتجاري فما بعده . ولكن الغالب أن يقف كل تدبير عند حد هو آخر ما يستطيع صاحبه الوصول اليه . وعبثاً يحاول تجاوزه

ونرى من الجهة الاخرى ان اصحاب الطبقات العليا من التدبير يعجزون احياناً عن القيام بما هو احط منها . كعجز بعض رجال السياسة والحرب الذين يدبرون الممالك عن تدبير شخصهم او عائلتهم . كأن تدبيرهم دائرة واسعة لكنها صلبة كالحلقة المفرغة تحيط بالاسطوانة الغليظة وتمسك بها من كل جوانبها ولا تستطيع الاحاطة بعود رفيع . الا اذا كانت مرنة تتسع وتضيق حسب الحاجة فتحيط بالعود والاسطوانة . وهذا نادر ولذلك رأيت الذين يستطيعون تدبير الصغائر والكبائر قليلين

ومن الالعاب الاعتيادية التي تقاس بها قوة التدبير الشطرنج والضاما . فان المهارة بهما تفتقر الى الاحاطة باحوال كثيرة وفرض فروض كثيرة نحو ما يحتاج اليه القائد في ساحة الحرب والسياسي في المؤتمرات . ولذلك كان اكثر السياسيين وقواد الحرب ماهرين في هاتين اللعبتين . فكل قائد يقدر أن ينتصر في لعب الشطرنج ولكن هل كل لاعب شطرنج يقدر أن يتولى القيادة في الحرب ؟

فتش عن المعدة

لانها بيت الداء [1]

قال استاذنا المرحوم الدكتور فانديك « المعدة عضو مظلوم أشد ظلم يلقي عليها صاحبها أشغالاً شاقة تضاهي أشغال هركليس الاثني عشر وهي صابرة على ذلك مدة مستطيلة تكمل المطلوب منها بلا تذمر ولو على تعب جزيل وأخيراً يصيبها اليأس

(١) عن الهلال سنة ١٨ صفحة ٥٣٧

فتقطع العمل وتبطل الشغل وتعذب صاحبها وتنتقم منه أشد الانتقام على ظلمه اياها ومتى أخذت تشكو يعسر تسكينها واذا سكنت بواسطة التلطيف والتملق والمداراة كمداراة العين الرمداء تهيج لاقل سبب كأنها انتبهت الى قوتها وقيمتها فصارت مثل الولد المتخلق لا يرضيها شيء »

ولم ينطق البلغاء ولا جاء الحكماء على اختلاف الاعصر والاجيال بعبارة أكثر انطباقاً على الحقيقة من الحديث النبوي « المعدة بيت الداء » فقد قيلت منذ نيف وثلاثة عشر قرناً والطب لا يزال طفلاً رضيعاً فشب الطب وشاخ ولم يزدها الا اثباتاً وتحقيقاً . لان المعدة عضو رئيسي للهضم والهضم قوام حياة الانسان وفي صحتها صحته وسعادته وفي اعتلالها شقاؤه وبليته

ومن أمثال الفرنساويين انهم اذا أشكل عليهم فهم حادثة من الحوادث قالوا « فتش عن المرأة » يريدون ان للمرأة دخلاً في كل ضروب المعاملات على أسلوب خفي . ونقول اذا رأينا عارضاً صحياً مهما كان نوعه « فتش عن المعدة » وهو ينطبق على فحوى الحديث المتقدم ذكره اذ يندر ان يشعر الانسان بعارض في صحته الا كان سببه انحرافاً في عمل المعدة بين تلبك أو حموضة أو تعب أو تخم . ويصدق ذلك أيضاً على ما ينتاب الاصحاء من الاضطرابات العقلية والانزعاجات النفسية أكثر مما يصدق على الامراض العضالة في الصدر أو الكبد أو الكليتين ونحوها . وان يكن أكثر هذه الامراض انما يحدث من سوء معاملة المعدة في أوائل أطوار الحياة

وللمعدة دخل كبير في أخلاق الناس فمن تلبكت معدته ضاق خلقه وساء ظنه واحتد طبعه . وقد تبلغ هذه الاعراض في بعض الناس الى درجة الوحشية . ولو أحصيت المنازعات الاعتيادية التي تحدث بين الرجل وامرأته أو الولد وأبيه أو الفتاة ووالدتها لرأيتها انما تحدث بعد الطعام اذ تكون المعدة ممتلئة . ويظهر ذلك على الغالب في أهل الترف المكثرين من ألوان الطعام بحيث تمتلىء معدهم وتحتقن أوعيتها فيحدث التلبك فيضيق الخلق ويغلب على الرجل سوء الظن . فاذا خطر لامرأته مثلاً ان تخاطبه في أمر يسرها وكررت القول أو كان في خطابها ما يدعو الى اعمال الفكرة أجابها جواباً جافياً وهو لا يريد مجافاتها . فتنفر منه وهي تتوقع ان يسترضيها كما هي عادته في مثل هذه الحال وقد فاتها انه يفعل ذلك في غير حاله تلك ومعدته مرتاحة

أما الآن فان تهورها يزيد في غضبه فينقم عليها فيسمعها ما هو أمر فتزداد تهوراً وهو يزداد غضباً حتى يفضي بهما ذلك الى خصام يشتد أو يضعف بنسبة مدارك كل من الزوجين . وقد تسمع جارك يصيح في امرأته ويعيرها ويلعن ساعة اقترانه بها وهي تجيبه بمثل ذلك ويشتد الخصام بينهما ولو تقاضوا اليك لضحكت مما جرهم الى ذلك النزاع . واذا نظرت في قضيتهم من وجهة طبية حكمت ببراءة كليهما والقيت التبعة على المعدة أو بالحري على الهضم

وما يحدث في البيوت الصغيرة يحدث مثله في الممالك الكبيرة . فكم من حروب انتشبت بين مملكتين لم يكن سببها الا خصاماً بين زعيميهما ولو تدبرت سبب الخصام لوجدته التنازع على لفظ قاله أحدهما فعدَّه الآخر اهانة وطلب ترضية فاكبر ذلك طلبه فجرَّهما ذلك الى شهر الحرب . ويا شقاء أمة أصيب ملكها بالدسبيسيا (عسر الهضم) فانه فضلاً عن عجزه عن ادارة شؤونها قد يجرُّ عليها الوبال بما يثيره من الضغائن بضيق خلقه وحدة طبعه

ويكون تأثير ذلك شديداً اذا كان الملك مطلق التصرف كما كان أكثر ملوك الارض قديماً . يوم كانت ارادة الملك شريعة المملكة . أما الآن فقد تقيدت ارادة الملوك بشوراهم في أكثر ممالك الارض فاصبح الخطر قليلاً من هذا القبيل . ولكن المعدة ما زالت ذات تأثير كبير في الاندية السياسية . ومن الحكمة وسداد الرأي ان تعقد مجالس الحكومات في أوقات تكون المعدة فيها مرتاحة لا مثقلة بالطعام ملبكة ولا فارغة جائعة . ولكن الجلسات السياسية يطول أمد اجتماعها ساعات كثيرة كالمؤتمرات ونحوها فلا يؤمن فيها عواقب الجوع لانه يؤثر على الخلق تأثيراً تضيق النفس معه ذرعاً عن التروي ودقة البحث في المسائل العويصة

فلو كلف أحد وزراء الدولة بالمفاوضة مع مندوب دولة أخرى في مسألة عليها خلاف بين الدولتين واجتمعا لتسويتها فكل منهما يجتهد في اثبات الحق في جانبه بالبرهان ويغلب ان تكون براهين هؤلاء السياسيين سفسطية مقدماتها الطمع وحب الذات ولكنهم يزوقون البراهين تزويقاً . فاذا كان أحد المندوبين من دهاة السياسة وتمكن قبل الشروع بالعمل من اثقال معدة زميله بالطعام الكثير وصبر عليه ساعة ثم أخذ في البحث والجدال فلا تمضي ساعة أخرى حتى يعجز ذاك عن اعمال الفكرة ويصبح غير قادر على تدبر الموضوع واستخراج النتائج الصحيحة . واذا كان الآخر

فصيحاً قاده بفصاحته ودهائه الى ما يريد وهو لا يدري

ويحدث مثل ذلك اعتباطاً كل يوم في أعمال الناس الاعتيادية وهم لا يتنبهون له . ولكننا نوجه التفات القارىء منذ الآن الى هذه الحقيقة ولا نظنه الا معجباً بما يلاقيه من علاقة المعدة بأعمال الناس على اختلاف ضروبها من سياسية أو تجارية أو أدبية

فاذا تبين لك ذلك علمت مقدار العناية التي يجب اتخاذها في اصلاح الهضم لان أصحاب المعدة الضعيفة من أتعس الناس حالاً وهم لا ينظرون في الدنيا الا من وجهها الاسود فيرون الحياة مثقلة بالمتاعب والهموم فلا يهنأ لهم كسب ولا يفرحهم عمل من أعمال الحياة ولا يخفى ما في ذلك من الشقاء وما يجر اليه من البلاء فان من كانت هذه حاله لا يستطيع عملاً ولا يسر عشيراً

فاصحاب الدسبسيا لا يصلحون لمخالطة الناس على أنهم قلما يلتمسون تلك المخالطة لانهم ميالون الى الانفراد وقد يشتد ذلك في بعضهم حتى يطلب الخلوة اياماً وقد يلتمس الخلاء . وربما تحول حاله الا السويداء فيظنه الناس أصيب بخبل فيكتبون له الكتابات وينذرون عنه النذور ويحملونه الى الديور وقد يكفي لشفائه ان يعالجوا معدته بما تصلح به بعد الفحص الدقيق

وأسباب تلبك المعدة أو عسر الهضم كثيرة اهمها :

١ ادخال الطعام على الطعام أي ان يتناول الانسان طعاماً قبل هضم الطعام السابق وهو مما نبه اليه الحكماء والاطباء من قديم الزمان وفي مقدمتهم الشيخ الرئيس فقال « واحذر طعاماً قبل هضم طعام »

٢ الافراط من تناول الاشربة السخنة أو المخدرة كالشاي والقهوة والتبغ والافيون

٣ طول الصوم ثم تناول الطعام بكثرة والمعدة فارغة

٤ سرعة المضغ والازدراد واللقمة لم تسحق جيداً ولا امتزجت باللعاب كما يجب . وقد سئل المستر غلادستون عن سبب اقتداره على الاعمال السياسية الشاقة على كبر سنه فنسب معظم ذلك الى التأني في مضغ الطعام وسحقه جيداً حتى قال « لا ازدرد اللقمة قبل ان أسحقها بين أضراسي ثلاثين سحقة على الاقل »

٥ الاعمال العقلية على اثر تناول الطعام فان المطالعة أو الكتابة تنبه الدماغ

فيتوارد اليه الدم بكثرة فلا يبقى للمعدة كمية كافية منه لافراز السيال المعدي فيضعف عمل الهضم وتفسد الاطعمة فيها ولا يستثنى من ذلك الاعمال الجسدية وهذا ما حمل الامم المتمدنة على عادة القيلولة بعد الطعام فانها أحسن وسيلة للراحة وانتظام عمل المعدة

٦ تناول الطعام على أثر التعب الشديد عقلاً او جسداً وهو يشبه السبب الثالث (طول الصوم) ومن عوائد هنود اميركا انهم اذا عادوا من صيد وقد أعياهم التعب وهم جياع يناموت قليلاً ثم يأكلون

٧ تناول الاطعمة الضخمة والاكثار من الاطعمة وتعداد ألوانها حتى يدخل المعدة منها فوق ما تستطيع هضمه

٨ السهر الطويل بغير انتظام مع ما قد يعقب ذلك من أسرار الليل

٩ طول القعود ساعات متوالية بغير رياضة أو مشي وخصوصاً اذا كان ذلك في أماكن فاسدة الهواء

١٠ عدم تنظيم اوقات الاكل أي ان لا يعين للطعام ميقات معلوم كل يوم

على انك اذا تدبرت هذه الاسباب وغيرها مما لم نذكره لرأيتها ترجع كلها الى تحميل المعدة فوق طاقتها فان مقدرتها على هضم الطعام تختلف باختلاف حالة الجسم جملة . فالمعدة في الحالة الصحية الاعتيادية تهضم رطلاً من الطعام مثلاً. وأما في حالة تعب أو سهر أو صوم أو ما شاكل فلا تستطيع ذلك

ومن سوء حظ الامة ان يكون طعامها لذيذاً شهياً فانه يعود افرادها على التلذذ به فيتناولون منه فوق ما يحتاجون اليه . ويغلب في الاطعمة اللذيذة الدسمة ان تكون ثقيلة على المعدة فتساعد على تلبكها . وتجد طعام الانكليز وهم من ارقى الامم الحاضرة تفهاً لانهم لا يلتفتون في اصطناعه الا الى مقدار غذائه وسهولة هضمه لا الى طعمه . وبعكس ذلك المشارقة فانهم انما يلتفتون في اطعمتهم الى طعمها ومقدار ما فيها من الدسم. وزد على ذلك انهم يتعاطون اشربة منبهة تزيد شهوة الطعام كبعض العرقي او نحوه وقد لا يكونون في حاجة الى منبه ولكنهم يفعلون ذلك استكثاراً من لذة الاكل وقد فاتهم ان العبرة في الطعام ليست في مقدار ما يدخل المعدة بل هي في مقدار ما تهضمه المعدة منه

اعقل الناس

اعذرهم للناس (١)

لا يعمل الانسان عملاً الا وهو مدفوع اليه بعقله أو بعواطفه . ولا يذهب مذهباً أو يرى رأياً الا وهو يرى له في نفسه مسوغاً اما بالاقتناع أو بالبرهان . فاذا سمعت بأمر فظيع ارتكبه بعض الناس فلا تحكم عليه بالخطإ قبل أن تستطلع عذره فيه ويغلب أن تعود بعد سماعه عاذراً — اذا قيل لك ان محمد علي باشا الكبير قتل أربعمئة من المماليك غدراً وكانوا مستكنين لا يناوئون ولا يقاومون فدعاهم لحضور الاحتفال بخروج حملة ابنه طوسون من القلعة فجاؤا مطمئنين وهو ينوي الايقاع بهم غيلة فلما شربوا المرطبات ومشوا بالموكب أمر رجاله فاحاطوا بهم وقتلوهم عن آخرهم ، أو قيل لك أن بونابرت العظيم حاصر يافا حتى كاد يعجزه فتحها فطلبت حاميتها التسليم على ان يحفظ أرواحهم فاجابهم نائبه الى ذلك وساقهم الى معسكر بونابرت فأمر باعدامهم رمياً بالرصاص وعددهم أربعة آلاف رجل — اذا قيل لك ذلك وأمثاله من فظائع التاريخ فلا تنسب محمد علي أو بونابرت الى الظلم أو القسوة قبل ان تعرف السبب الذي حملهما على ركوب ذلك المركب الخشن . وفي التاريخ كثير من أمثال هذه الفظائع يندر أن لا يكون لمرتكبيها عذر في ارتكابها مع اعتبار روح العصر ومطامع بني الانسان

على اننا لا نخوض في ذلك لانه من قبيل التاريخ وانما نريد بعنوان هذه المقالة التماس العذر في ما يسيء به الناس بعضهم الى بعض في معاملاتهم الادبية الاجتماعية . أما المعاملات المادية فالشرع يضمن الانصاف فيها وله الحكم أو العذر

والمعاملة الادبية تتناول قسماً كبيراً من علاقات الناس بعضهم ببعض وهي على كونها اعتبارية وهمية قد أصبحت محور تعامل الناس في معظم أحوالهم الشخصية أو العائلية حتى السياسية — كم من حرب انشبت نارها غضباً لكلمة ساءت أحد الملوك أو القواد وربما بلغته خطأ . وكم من خصام بين القبائل أو العائلات أو بين أفراد العائلة الواحدة بلغ دويه عنان السماء ولو بحثت عن سببه ما رأيت له أساساً غير التسرع وسوء التفاهم ...

وفي أمثال هذه الحوادث يتبين العاقل من الجاهل . فمن نصح ومن عوامه

(١) عن الهلال سنة ١١ صفحة ٢٦٢

واستخدم عقله في الحكم على صاحبه كان كثير العذر وهو كبير العقل ولذلك قالوا « ان أعقل الناس أعذرهم للناس »

وأساس هذه الفضيلة والمحور الذي تدور عليه « ان يعرف الانسان قدر نفسه » ولا يستطيع ذلك غير العاقل المتبصر . لان الناس فطروا ان لا يروا عيوب أنفسهم واذا كان بعضها ظاهراً ظهوراً واضحاً لا سبيل الى انكاره التمسوا لانفسهم عذراً عليه أو كابروا في انكاره ولذلك قالوا « ان غاية العلم ان يعلم الانسان مقدار نفسه » .

فاذا عرف الانسان مقدار نفسه (ولو بالتقريب) عرف ضعف الطبيعة البشرية وادرك نقائصها واتضحت له اللوم التي يجري الخصام منها اليه رغم ارادته . فاذا وقع صاحبه في مثلها هان عليه ان يعذره . ويزيد العذر سهولة عليه كلما زاد تعقلاً وادراكا

اذا كنت لا تقدر ان تحمل قنطاراً فلماذا يسوءك عجز الآخرين عن حمله . واذا استطعت انت حمله لانك أقوى عضلاً منهم فلماذا لا تعذر ضعفهم

تحتقر صاحبك أو قريبك أو تشتمه ثم تستغرب غضبه عليك أو اساءته اليك فهل اذا احتقرك هو أو شتمك تباركه أنت وتثني عليه — فالعاقل لا يبدو منه ما يسيء الآخرين لئلا ينال جزاءه . واعقل منه من يعذر المسيء اليه لضعفه أو اضطراره أو جهله على حد قول القائل :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت أجهل ما تقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتي فعذلتني وعلمت انك جاهل فعذرتكا

واذا تدبرت ما يقع بين الناس من الخصام أو النزاع رأيت معظمه ناتجاً عن سوء التفاهم لقلة صبر الانسان على التفحص فيتسرع في الحكم على صاحبه ويبالغ في تعنيفه على زلة لم يكن هو لينجو منها لو كان في مثل حاله وربما كان وقوعه فيها أشد خطراً عليه من ذلك . فاذا الف أحدهم كتاباً أو نظم قصيدة أو لفظ خطاباً وبدرت منه هفوة أو هفوات فالعاقل يعذره على بعض عمله بالنظر الى ما أفاده في مجمله . واما الجاهل فهمته بعد قراءة تلك المقالة ان يبين ما فيها من الخطأ واذا لم يجد خطأ انتقد عبارتها او موضوعها أو شيئاً آخر . وهو لو كلف كتابة سطر منها ما استطاع اليه سبيلا . ويقال نحو ذلك في انتقاد الناس على الشعراء والخطباء وغيرهم . ويغلب في أولئك المنتقدين ان يكونوا قليلي المعرفة كبار الدعوى . ويندر ان يجتمع كبر الدعوى وسعة العلم في واحد . لان الانسان كلما زاد علمه زاد اتضاعه لتحققه بعد طول البحث وكثرة

الاطلاع ان ما يتيسر للانسان معرفته من احوال الطبيعة ونواميسها وحوادثها لا يقاس بما يبقى غامضاً منها . ويشعر بتوالي البحث بزيادة جهله فهو لا يبدي رأياً او يكتب كتاباً او ينظم قصيدة الا وهو يتوقع ان يكون فيها نقص ولذلك فلا يستغرب ما قد يراه من النقص في اعمال الآخرين فيعذرهم . واذا انتقده منتقد تبصر في ما لاحظه عليه واستفاد من انتقاده بلا مكابرة او جدال وان لم يكن في ذلك الانتقاد ما يعتقد هو صحته . لان مجرد عناية القارىء في الانتقاد تستدعي شكره على ذلك الا اذا تخلل الانتقاد طمن شخصي فالسكوت عند ذلك اجدر بالعقلاء

فاساس اغتفار الزلات شعور الانسان بضعف طبيعته وتعرضه للخطأ . واذا نظرت في هذه القاعدة من حيث معاشرة الناس ومعاملاتهم الاجتماعية رأيت اكبرهم عقلاً واوسعهم صدراً اكثرهم عذراً للناس . وهو اقلهم أعداء لانه لا يصدق كل ما يبلغه عن أصدقائه أو أصحابه أو خدامه مما يسوءه أو يمس كرامته . واذا صدقه فلا يؤاخذهم عليه الا على قدر عقولهم وسائر أحوالهم . فلا ينقم على خادمه اذا قصر في فهم عبارة أو قال قولاً لا يليق ولا يطالبه بالاعتذار أو يضربه أو يشكو سوء حاله معه لعلمه انه لو كان كما يرجو هو ما استطاع استخدامه في منزله بدريهمات قليلة

ويقال نحو ذلك في تعامل الاقران فان بين اصحابك من تخاف وانت تخاطبه ان تفرط منك عبارة يحملها هو على محمل الاهانة له وانت لا تقصد اهانته او يؤولها الى التعريض به او ببعض اخلاقه او بشيء من اعماله فتجتمعان على صداقة وتفترقان على عداء . ومنهم من تخاطبه وانت لا تحاذر ان يسوء فهمك او يحاسبك على سهوك . واذا تدبرت الفرق بين منزلتي الاثنين عندك لرأيتك تعد الاول صغير العقل قصير البصر وتعد الثاني كبير العقل واسع الصدر ـ فكن الثاني ولا تكن الاول ـ لان من العار على الرجل ان يعاشره اصدقاؤه على حذر . فاذا خاطبوه حللوا ألفاظهم وعباراتهم واذا صاحبوه عدوا خطواتهم . فيقضون ساعات اللقاء بإطراء خصاله والتصديق على اقواله فاذا افترقوا شكوا قلة عقله وضيق صدره

العفاف سياج العمران (١)

نريد بالعفاف تنزه النفس الانسانية عن الدنايا وخصوصاً ما يحرمه الشرع والعرف من التهتك والفحشاء وقد حملنا على الكلام في ذلك أن بعض شباننا وأكثرهم من أهل اليسار الذين يرجو الوطن منهم رفع مناره وتعزيز شأنه قد انغمسوا في الشهوات وعكفوا على المنكرات واشتغلوا بها عن واجباتهم المقدسة فبدلاً من أن يكونوا مثال العفاف ونبراس الفضيلة أصبحوا قدوة سيئة وعثرة في سبيل الانسانية . فان الفحشاء هوة عميقة تذهب بأهلها الى الدمار ولا تصلح أمةٌ ركبت متنها وتدنست برذائلها لانها مضعفة لهمم ماسخة للمروءة ذاهبة باصحابها ومن صاحبهم الى أسفل دركات الذل والمسكنة

ناهيك عما ينجم عن اباحة الفحشاء من داعيات الخراب فان في عالم التاريخ من الشواهد الناطقة والادلة الحية ما لا يُعد ولا يحصى على أن الانغماس في المنكرات مقوض لاركان العمران ذاهب بالمجد والانفة وعزة النفس داعٍ الى الذل والخمول ومن كان عبداً لشهواته فلا عجب اذا استعبده الآخرون

أنظر الى دولة الرومان التي امتد رواق سلطانها على الخافقين وحملت اليها الجزية من أربعة اقطار المسكونة فانها حالما فسدت آداب أهلها فسد نظامها ووهنت قواها وما لبثت ان سقطت وكان سقوطها عظيماً . ولو تتبعت تواريخ الامم على اختلاف الزمان والمكان لرأيتها تتشابه من هذه الحيثية وكلها قد ذهبت فريسة التهتك والابتذال

ولكن ما لنا وللامم البعيدة . اليك دولة العرب التي قلَّ ان بلغت دولةٌ مبلغها من العظمة والسطوة وهي انما بلغت ما بلغته من ذلك في صدر الاسلام على عهد الخلفاء الراشدين ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعي التابعين الذين اتخذوا العفاف نبراساً وعملوا بمقتضى الكتاب والسنّة فاتسع ملكهم ودانت لهم الرقاب حتى اذا كانت أيام دولة بني العباس وقد بلغت شمسها الهاجرة في عهد الرشيد والمأمون مالوا الى البذخ وانقطعوا الى الشهوات . فلما كانت أيام المعتصم تعاظم اقتناؤهم للجواري والمماليك وأطلقوا لشهواتهم العنان فانغمسوا في الفساد واكثروا من التهتك والفحشاء فذلت

(١) عن الهلال سنة ٣ صفحة ١٤٢

نفوسهم وخارت قواهم وتغلب عليهم التتر والاكراد وغيرهم من الاعاجم فدالت دولتهم واندك طود ملكهم واندثرت اعلام مجدهم ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

على أننا لا نحتاج الى النظر بعيداً وشاهدنا في دارنا هذه مصر السعيدة . فقد جاءها المغفور له محمد علي باشا مؤسس العائلة المحمدية العلوية والمنكر ضارب أطنابه فيها بما أحله الامراء المماليك من المحرمات وقد ضربت الذلة والمسكنة على المصريين حتى لم يكن يرجى لهم بعث من ذلك المَوات وخصوصاً بعد الحملة الفرنساوية التي زادت الاباحة وأطلقت سراح المومسات فعلم محمد علي باشا الداء وبادر الى الدواء فشدد النكير على كل منكر وعمل على قطع دابر المتهتكات نفياً وقتلاً . ومما يحكى عنه أنه علم بارتكاب بعض رجاله منكراً من هذا القبيل فأمر به وبالمرأة فأغرقا في النيل معاً ولا أزيدك علماً بعاقبة ذلك ولسان الحال شاهد عدل

وربَّ قائل يقول « أرى الهلال يحظر أمراً قد أباحته الحكومة فانها قد أطلقت عنان الحرية في ذلك ومهدت له السبيل بما عينته من الاطباء لفحص المومسات فحصاً طبيّاً فازدادت أقدامهنّ تمكناً في تلك المهنة واتخذنَ لهنّ مقاماً في اواسط المدينة وبالقرب من الحدائق العمومية وأماكن اللهو تسهيلاً لاستجلاب الشبان بما ينصبونه من الشراك »

نقول أما الحكومة فعذرها في تعيين الاطباء انها اختارت أهون الشرّين فلما لم تستطع منع ذلك منعاً تاماً ورأت تفشي الامراض الخبيثة السريعة الانتشار التي لا دواء لها بقطع جرثومتها عينت الاطباء دفعاً لمضرتها بقدر الامكان وهي ربما لا يتأتى لها الآن ما تأتى للمغفور له محمد علي باشا من هذا القبيل والناس متمتعون بحريتهم الشخصية وخصوصاً بعد ان أقيمت المجالس وتأيدت الحكومة العدلية فالحكومة من هذا القبيل تظن أنها أجرت ما هو في طاقتها . وانما العمدة في ذلك على الشبان وتهذيبهم وطرق معاشرتهم وما شاكل ذلك

ولكننا اذا سمحنا بعجز الحكومة عن اتباع خطة مؤسس العائلة الخديوية فهي لا تعجز من غاية اللوم على أمر هو عندنا من الاهمية بمكان . وذلك انها تمكن المومسات هذه معظمها في اواسط المدينة وعلى الشوارع العمومية بحيث تكون شراكها اكثر اصابة فضلاً عن الاضرار التي تلحق بالعائلات الساكنة في ذلك الجوار . فالحكومة مطالبة

شرعاً وعرفاً بدفع هذه المحظورات بتنقية المدينة من هذه الاوساخ وتطهيرها من هذه الارجاس . واذا كانت لا تستطيع استئصال شأفة أولئك الابالسة فلا أقل من اخراجهن من قلب المدينة الى مكان بعيد في ضواحيها فلا يذهب اليهن الا المستهلك في سبيل شهواته وهذا حياته كمماته وينجو كثير من الشبان الذين انما ينقادون الى تلك الاماكن انقياد الشاة الى الذبح إما بلفظة أو باشارة أو على أثر كأس من الخمر أو قدح من (البيرا) وهم ليسوا مفطورين على تلك الرذائل

ولكن وجود تلك الاشراك في وسط المدينة وعلى قارعة الطرق هو الذي جرّهم الى هذا الامر المنكر لان أولئك المومسات يقفن على قارعة الطريق يحرشن بابناء السبيل بأساليب الخلاعة مما تشمئز منه النفوس ولا ينجو منهنَّ الا الذي رسخت قدمه في المبادئ الصحيحة ولكن الضعفاء في الناس اكثر كثيراً من الاقوياء فلو كانت هذه الاماكن خارج المدينة لما وصل اليها الا المنغمس في شهواته ولا سبيل الى اصلاحه ولا فائدة من وعظه

وانما غرضنا وقاية الشبان الذين على شفا جرف الهاوية فاما أن يدفعهم الشيطان الى سماسرته وإما أن تعود بهم الفضيلة الى سواء السبيل والله حسبنا ونعم الوكيل

احفظ شبابك

والكهولة تحفظ نفسها [1]

احفظ شبابك وأنت في ابان الشباب . احتفظ به انه ذخر الكهولة وزاد الشيخوخة . اقتصد بما تنفقه من شبابك ولا تحسبه ينبوعاً دائماً . انه ينبع الى حين فاذا انقضى تطلبه فلا تجده فتندم ولات ساعة مندم

وقد تسألني « كيف احفظه وهو زائل من طبعه والتماس بقائه محال ؟ » أقول : احفظ شبابك لا بالطعام فانك انما تستبقي به الحياة . ولا بالنوم فانك تستريح به من تعب النهار . احفظه بالعفاف والاعتدال . واحذر من الاسراف فانه ذاهب بالحياة وانت لا تشعر الا اذا دنت شمسك الى الزوال

---

(١) عن الهلال سنة ٨ صفحة ٤٩

اذا لقيتَ شيخاً طاعناً في السن شاب شعره وسقطت أسنانه وتجعد وجهه وغارت عيناه وهو مع ذلك لا يزال منتصب القامة براق العينين صحيح البنية سريع الحركة نشيطاً يهضم طعامه جيداً ويعمل اعمال الشباب جسماً وعقلا فاعلم انه قضى شبابه عفيفاً معتدلاً فلقي ثمرة ما ادّخره من القوة في شبابه

واذا رأيت شاباً في مقتبل العمر وريعان الشباب وقد أشرق وجهه بماء الشبيبة . فلا يغرنك منه ذلك الاشراق ولا يسرك انتفاخ وجهه وكثرة طعامه ولا تعبأ بما يظهر عليه من سمات الصحة والعافية . وهو اذا مشي تعب . واذا صعد سلماً لهث . واذا كلفته عملا عقلياً ملّ وضجر . واذا حدثته عن خطر خاف وارتعد . أو قيل له أن فلاناً أصيب بخبل خاف أن يصاب بمثله . وتراه لا يجسر على عمل ولا يقدم على مشروع . فاعلم أنه غافل عن شبابه وقد أسرف فيه وأضاعه . لان الشاب اذا عفّ ظل ثابت الجأش قوي الجنان صبوراً على تقلبات الايام ولا يزال كذلك الى آخر أيامه

فالمرء بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين أو الثلاثين في حال يحتاج فيها الى يقظة وانتباه . فاما ان يحفظ شبابه فيعيش عمره صحيحاً معافىً وإما ان يضيعه فيقضي على نفسه بالتعاسة والخسران

وقد حدا بنا الى كتابة هذه السطور ما نراه في شباننا من الانغماس في ملاهي الشبيبة وهم لا يدركون عاقبة ما يجرونه على اجسادهم وعقولهم من البلاء . فيقضون الليل سهارى في اماكن اللهو وما ادراك ما وراء ذلك من مهاوي الضلال ودركات الفحشاء مما يميت عواطفهم ويوهن قواهم ويضعف عقولهم ويذهب بحياتهم وبئس المصير

ولا يقتصر ضياع الشبيبة على هذا السبيل فمن بين الادباء البعيدين عن تلك الملاهي من يجهل قيمة الشباب فيصرفه في سبيل يحسبه غير ضار وهو لا يرى ضرره وله عذر في ذلك اذا جهل العاقبة . اما وقد علم انه انما يقتل نفسه عمداً فهو ملوم في ذلك الاسراف

اذا احمرّت وجنتاك وأبرقت عيناك وانتفخ وجهك وأنت مع ذلك اذا أجهدت نفسك في عمل خانتك قوتك واستولى عليك الملل فما أنت الا عليل . والعلة ليست في العضل ولا في الدهن بل هي في القلب والدماغ لان الافراط انما يضعف هذين العضوين فيصبح الشاب شيخاً

ومن ظواهر تلك الحال كلال العقل وضعف القلب فيخفق لأقل مؤثرات

ويضرب لاخف الاسباب . وقد يستولي عليه الوسواس والحدة فيخاف مما لا يدعو الى الخوف ويغضب مما لا يدعو الى الغضب . والبلية العظمى ان حالته هذه قد تسوقه الى زيادة الانغماس في سبب تلك النغمة فيزيد الطين بلة

فاحتفظ بشبابك ولو تكلفت في بادئ الرأي كظماً . احتفظ به أنه زاد الشيخوخة . فاذا انفقته في مقتبل العمر أمسيت بلا زاد وخير الزاد التقوى

اذا قرأت ترجمة رجل عظيم انهض نفسه من دركات الذل والفقر الى مراقي المجد والسؤدد بجده واجتهاده فاعلم انه انما اكتسب ذلك بالنشاط والاقدام والصبر على مضض الايام وذلك لا يكون الا مع العفاف . واشهر من حاد عن تلك الخطة من مشاهير الرجال انما هو الشيخ الرئيس (ابن سينا) ولكنه مات قبل أوانه وترك لنا وصية نظمها في بيتين من الشعر يمنعنا تداول الهلال بين أيدي الجنسين من ايرادهما ولكنهما مشهوران •

وكم من شبان دلت أوائل نشأتهم على مواهب سامية كنا نرجو لهم بها مستقبلاً عظيماً فاضاعوها باسرافهم وباتوا يتقلبون على بساط الخمول أو المرض ومعظمهم ماتوا قبل ادراك الكهولة . ولو بحثت عن ذلك لرأيت سببه متصلاً باحوالهم السرية

احفظ الشبيبة وأما الكهولة فهي تحفظ نفسها . اذ تضعف العواطف ويتسلط العقل والعقل اذا تسلط لا يدل الا على الخير والسلام

الفراغ مفسدة

كلمة للشبان والشابات (١)

قال القدماء « الطبيعة تكره الفراغ » يريدون فراغ المكان من المادة لانهم رأوا بالمشاهدة والاستقراء ان ما يظهر للناس من الامكنة خالياً انما هو مملوء بالهواء لان الماء أو غيره اذا صب في وعاء لا يدخله قبل خروج الهواء منه فعبروا عن ذلك بكره الطبيعة للفراغ . وهو رأي العلماء الطبيعيين الى اليوم وان اختلفوا في أسلوب التعبير . فالفراغ مستحيل في الطبيعة لاننا لا نتصور مكاناً لا تشغله المادة — هذا ما يقال

(١) عن الهلال سنة ١٦ صفحة ٢٨٣

في المحسوسات وهو يطلق على المعنويات فالعقل أو الفكر لا يخلو من أمر يشغله . ولو أراد أحدنا ان يصرف ذهنه عن أمر يهمه انتقل الفكر الى سواه أراد صاحبه أو لم يرد . والانسان اذا تعددت عليه المهام اشتغل ذهنه بأثقلها وطأة عليه أو أشدها تأثيراً في نفسه . فاذا انفرجت هذه احتلت مكانها مهمة أخرى تليها في الشدة فاذا فرجت جاءت أخرى مكانها فاخرى . كأن المهام أو المشاغل تترتب في الدماغ طبقات باعتبار أهميتها كما تترتب السوائل اذا تفاوتت أثقالها النوعية ولم تمتزج فتترتب طبقة فوق أخرى حسب تلك الاثقال فاذا انصرف أثقلها من أسفل الوعاء احتل مكانه السائل الذي يليه في الثقل وهكذا على التعاقب وقس على ذلك سائر ما يبلغ اليه علمنا من المحسوسات والمعنويات في الافراد والجماعات . والحياة حركة دائمة اذا عارضتها من جهة لا تقف ولكنها تنصرف الى جهة أخرى

فالفكر أو العقل لا يقبل الفراغ اذا خلا من عمل اشتغل بسواه بمقتضى المؤثرات على العقل أو الوجدان فاذا لم تشغله الحسنات اشتغل بالسيئات . ولذلك قالوا « الرأس الفارغ مغارة ابليس » فالعاقل من شغله عقله بالنافع خوفاً من اشتغاله بالضار . وشغل الفكر هو شغل الوقت فالحكيم من أحسن استخدام أوقاته واستثمار أفكاره . والوقت كالعقار لا يستثمره الا من يهتم به . ومن فرغ ذهنه من العمل وجدت المفاسد الى قلبه سبيلاً وقد لوحظ ان الجنود تكثر الفتن بينهم اذا فرغوا من العمل ولذلك رأيت الحكومة تشغل جنودها أيام السلم بامور اكثرها غير ضروري . ويقال نحو ذلك في رؤساء الاحزاب السياسية وكبار المتشرعين فانهم يشغلون أتباعهم ومريديهم بفروض وطقوس اكثر المراد بها صرف أذهانهم عن الفتن بينهم أو التفكير بما يفسد قلوبهم على زعمائهم .

وليس غرضنا النظر في ما ينبغي من الاعمال في كل ساعة من ساعات النهار أو في كل دور من أدوار الحياة فان ذلك مما لا يسعه المقام ولكل انسان عمل يتعاطاه لقيام باود الحياة وانما نريد النظر في ما ينبغي عمله في « ساعات الفراغ » — وما أدراك ما ساعات الفراغ ؛ هي العقبة التي اذا تجاوزتها آمنا أدركت بها السعادة والا فانها ذاهبة بك الى الشقاء وقد قلنا ساعات الفراغ ولم نقل ساعات العمل لان هذه لا خطر منها على العامل وهو في شاغل عن عثرات الفكر واللسان وفي مأمن من شرك الشيطان . أما أوقات الراحة فهي التي يجب الاحتراس منها لانها عقبة بل عقرب أو هي بالحقيقة

محلة اما ان تجني لك عملاً شهياً أو تلسعك لسعاً قوياً . فكم من فتيان اغتنموا تلك الساعات وأحسنوا استخدامها فكانت سبباً في رفع شأنهم ومحوراً لسعادتهم وآخرين أساؤوا استعمالها فساءت حالهم وذلوا بعد العز وفسدوا بعد الصلاح . فاحذر من يدك وعقلك ساعات الفراغ فانهما آلتان لا يرى الشيطان سبيلاً اليهما الا حين خلوهما من المشاغل

ما هي الراحة

لا يتوهمن القارىء اننا نحرم الراحة على رجال الاعمال لان الراحة لازمة للنجاح مثل لزوم العمل ولكن ما هي الراحة ؟ قد علمت مما تقدم ان الفراغ محال فاذا فرغ الانسان من عمله الذي يرتزق به انصرف الى ما يرتاح اليه من الالعاب واسباب اللهو اما اللعب بالنرد او البلياردو او الداما او غيرها من الالعاب في القهوات العمومية او مجالسة بعض الاصدقاء لسماع الحوادث الجارية او مطالعة الجرائد او المعاقرة او المقامرة او غير ذلك من وسائل اللهو . ومهما يكن نوع اللعب او التسلية فالعقل لا يزال عاملاً في كل حال . فكيف يكون العمل العقلي سبب التعب وسبب الراحة معاً ؟ ان الراحة لا تقوم بالكف عن العمل بل هي تقوم بتحويله او تنويعه فالعامل الذي يقضي نهاره قعداً ويداه تشتغلان انما يرتاح بالمشي وامساك يديه عن العمل

والتاجر الذي يقضي يومه مفكراً في تجارته يرتاح بتحويل افكاره من التجارة الى شيء آخر كالمطالعة او بعض الالعاب العقلية او البدنية . والمحامي يرتاح بانصراف ذهنه عن المواضيع القضائية الى غيرها من الادبيات او العلميات . والكاتب قد يتعب من الكتابة في موضوع رياضي فاذا انتقل الى بحث اجتماعي او سياسي كتب فيه كأنه لم يتعب . وقس على ذلك سائر المهن . فالتعب عبارة عن كلل الاعضاء او مللها من العمل المستمر على وتيرة واحدة وانما اللذة في الانتقال . ولنفس هذا السبب يمل الانسان اي حال من الاحوال اذا طال مكثها ولو كانت من اسباب السعادة . فالفقير يشتهي الاطعمة اللحمية وسائر الطيبات ويحسد الناعمين على الفراش الناعم والذين يكتسون الديباج والحرير ويعد السعادة كل السعادة في الحصول على ذلك فاذا حصل عليه وطال تمتعه به مله والتمس سواه وقس عليه سائر الملاذ . فاللذة ليست بدرجة من درجات الغنى وانما هي بالانتقال مما عنده الانسان الى ما يشتهيه

فليست الراحة بابطال العمل وانما هي بتحويله من جهة الى اخرى او من

موضوع الى آخر والناس يختلفون في طرق ذلك التحويل وهي النقطة الجوهرية التي نحول التفات شباننا وشاباتنا اليها ـ اذا لم يكن بد من اشتغال فكرنا في ساعات الفراغ التماساً للذة الراحة فما لنا لا نشغله بما يلذ ويفيد ؟

خطر الفراغ

ليس عليك أيها الشاب خطرٌ من ساعات العمل وانما الخطر كل الخطر من ساعات الفراغ فاما أن تقضيها في اماكن اللهو والبطالة فتجرُّ عليك الوبال أو تعمل عملاً نافعاً لك ولذويك . وقد تقول ما ضرّ لو قضيتها في اماكن اللهو وليس هناك ما اخافه ولا أنا آت ما أخشى عاقبته . فاعلم أيها الشاب ان الذين تراهم الان وتهزأ بهم أو تأسف لحالهم لما هم منغمسون فيه من اللهو وانواع المساوىء والمنكرات انما بدوأ بمثل ما أنت بادىء به وقد اعتقدوا في أنفسهم المقدرة على ملاصقة النار بغير أن يمسهم منها شرر فما لبثوا ان قادتهم العادة وغرهم سماسرة السوء فجعلوا يحدرون دركة دركة من القهوة الى البار فالبيرا فالبيرالية ف . . . ف وهكذا الى أسفل الدركات فساؤا مصيراً وأصبحوا من زمرة الاشرار وهم لا يعلمون. على أنهم لو أرادوا الرجوع عما هم فيه ما استطاعوا اليه سبيلا فامسوا يعضون على نواجذ الندم ولات ساعة مندم

لا تعتقد الكمال في نفسك فالانسان ضعيف يخشى عليه من العادة اذا تسلطت وهي انما تتسلط بالتكرار عن غير قصد سيء ـ قد تذهب الى اماكن اللهو في بادىء الرأي مسايرة لصديق أو خوفاً من أن تتهم بالبخل . فتذهب وأنت تعتقد فساد رأي الذاهبين وتزعم أنك لن تحذو حذوهم وانما تريد « مسايرتهم » وقد فتك أنهم كانوا مثلك وقد بدأوا بمثل عملك فاصبحوا بما هم فيه وهم لا يشعرون

على انك لو تأملت حالهم لرأيتهم انما يطلبون التعب لا الراحة وأية راحة يرجونها من السهر الطويل في معاقرة الخمرة وانفاق المال فلا يمضي نصف الشهر حتى يمضي ما في الجيب وقد يكونون من ارباب الماهيات القليلة فينفقون رواتبهم على ابناء السبيل واولادهم يئنون جوعاً . أتحسب ذلك راحة والاشغال الشاقة أحسن منه عاقبة ؟

فربما كنت من أهل اليسار الذين أفاض الله عليهم الخيرات ارثاً ـ اذ لا يمكن أن تكون ممن كسبوا المال طارفاً والمال لا يناله الا المكدون على العمل والمنقطعون عن تلك الاماكن . فان كنت من أهل اليسار وهب انك تملك مال قارون فانه لا يلبث ان يذهب ضياعاً وأنت لا تدري وقد يقودك غناك الى ارتكاب منكر هو أشرّ

المنكرات بل هو آفة العمران ألا وهو الميسر « المقامرة » وعند ذلك فلا تستعظم ثروتك ولا تفرح بكثرة الابنية وتعداد الفدادين واصغرُ مزارعيك احسن حالاً منك . وكم من أولاد الثروة وابناء البيوت الرفيعة العماد اصبحوا بعد برهة يستدينون اقواتهم من بعض خدمتهم وهم لا يملكون شروي نقير ذلك لانهم غرَّهم غناهم فحسبوا العمل عاراً عليهم فسلموا زمام اشغالهم للغرباء واكبّوه على ما ظنوه أليق بأهل الثروة فقضوا ايامهم ولياليهم في الترف والبذخ واللهو فخسروا المال والصحة والشرف على حين ان الفقر لو وُلدوا فيه لكان ستراً لهم ورادعاً لجميع تلك الشرور

فمن الحكمة والتعقل ان تجتنب استخدام ساعات الفراغ في ما تسوء مغبته من لعب او شرب في الحانات او القهوات او في المنازل وقد أصبح بعض المنازل في مدننا الكبرى لسوء الحظ مقامر يجتمع اليها الشبان والشابات يقضون معظم الليل والنهار في تقليب الورق وتداول النقود . وانتقلت هذه العدوى الى عائلات من خيرة العائلات ادباً وفضلاً رجالاً ونساء وفيهم جماعة من اهل الذكاء والعلم يزعمون انهم يقتلون الوقت باللعب للتسلية لا للمقامرة — فاذا كانوا لا يخافون على أنفسهم من التورط ألا يرون في ذلك خطراً على أولادهم وسائر أهلهم . وأما اعتذارهم باللعب للتسلية فمنقوض لان وسائل التسلية كثيرة وخصوصاً في المدن الكبرى وعلى الاخص بين المتعلمين والادباء وأهل الذكاء كالاجتماعات الادبية والمباحثات في الحوادث الجارية من سياسية أو اجتماعية وفي ذلك تثقيف ولذة وفائدة . فاذا ملّ من الحديث فهناك العاب كثيرة تعرف بألعاب المنازل على سبيل (الحزازير) ونحوها قد يشترك في اللعبة الواحدة عشرة أو عشرون . وفي بعضها فضلاً عن التسلية فائدة لتوسيع العقل بدون تعب كالالعاب المبنية على الاسئلة التاريخية أو الادبية أو نحوها وكلها مشهورة بين العائلات . واذا وُجد في الجلسة واحدٌ يعرفها يكفي لقضاء السهرة بها . ولا يستحسن اللعب بشيء من الالعاب التي تشبه آلات المقامرة مهما تكن بسيطة لان لعب الورق البسيط أو لعبة شاكوش كومبانيا أو نحوهما كثيراً ما يكون سبيلاً الى المقامرة وخصّاً للاعبين أو لاولادهم على الاقل . فالاحسن البعد عن أدوات اللعب والفرار منها والاقتصار على ما تقدم من الالعاب المنزلية وهي كثيرة أو المباحثات أو المطارحات أو المذاكرات على قدر استعداد الحاضرين . ونعرف شباناً في القاهرة والاسكندرية أنفوا من سهرات الكسل أو الرخاء التي تذهب بالوقت سدًى فألفوا جمعيات بعضها أدبية

وبعضها علمية . ومنها جمعيات تمثيلية أشبه شيء بالاجواق فبعضهم يؤلف الرواية والبعض الآخر يمثلها وكثيراً ما عادت هذه الاعمال بالنفع المادي على الاعضاء فضلاً عن النفع الادبي . فما يمنع أن يشترك السيدات ايضاً في مثل هذه الجمعيات أو ينشئن جمعيات لانفسهن يشتغلن فيها بما ينفعهن وينفع الناس ويكفي أن يصرفن اذهانهن عن تلك الالعاب الجهنمية .

فائدة الفراغ

على اننا لا نرضى منك وانت من شبان القرن العشرين ان تكتفي بتجنب شر الفراغ وانما انت مسؤول عن ضياعه عبثاً لان ساعات الفراغ ذخر ثمين لمن يحسن استثماره ولو تدبرت سير رجال الاعمال والمخترعين لرأيت ما اوتوه من اختراع او اكتشاف او مشروع عظيم انما هو من ثمار اشتغالهم في ساعات الفراغ . ألم يكن رتشرد كرايت مخترع آلة الغزل ومؤسس معامل القطن حلاقاً وكذلك كان تنتردن قاضي القضاة وترنر المصور الشهير . فهل بلغوا ما بلغوه بغير استخدام ساعات الفراغ ؟ ان معظم العظماء نبغوا من اكواخ الفقراء بالجد والنشاط وما هما الا « العمل في ساعات الفراغ » فمن استخدم ساعات الفراغ في ما ينفعه فهو النشيط المقدام الذي يرجى خيره . ولا يحتقرن احد نفسه مهما يكن فقيراً وانما الفقير الكسول ضعيف العزيمة ساقط الهمة . فقد نبغ من بين الفعلة غير واحد من المهندسين والشعراء ونبغ من بين البنائين بن جنسن لانه كان يقضي نهاره ومنعقة البناء في يده والكتاب في جيبه يغتنم ساعات الراحة للقراءة فيه . وقام من بين البنائين أيضاً ادوردس وتلفرد المهندسان وهيوملر الجيولوجي والن كنهام المؤلف الشهير . ومن بين النجارين اينغوجونس وهريسن صانع الخرونومتر ويوحنا هنتر الفزيولوجي ورمني واوبي المصوران والاستاذ لي البارع في اللغات الشرقية ويوحنا جبسن النقاش . ومن بين الحاكة سمسن الرياضي وباكن النقاش وفستر المؤلف وولسن العارف بالطيور والدكتور لفنستن الرحالة الافريقي وتاهل الشاعر . ومن بين الاساكفة السر كلودسلي شوفل امير البحر العظيم وسترجون الكهربائي وصموئيل درو المؤلف وجيفرد محرر جريدة كورترلي رفيو وبلمفيد الشاعر ووليم كاري وموريس المبشران وموريسن لم يكن سكافاً بل صانع قوالب للاساكفة .

وقام من بين الاساكفة توما ادوردس وقد درس جميع العلوم الطبيعية وهو يشتغل

بالسكافة حتى اكتشف نوعاً من المتحجرات سمي باسمه . ونبغ من الخياطين يوحنا ستو المؤرخ وجكسن المصور واندروجنسن رئيس الولايات المتحدة . وكان الكردينال ولسي العظيم قصاباً ويوحنا بنيان تكارياً وهلكرفت المؤلف سائساً وهرشل الفلكي الشهير كان يلعب على المزمار ـ فهؤلاء وغيرهم كثيرون نهضوا من الفقر الى الغنى ومن الجهل الى العلم باستخدام ساعات الفراغ في ما ينفعهم . فما أجدر شباننا ان يقتدوا بأمثال أولئك العظماء فيشغلوا فراغ أوقاتهم باكتساب ما ينفعهم من صنعة أو أدب أو علم على ان يجعلوه لهواً في ساعات الفراغ بدلاً من لعب النرد أو البلياردو أو الداما أو الورق أو غيرها . وكم بيننا من أرباب الصنائع الدنيئة لا يخطر لاحدهم اغتنام فرصة الفراغ لدرس علم أو مهنة تغنيه عن صناعته . وقد يشق ذلك عليهم لاول مرة فاذا حملوا انفسهم عليه مراراً اصبح ملكة يلتذون بها فلا يرتاحون الا اليها وانما السر في الخطوة الاولى فالحازم ان لم يكن فيه ميل للدرس عوّد نفسه عليه فما هو الا ان يحمل نفسه على ممارسته مراراً فيألفه ويصير ملكة فيه

كم بين ظهرانينا من شبان وفيهم التاجر والكاتب والصانع والفلاح والمستخدم في الحكومة وفي غيرها وكلهم يطلبون الرقي ويلتمسون زيادة الكسب ولكن الساعين في ذلك من طريقه الحقيقي قليلون وكم ترى من الناقمين على الدهر العاتبين على الزمان يندبون سوء الحظ يزعمون أنهم مع ما خصّهم به الطبيعة من سمو المدارك والمهارة في العمل لا ينالون حظاً من حقوقهم واذا جالستهم أو ماشيتهم لقيتهم يقضون ساعاتهم (وكلها ساعات فراغ) ينتقلون من قهوه الى أخرى ومن بار الى آخر لا يعملون عملاً كأنما يريدون أن تهبط عليهم الثروة هبوط الوحي أو تنزل عليهم الاشغال نزول المنّ والسلوى . واذا حادثتهم ملأوا أذنيك طعناً بالناس وامتهاناً لذوي اليسار بأنهم أوتوا الثروة عفواً عن غير استحقاق على حين اننا لم نسمع بفقير اغتنى بغير كد وسهر ومثابرة بنسبة نوع عمله وما اختص به من المواهب . ومن منا لا يضمن لهم النجاح اذا شغلوا اوقاتهم بالعمل والكد وهجروا اماكن اللهو

وطائفة المستخدمين في المصالح الاميرية تطمح انظارهم الى الارتقاء في الوظائف وقليلون الذين يؤهلون أنفسهم لذلك بدرس اللغات أو العلوم اللازمة لتقدمهم . وقد يعتذرون عن تقاعدهم بضيق الوقت يعنون بضيقه أنهم لا يملكون من فراغه الا ساعات قليلة في اليوم لا بد من صرفها في الراحة وقد قدمنا ان الراحة ليست

بالكف عن العمل بل بتنويعه ومع ذلك فالدقائق القليلة مع التكرار تعمل عملاً عظيماً وانما يعوزنا المواظبة لان الساعات مؤلفة من الدقائق والايام من الساعات . ان هذه الجبال الشامخة انما هي من بناء حيوانات صغيرة لا ترى الا بالمكرسكوب . واهل المواظبة يستخدمون فضلات الوقت لعمل نافع غير مهنتهم فينفعون وينتفعون وقد يفعلون ذلك في اوقات لا تقدر لها قيمة ـ فان الدكتور مازون كود ترجم لكريتوس في اثناء تجواله بين مرضاه والدكتور داروين الف اكثر كتبه على هذه الطريقة والدكتور برني تعلم الفرنساوية والايطالية في اثناء انتقاله بين بيوت تلامذته ليعلمهم الموسيقى وكرك هوايت تعلم اليونانية في الطريق بين مكتبه ومجلس القضاء ودغسو أحد مبشري فرنسا ألف كتاباً ضخماً في الفترات على المائدة بين لون من الطعام ولون آخر ومدام دي جنلي الفت بعض كتبها في الدقائق القليلة التي كانت تقضيها في انتظار الاميرة التي كانت تعلمها . واليهوبرث كان حداداً وتعلم في ساعات الفراغ من عمله ٣٨ لغة منها ٢٠ لغة حديثة و١٨ قديمة

فالاعتذار بضيق الوقت لا يعتد به لان المواظبة تعوض عنه . وانما نحن في حاجة الى الارادة والعزم اكثر من حاجتنا الى الذكاء والفهم ـ [illegible] والتأجيل فانه آفة المشارقة وكم من اذكياء نبهاء قضوا زهرة اعمارهم في التسويف والاهمال وترك الامور للتقادير والاكتفاء بالشكوى والعتاب . فالمستخدم في قلم عربي مثلاً اذا اراد الارتقاء الى اعلى منه وجب عليه ان يتعلم الانكليزية او الفرنساوية او يتعلم الحساب او الانشاء او غيرها من العلوم التي تفتقر اليها المصالح الكبرى . وكذلك العامل في مخزن او ادارة او بنك او زراعة او صحافة او محاماة فلينظر الى ما يعوزه للارتقاء ويدرسه في ساعات الفراغ فيغني نفسه عن مضار الملاهي وعواقبها ويحتفظ براتبه من الضياع فيها ويتعلم ما يفيده ويفيد وطنه

ويسرنا أن نرى بعض مستخدمي الحكومة سائرين على هذا النحو فمنهم بعد ان قضوا عقداً من العمر في خدمة الحكومة [illegible] ما يهدد المستخدمين من الرفت كل ساعة خوفاً من ان يفاجئهم ذلك وهم في غفلة فتقصر ايديهم عن القيام باود حياتهم تراهم يقضون ساعات الفراغ في درس علم أو فن يصح الاعتماد عليه في الارتزاق كالمحاماة أو الطب أو الصيدلة أو صناعة من الصنائع الجميلة كالحفر والرسم والتصوير والموسيقى مما يركن اليه عند الحاجة . فاذا ما طرأ عليهم رفت فانهم لا يخسرون شيئاً

بل يقصدون ما كان لا بد لهم من انفاقه لو قضوا تلك الساعات في أماكن اللهو فضلاً عما يؤانسونه في مطالعة تلك العلوم أو ممارسة تلك الصنائع من اللذة التي لا تقاس بما يتوقعه اللاعب بالنرد أو الشطرنج أو غيرهما

على ان بعضاً من هؤلاء وهم اصدقاؤنا قد خرجوا بذلك من القوة الى الفعل ومنهم من لم ينتظر رفت الحكومة فاستقال من منصبه وعمل بالعلم أو الصناعة التي تعلمها وعول عليها فاكتسب اضعاف راتبه الاصلي فتعاطى أحدهم المحاماة وآخر فن الرسم أو التصوير الشمسي وآخر صناعة الحفر وآخر غير ذلك وقد اشتهر كلٌّ منهم بصناعته وهم الآن يتعاطون تلك الاعمال وقد مهروا بها واستغنوا عن الخدمة بما اكتسبوه في ساعات الفراغ

الشابات والفراغ

هذا ما يقال في الشبان أما الشابات فالفراغ يضرُّ بهنَّ أكثر مما يضرُّ بالشبان ولا سيما اللواتي قام في اذهانهن انهن انما خلقن للتبرج والتزين وتبديل الازياء غير مباليات بما يجرُّه ذلك عليهن وعلى ذويهن من الشر والفساد ونخص منهن بنات الاغنياء اللواتي يربين في رغد وعز فيستنكفن من أقل الاعمال فلا تمس أيديهن اداة من ادوات البيت لان ذلك في زعمهن حطة بشأن السيدات وقد خلقن للزينة لا يهمهن أمر ازواجهن أو والديهن وما يقاسونه في تحصيل الدرهم وهنَّ لا يعرفن من أمر النقود الا ما يدفعنه الى الموديستا أو بائع الاقمشة وقد لا يمسسن الدراهم بايديهن وانما يقصصن ويحطن والحساب على رجالهن

وأغرب من ذلك أن بعض ذوي اليسار يبالغون في ترفيه بناتهم وتأنيقهن حتى يقيموا لكل واحدة منهن خادمة بل خادمات هذه تحضر لها القهوة وتلك تقدم لها الطعام وهذه تشعل لها السيكارة وقس عليه . فمن كانت هذه حالها وليس لديها عمل تعمله تشغل به عقلها أو جسدها فما الذي ترجوه منها اذا شبت وقد نمت فيها الشعائر ونضجت العواطف وهذه لا تبقى بلا عمل فاذا كانت الفتاة في ابان شبابها ولا عمل لها تعمله أو تتلاهى به أفلا يكون في ذلك خطر على سيرتها مهما بالغ اهلها في حجابها ؟

وما قولك بمن تقضي اعواماً طوالاً لا تشعر بما يدخل بيتها أو يخرج منه من لوازم الطعام واللباس تاركة أمره للخدم والجواري فاذا جاء الخادم آخر الشهر بجريدة النفقات وفيها أنه انفق في اثناء ذلك الشهر خمسة قناطير من السمن مثلاً فلا تدرك

حضرتها ان مثل ذلك القدر لا يمكن انفاقه على بيتها في خمسة اشهر ولو اتخذوا السمن للاغتسال وليس للطعام

ومنهن من اذا رأت جارتها تخيط رداء حريرياً على زي جديد تنقم على زوجها اذا لم يجئها بمثله ولو ان دخله في الشهر كله لا يساوي ثمن ذلك الرداء . واذا بحثت عن سبب ذلك الشر رأيته ناتجاً عن تقاعدها عن العمل لانها لما لم يكن لديها ما يشغلها ساعات النهار انقطعت الى الاهتمام بأمر نفسها وصبغ وجهها وتحسين خلقتها بانواع التبرج تقضي سحابة يومها في التزين تنتقل من امام المرآة الى الشرفة ("بلكون") ثم تعود الى غرفة اللباس ("تووالت") فتبدل ثيابها وتعود الى الشرفة واذا حضرت حفلة انصرف فكرها الى ما تراه هنالك من الازياء الجديدة والتفنن بانواع الخلاعة وقد تكون تلك الزيارة سبباً لتنغيص عيشها وعيش زوجها ولا سيما اذا رأت بين تلك الازياء زياً جديداً ليس لها مثله

فلو كانت ممن ربين على العمل وعرفن قيمة الدرهم وتعودن الاهتمام بأمور بيتهن واولادهن فان همهن ينصرف الى الفضيلة القائمة بتدبير المنزل والاقتصاد بنفقاته وبدلاً من الافتخار بغلاء ثوبها تفتخر بتدبير بيتها وتربية اولادها على الحشمة والنظافة ومطالعة الكتب المفيدة فتكون سعادة لزوجها وزينة لمنزلها وربما زينت ذلك المنزل بشغل يديها وليس في ذلك عار وانما العار اذا انفقت مال رجلها على البذخ في ملابسها وتركت بيتها وقد غشيته القذارة فتكون كالقبور المكلسة بيضاء من الظاهر وفي داخلها جيف نتنة

ولو اقتصر شرها على ذلك لكان خيراً ولكنها تكون قدوة سيئة لاولادها فيشبون على ما تعودوه من الكسل والبطالة والاهمال وهو ما لا تنزعه تربية المدارس ولا يقلعه تعليم المعلمين واكبر شر يرثونه منها سوء استعمال ساعات الفراغ

سوء التفاهم

اصل التخاصم [(١)]

اذا اختلف اثنان في أمر فاما ان يكون منشأ ذلك الاختلاف اختلافهما في الاحكام العقلية واكثر ما يكون ذلك في المباحث الفلسفية كأن يقول أحدهما النفس مادة ويقول الآخر النفس جوهر والغالب ان يكون الصواب في جانب أسماهما عقلاً . او ان يكون منشأه التفاوت في المعرفة والاختبار واكثر ما يكون ذلك في الابحاث الطبيعية كأن يقول احدهما الحرارة تمدد الاجسام ويقول الآخر انها تقلصها والصواب غالباً في جانب اكثرهما اختباراً . وقد يتفق ان يكون الاثنان مصيبين كما اتفق لاثنين اختلفا في لون السرطان فقال أحدهما انه اسود وقال الآخر انه احمر واصرّ كل منهما على زعمه وكان كلاهما مصيباً لان الاول شاهد السرطان حياً ولونه اسود والآخر شاهده مشوياً وقد احمر لونه

وليس فيما تقدم شيء من الخصام وانما هو مجرد اختلاف في الرأي لا يمس كرامة الاشخاص وقد يطول الجدال والاخذ والرد فيه ولا يؤثر شيئاً في صداقة المتناظرين لان الحكم بينهما انما هو العقل الذي اذا تجرد عن العواطف والاغراض كان معصوماً عن الخطأ

وأما الخصام فهو الاختلاف الناجم عن حكم العواطف الذي قلما يكون في جانب الاصابة . والعواطف من اول مظاهر الصبوة والشباب وفي حكمها من المسارعة والطيش ما في حكم الشباب — فيا لتعاسة الذين يعملون باحكامها . وأبلغ من ذلك أن حكمها نافذ في الاكثر بين الاصدقاء وذوي القربى

قلنا ان حكم العواطف قلما يكون في جانب الاصابة والسبب في ذلك ان الانسان قريب الخضوع لها سريع في تنفيذ أحكامها فلا تمهله ريثما يستوفي النظر وهو لا يستطيع كبحها اذا جمحت فيحكم على صديقه بما قد يكون بريئاً منه فيقول مثلاً أنا أحب فلاناً وأحب له الخير فكيف يبغضني ويكره مصلحتي ويقول صديقه فيه مثل قوله واذا تحريت الحقيقة وبحثت عن سبب اخصام رأيت كليهما مصيباً لان كلاً منهما يحب الآخر

(١) عن الهلال سنة ١ صفحة ٨٤

ويحق له على نسبة ما أدركه ان يعاتب صديقه . واذا أمعنت النظر في سبب ذلك النفور رأيته لا يخرج عن حد سوء التفاهم والمسارعة في الحكم قبل التروي

ولذلك كان التروي والتبصر أقرب الى سجايا ذوي المعرفة والفهم الذين هم أبعد الناس عن الخصام . أما المتسارعون في الحكم فهؤلاء لا تخمد نارهم ولا يبقى لهم صديق . ومثلهم مثل أحد الفلكيين الذي كان يرصد الكواكب بالتلسكوب فشاهد كوكباً لم يشاهده قبلا فبادر الى مخابرة أصحاب المراصد الاخرى ليشاركوه في مشاهدته وتحقيق اكتشافه ولكنهم لم يروا شيئاً مما قاله . أما هو فما زال مصراً على قوله حتى تبين له بالبحث ان ما شاهده تلك الليلة لم يكن من الكواكب في شيء وانما هو دويبة صغيرة تضيء في الليل يقال لها الحباحب كانت واقفة على زجاجة التلسكوب. وأسباب الخصام بين الاصدقاء لا تخرج عن هـذا الحد فان أحدهم يرى في صديقه حركة يلوح له ان المقصود بها اساءته في شيء وقد لا يكون ذلك الظن في غير محله ولكنه يسارع الى الانتقام منه فيأتي حركات مغايرة لما أعتاده صديقه منه فيرى هذا ان صديقه متغير عليه فيهيج غضبه لعلمه ببراءته وتأخذ أسباب الخصام تتعاظم حتى تفضي الى ما لا تحمد عقباه وما لا يعود يسهل حله

على انهما لو أحسنا التفاهم وتعاتبا لظهرت الحقيقة من أول الامر وامتنع الخصام. وأمثال هذا الخصام كثيرة في الناس وأسبابها غالباً سوء التفاهم كما قدمنا

وفي اعتقادنا ان الانسان مفطور ان لا ينوي الخصام عمداً ولكنه لضعف طبيعته يسارع في الحكم فتهيج فيه حاسة الانتقام فاذا لم يتدارك الامر بالتروي قاده ذلك الى ما تقدم من تفاقم الخلاف واتساع الخرق ولا سيما اذا أصاخ بسمعه الى الذين يرون في ذلك الخصام منفعة ذاتية . وهذا أيضاً من قبيل ضعف العزيمة وسخافة الرأي والله سبحانه وتعالى أعلم

شقاء الاغنياء (١)

لا نظن أحداً من الفقراء يعتقد الشقاء في غير الفقر كما يعتقد المرضى ان الشقاء في المرض. ومن كانت امرأته سيئة الخلق رأى الشقاء كله في الزواج وقس على ذلك سائر أحوال الناس فانهم ينظرون الى متاعبهم بالنظارة المكبرة وينظرون الى متاعب سواهم من وراء الحجاب . ولا غرابة في ذلك فان العين ترى الاشباح القريبة اكبر منها لو كانت بعيدة . ولو سألت الفقير عن السعادة لقال انها في الغنى وكذلك المريض فانه يراها في الصحة والمتزوج بسليطة يرى السعادة في العزوبة وقس عليه .

وقد يكون اكثر هؤلاء مصيبين الا القائل « ان السعادة في الغنى » فانه مخطىء خطأ فادحاً . ولا نخال الفقير يقتنع بقولنا هذا بل ربما عده من قبيل المغالاة . اما اذا دخل قصور الاغنياء وتفحص طرق معيشتهم وراقب مجاري احوالهم واستطلع خفايا ضمائرهم فانه يرجع حامداً شاكراً لما أولاه الله من نعمة الفقر وراحة الضمير وسلامة الجسم والعقل . فالسعادة في حقيقة معناها ليست في الغنى ولا في الفقر ولا هي في شيء من مشاغل هذا العالم ولكنها في نفس السعيد من الناس غنياً كان أو فقيراً فالسعيد يولد سعيداً بما فطر عليه من الاخلاق الرضية وطول الاناة وسعة الصدر والقناعة وغير ذلك من السجايا التي لا تشرى بالمال ولا تكتسب بالصناعة . وقد يكون صاحب هذه الاخلاق أسعد حالاً في الفقر منه في الغنى . اما من كانت اخلاقه على عكس ذلك فهو تعيس فقيراً كان أو غنياً

وليس من غرضنا البحث في السعادة وأسبابها ولكننا اردنا الاشارة الى حقيقة قل من ينتبه لها من اهل الفاقة . على انهم لو تدبروها لكانت اكبر تعزية لهم لما هم فيه من الفقر الذي يسمونه شقاء . وذلك ان بين اكبر اغنياء الارض رجالاً يموتون جوعاً في ريعان الشباب والطعام بين ايديهم والاموال ملء خزائنهم ولا غرابة في ذلك ولا غلو

فان كرنيليوس فندربلت الغني الاميركاني وثروته ١٥٠٠٠٠٠٠ جنيه قد تولى ادارة ثلاثين شركة وتمتع بكل ما تتوق نفوس الفقراء والاغنياء اليه فشاد القصور والحدائق في المدن والقرى وأنشأ لنفسه القطر الحديدية الخصوصية يسافر بها وبنى

(١) عن الهلال سنة ٦ صفحة ٧٤٠

السفن والذهبيات يركبها في الانهار والبحار لترويح النفس وبالغ في اقتناء الخدم والحشم والاعوان حتى صاروا يعدون بالمئات والالوف فلم يغنه ذلك كله شيئاً فاصيب في ابان شبابه بالدسبسيا (عسر الهضم) وهو المرض الذي مات ابوه به فلم يبلغ كرنيليوس الخامسة والثلاثين من عمره حتى نحل جسمه وانتهكت قواه من الجوع لان معدته لا تساعده على هضم اخف الاطعمة فزوجت ابنته وهو على هذه الحال فحملوه الى قاعة الاستقبال بكرسي المرضى . وأصيب منذ اربع سنوات بوفاة بكره الحافظ لالقاب عائلته ومن مدة غير بعيدة تزوج ابنه الآخر ضد ارادته وخرج من بيت والده

ناهيك عما استولى على هذا الغني التعيس من الاوهام لما علم بقرب اجله فانه اصبح خائفاً من ان تشيع حاله هذه بين الناس فيطمع فيه اهل الفوضى وغيرهم فاحاط منزله بالشرطة والخفراء ليلا ونهاراً حتى مات أسيفاً كئيباً وقلبه عالق باموال وعقارات والقاب لا يدري مصيرها

ومثل ذلك ايضاً الكونت ارنود الذي بلغ دخله ٩٠٠٠٠ جنيه في العام فقد مات في باريس قبل ان يدرك الاربعين من عمره بداء سماه الاطباء الدسبسيا الحادة وهي من عواقب الترف والتأنق بالمآكل والمشارب فمات جوعاً لان معدته لا تستطيع الهضم

ومن هذا القبيل اللورد روزبري وزير خارجية انكلترا فقد اعطاه الله مالا وعقاراً وحسباً ونسباً وتوفرت لديه كل الوسائل المؤدية لما يسميه الفقراء سعادة فساح البلاد معززاً مكرماً وارتقى في مناصب الحكومة حتى تولى وزارة انكلترا ونال اكبر وسامات الشرف وذاع صيته في الآفاق ومع كل ذلك فقد يخال لنا انه يعطي كل ماله لمن يريحه ليلة من ليالي الارق التي تتولاه فتحرمه لذيذ النوم اياماً وكثيراً ما يخرج من غرفته بعد منتصف الليل والناس نيام فيخطر في الحديقة او يصعد الى السطوح فاذا وصل حجرة الخدم ورأى اصغر خدمه نائماً هادئاً تمرمر في نفسه وتمنى لو تباع له هذه النعمة بمئات الالوف من الجنيهات

* * *

هذه أمثلة أوردناها عن أناس من أشهر أغنياء الارض وكم بيننا من غني لم يكن تعيساً لولا غناه . ومن أشق ما في الغنى ان الغني لا يلذ له شيء غير كسب المال فهو

جمع ثروة قارون فهو لا يزداد الا رغبة في الجمع ولا يخفى ما في ذلك من انهاك القوى وأسباب المرض . وأشقى هؤلاء جميعاً غني يجمع المال فلا هو ينفقه ولا يورثه لحبيب يتمتع به فيموت وعيناه على ماله الذي قضى عمره في جمعه وكان حريصاً عليه اكثر من حرصه على صحته وهو الذي أراده سليمان الحكيم بقوله « انسان رزقه الله غنى وكنوزاً أو مجداً فلم يكن لنفسه عوز من كل ما يشتهي لكن الله لم يبحه أن يأكل من ذلك وانما يأكله غريب هذا باطل وداء خبيث »

الاعتراف بالخطإ صواب

والاقرار بالعجز قوة (١)

من أدواء الاجتماع عندنا اننا نستثقل الاعتراف بالخطأ اذا وقع منا ويبالغ بعضنا بالعناد في هذا السبيل حتى يضر بنفسه وقد يضر بأهله ووطنه فراراً من قوله « اخطأت » حتى في الخطأ الواضح الذي لا يقبل التأويل . على ان التشبث بالرأي على هذه الصورة قد يكون سببه سوء طريقة الانتقاد أو التخطئة كأن تكون عبارة المنتقد شديدة اللهجة على أسلوب التهكم أو الاستخفاف وقد يكون في الانتقاد من القوارص والمغامز ما يثير الغضب — فلا يصبر على الاغضاء وتجريد التخطئة من النقد والنظر في الخطأ وحده الا واسع الصدر الذي طبع على امتلاك هواه والنظر في الامور بعين الفيلسوف . وهؤلاء قليلون ولذلك رأينا أن نقدم البحث بكلام في التخطئة ثم نعود الى الاعتراف بالخطأ

١ — التخطئة او الانتقاد

يدخل في هذا الباب انتقاد المذاهب والعادات والاعمال والآراء . على أن بعضهم يتطاول الى انتقاد الشرائع التي توالت عليها الادهار وصقلتها عقول الاجيال وقد تقلبت على أطوار من التنقيح والتعديل حتى بلغت ما هي عليه — ولا نقول انها بلغت الكمال ولكن انتقادها ليس سهلاً ولا يجوز الحكم على خطإها بأول ما يتبادر الى الذهن من نقص في بعض احوالها . لان ما يخطر لاحدنا من مظان النقص فيها قد خطر

---

(١) عن الهلال سنة ١٦ صفحة ٢٠٨

لقهارمة القضاء والسياسة والشريعة قبلنا ولو لم يجدوا في تلافي ذلك النقص نقصاً أكبر منه لتلافوه ــ لا نريد أن يعتقد الناس الكمال في القوانين والشرائع من حيث المعاملات والاحكام ولكننا نريد أن لا يستسهلوا انتقادها ولا بأس من النظر في وجه الحكمة من أعمالها على سبيل الاستفهام والبحث . لان الاحكام التي وضعها الفلاسفة أو الانبياء وشرحها عظماء الرجال لا يستخف بها ويتهجم على نقدها بلا روية الا المفتونون ببنات أفكارهم الذين لم يقرأوا من صفحات الكون الا ما كشفه لهم أساتذتهم أو سمعوه من آبائهم والتلميذ يعتقد الكمال بمعلمه وأبيه فعنده الاول عالم بكل شيء والثاني قادر على كل شيء . على أنهم اذا توسعوا في معارفهم وخرجوا من عالم النحو والحساب والمنطق والفلك والطبيعة الى عالم الاختبار والاحتكاك واضطروا الى شحذ قرائحهم لعمل عقلي أو اداري أو قضائي علموا قدر الشارعين وتهيبوا من انتقاد اقوالهم الا بعد التردد واعمال الفكرة

وأغرب ما رأيناه من احوال الانتقاد أن بعضهم لا يعجبه نظام الكون فينتقده ويخطئ صانعه (نستغفر الله) ويعترض على احكامه ونظامه وقد يتوهم أنه لو عهد اليه وضع نظام آخر لوضعه على أسلوب احكم وأضبط . . . والغالب في هؤلاء ان يتصدوا للانتقاد على أثر مصيبة اصابتهم لا يرون فيها حكمة أو عدلاً . ولو رجعوا الى صوابهم لعلموا ان الانسان مهما بلغ من علمه وفلسفته فهو عاجز عن ادراك كنه الخليقة وكلما زاد علماً زاد شعوراً بذلك العجز . وما شأن المتطاول الى ادراكها الا شأن من يمد يده ليقبض على الشمس ثم ينظر اليها فيبهره نورها فيخفض بصره ويرجع لا يلوي على شيء

واذا كان الانسان يستسهل انتقاد الشرائع والنواميس فلا عجب اذا انتقد سائر الاعمال لانه مفطور على النظر والبحث ومدفوع بضعفه على ادعاء الكمال في نفسه والافتتان بآرائه . فاذا امتدح عملاً يحسب أنه انعم على صاحبه وقلما يعجب بعمل ويرى نفسه عاجزاً عن الاتيان بمثله لو توفرت له الاسباب التي توفرت لصانعه فيهون عليه انتقاده فيلقي الكلام على عواهنه ويشدد النكير على صاحبه . وهذا ما اردنا البحث فيه والتنبيه اليه فيما يلي :

(١) انتقاد الاديان والعادات : ان العادات العامة والمذاهب الدينية أو العلمية أو غيرها مما تجمع عليه الامم وتتفق فيه الجماعات ليس مما يسهل انتقاده ولا يجوز

الاستخفاف به لان الامة أو الطائفة قلما تجتمع على خطأ . ولا يجتمع قوم على أمر الا ولهم فيه اسباب معقولة لا يسهل دفعها أو نقضها . فاهل المذهب الواحد وهم ألوف أو ملايين لا يعقل أن يكون سوادهم جاهلاً ولا هو يمنع انتقادهم ولكن لا بد من احترام ذلك الاجماع . لانهم لم يجمعوا على صحة امر اتصل اليهم من اسلافهم بعد توالي الاجيال الا ولهم في اتخاذه اسباب قوية لم تخطر ببال المنتقد . فاذا نظرت الى الاديان بنوع خاص رأيت احط اديان البشر في أعيننا حتى الوثنية أو المجوسية اذا جادلت اصحابها وسمعت حججهم رجعت وأنت متهيب من أدلتهم ـ ولا اقول مقتنع لان الجدل لا يقنع احداً بدين غير الدين الذي وُلد فيه ورضعه مع اللبن . ولكنك ترى على الاقل ان القوم لم يدينوا بذلك الدين عبثاً أو اعتباطاً

واعتبر ذلك في العادات الشائعة كالتحجب في الشرق والسفور في الغرب فان لكل قوم اسباباً تسوغ لهم التمسك بعاداتهم من مأكل ومشرب وملبس وان خالفت عادات غيرهم وهذا لا يمنع نقدها ولكن يجب احترام الاجماع عليها وانتقادها برشاقة ولطف فضلاً عما في النقد من جرح الاحساس لان الانسان ضنين بكرامة وطنه وما يلحق به من العادات مثل ضنه بكرامة دينه ولذلك نرى الامم الراقية تستهجن الجدل في الدين أو العادات أو الاخلاق

(٢) انتقاد الآراء : وانتقاد الآراء الخصوصية اكثر شيوعاً وأقرب الى الاستهتار وان كانت لا تثمر الا بالملاينة والمحاسنة مع الانصاف والاعتدال . لان صاحب الرأي قد يكون معتمداً في ما ذهب اليه على حجج خفيت على المنتقد فلا ينبغي له أن يفاجئه بالتخطئة قبل سماع ادلته . فاذا سمعها وظل على اعتقاده جادله بالتي هي احسن فاذا فعل ذلك وانصفه في ما هو محق به هان على المخطئ الاعتراف بما تبين له من الخطأ والا فانه يزداد تمسكا بقوله والاصرار على خطأه للمحافظة على كرامته

ومن هذا القبيل انتقاد الكتابات أو المؤلفات وهذه بعضها يدخل في باب الآراء الخصوصية فحكمها كما تقدم والبعض الآخر من باب الصناعة أو العلم الخاص كالطب والمحاماة لان المؤلف او الكاتب انما هو صاحب مهنة كالطبيب والمحامي والمهندس فتدخل في باب الانتقاد على الصناعات

(٣) الصناعات : ونريد بها الصناعات العقلية او العلمية ومن اكثر هذه المهن

تعرضاً لانتقاد الناس الطب لاختلاط اصحابه بالعامة واهتمام هؤلاء باجراآت الاطباء لانها تمس صحتهم وعليها تتوقف حياتهم او موتهم . فالطبيب قلما يسلم من لوم او انتقاد في حادثة لان الناس يتوقعون منه الاصابة في كل علاج والطب لا يساعده على ذلك . فضلاً عن تشابه الامراض في اوائلها فاذا وصف دواء ولم تظهر فائدته حالا شكّوا في علمه واستبدلوه بغيره او قالوا عنه ما يقال وما لا يقال وربما قالوا ذلك على مسمع منه . والمصيبة الكبرى اذا توفي عليله فيعتقدون انه توفي من غلط الطبيب وانه لو وصف له كذا وكذا لشفي . واغرب من ذلك انه لو شفي على يده لقالوا ان الله شفاه اما اذا مات فالطبيب اماته

وقس على ذلك أحكامهم على سائر الصناعات العقلية ونخص منها التأليف وهو اكثرها تعرضاً للنقد لانه لا يلقن في مدرسة ولا تؤخذ عليه شهادة (ليسانسيه) فيتوهم الاكثرون انهم لو أرادوا ان يكونوا كتاباً أو مؤلفين لاستطاعوا ذلك على أهون سبيل فاذا وقع نظرهم على كتاب أو مقالة فاول شيء يخطر لهم ان ينتقدوها . فيقرأونها قراءة متعنت مغرور بنفسه ويسبق الى أذهانهم سهولة الاجادة في موضوعها. واذا كان القارىء قد تعود الكتابة لنفسه ولم يعرض اسمه لرأي الجمهور ولا تمحص ذوقه بنار الانتقاد تسرع الى التخطئة فيقرأ المقالة أو الكتاب وهو يستغرب ما فيه من الخطأ ويتوهم انه لو كتبه هو لنجا من هذه الغلطة وتلك السقطة ولتوسع بهذه الفقرة واختصر تلك . وقد يثني على المؤلف تواضعاً بين يدي الناس ويبقى على اعتقاده الفضل في نفسه عليه . وقد يكون في حكم الجمهور لا يعد من تلامذته وسبب هذا الغرور قلة الاختبار . فلو ألف ونشر وسمع انتقاد الناس (لا تقريظهم فقط) لعرف قدر نفسه

فانتقاد المؤلفات ليس بالامر السهل لان المؤلف لم ينشر كتابه الا وقد محصه وراجعه ودقق في ضبطه فاذا قرأت كتاباً ورأيت فيه خطأ فلا تستعجل في انتقاده اذ قد يكون المؤلف مستنداً على أقوال لم تصل أنت اليها أو ربما كان مطلعاً على كتب لم تقرأها . واعلم ان انتقاد الكتب أسهل كثيراً من تأليفها . فاذا ترجح لك خطأه بعد المراجعة فاجعل انتقادك على سبيل البحث وبعد أن تنصفه ببيان حسنات كتابه فاذا طالبته بالخطأ هان عليك اقناعه

٢ — الاعتراف بالخطأ

ان الاعتراف بالخطأ من اكبر أدلة التعقل وصدق اللهجة وهو يسهل على الصادقين كبار النفوس لان العاقل يعلم ضعف الطبع البشري وان الانسان ليس أسبق من الخطأ الى لسانه وبنانه وان العصمة لله وحده ـ ولا يعتقد العصمة باقواله وأعماله الا الجاهل المكابر . يدلك على ذلك اجماع الناس على ذم الاستبداد بالرأي وجنوحهم الى الشورى حتى الانبياء والملوك . ومما قالوه في مدح المشورة :

اقرن برأيك رأي غيرك واستشر فالحق لا يخفى على اثنين
المرء مرآة تريه وجهه ويرى قفاه بجمع مرآتين

...ولا يأنف من الاعتراف بالخطأ الا الضعيف قليل البضاعة ونريد على الخصوص بضاعة العلم لدى المؤلفين فاذا كان المؤلف قد افرغ اقصى جهده واستكد قواه وجمع كل علمه واختباره في كتاب ثم سمع تنقيصه عظم عليه الاعتراف بنقصه فيجادل ويكابر وتكون مكابرته من قبيل الدفاع عن حياته الادبية لان سقوط هذا الكتاب يسقط اسمه وعلمه . بخلاف واسع العلم كثير المواد فيكتب الكتاب او المقالة ولا يستكد قواه ولا يستفرغ علمه فينشرها وفي اعتقاده انه قادر على احسن منها فاذا سمع تخطئته لا يستغربها ولا يكبر عليه الاعتراف بصدقها لان ذلك الاعتراف لا يميته وعنده من المواد الاخرى ما يحيا به اسمه . كالتاجر كثير البضاعة اذا اصاب بعضها تلف لا يهمه واما قليلها فذهاب ذلك البعض يؤذيه ويثير غضبه

ومن يسمع الانتقاد على كتاب كتبه يسبق الى ذهنه غالباً سوء الظن في المنتقد ويعتقد انه يتعمد الغض من مقامه وقد يكون ظنه مصيباً ولكنه يجب ان يغضي عن نية المنتقد ويحسن الظن به ما استطاع الى الاحسان سبيلا حتى يتمكن من سماع الانتقاد وتدبره والا ذهبت الفائدة المقصودة من الانتقاد . ومن اقوال الامام علي « لا تظنن بكلمة خرجت من احد سوءاً وانت تجد لها من الخير محتملا »

ومن غريب ما وقع لبعضهم وقد الف كتاباً ونشره وكان عارفاً بعجزه لايستنكف من الرجوع الى الصواب ان بعض اصدقائه جاءه مهرولاً وقال له « ألم تقرأ جريدة ... التي صدرت امس ؟ »

قال « لا . . ولماذا ؟ »

قال « لان فيها انتقاداً على كتابك »

قال « سأطلع عليها »

قال « ولكن يجب ان ترد على كاتبها رداً عنيفاً »

فضحك وقال « ولماذا ؟ . . هل رأيته مخطئاً في انتقاده »

قال « لا اعلم ولكن الكاتب انتقدك حسداً منك لانه مقصر عن الاتيان بمثل هذا الكتاب . . »

فقال « تمهل يا صاحبي ريثما اقرأ الانتقاد فاذا رأيت كاتبه مصيباً اعترفت بفضله وأصلحت الخطأ واذا كان مخطئاً أوضحت له الصواب »

قال « والطعن هل تسكت عنه ؟ ان فلاناً كال له الكيل كيلين »

قال « اني في شاغل عن مثل ذلك . . . واحسن رد على من يتعمد الحط من قدرك ان تشتغل عنه باصلاح شأنك فاذا اصلحته فذلك هو الرد المفحم »

والكامل من عدت هفواته وكلما قل علم المرء استعظم الاعتراف بالخطأ أو الاقرار بالعجز . . ومن هؤلاء المقلين لا يسأل عن علم أو ادب الا زعم انه عارف به واجاب عليه على نحو ما رووه عن الخنفشار لان كلمة « لا ادري » ثقيلة على ألسنتهم ومعناها ثقيل على طباعهم وكلما تقدم الانسان في الحياة واتسعت معارفه وعظم اختباره ازداد علماً بمقدار جهله واتضح له ان ما يعلمه او يمكن ان يبلغ اليه علمه لا يقاس بما يبقى غامضاً عنه . او هو كنقطة الماء من الاوقيانوس العظيم ـ قال علي « من ترك قول لا ادري اصيبت مقاتله » وقال عمر « اذا سئل احدكم عن شيء لا يعلمه فليقل لا ادري رحم الله امرءاً هدى اليّ عيوبي »

والمواضيع الكتابية التي يقع عليها الانتقاد إما حقائق لا تقبل وجهين أو آراء تحتمل الاخذ والرد . فالحقائق الراهنة التي لا تحتمل وجهين تدخل فيها الحوادث التاريخية والاحوال الجارية فضلا عن المجاري الطبيعية والقواعد المنطقية مما يجري على نواميس ثابتة . واكثر مايقع ذلك لكتّاب الصحف ومؤلفي الكتب فاذا اتضح لاحدهم خطأه فعليه أن يقول بصريح العبارة « اني اخطأت » بلا مواربة أو تنصل أو تأويل ولا يتوسع في الاعتذار أو ينتحل الاسباب الواهية أو يلقي التبعة على جامع الحروف أو مصحح المسودات ولا أن يحتال لتأييد قوله بابدال العبارة أو اقتضابها فاذا فعل ذلك فقد استجهل قراءه

والمكابرة أو الموارية لا تجعل الخطأ صواباً ولا يخفى الصحيح على الناس ولا

سيما في ما هو من قبيل الحقائق . ونحن لا نطالب المخطئ الا بما يوحيه اليه ضميره في خلوته من الحكم في مواضع الخلاف ويكفي أن يصرح بحكم ضميره ولا يفعل كما يفعل بعضهم فيتجردون للجدال في مسألة سبق قلمهم الى الخطأ فيها فيسودون الصحف ويقتلون الاوقات بالمحاكة والمواربة وهم يعتقدون في باطن سرهم أن الحق في جانب خصمهم ولكنهم يستثقلون الاعتراف بالخطأ فيضيعون اوقاتهم واوقات القراء عبثاً كأنهم يستحيون من الرجوع الى الصواب وأولى بهم أن يستحوا من الحق اذا عرفوه أن لا يرجعوا اليه وكيف يرجى لنا كمال اذا كنا نستنكف من اصلاح خطأنا وسواء أصلحناه أو لم نصلحه وسواء اعترفنا به أو لم نعترف فان الحق قد حكم علينا بالخطأ فتوقفنا مكابرة عن الاقرار به واصلاحه هو ذنب آخر اذنبناه لدى العلم والفضيلة

وقد يكون الباعث على المكابرة أو المغالطة الدفاع عن كرامة توهم صاحبها أنها مست بما في عبارة المنتقد من الاستخفاف أو التهكم فيعظم عليه الاقرار ويأخذه العناد . وهو عذر نقبله للضعفاء ولا نقبله لكبار الكتاب الذين نصبوا أنفسهم لهداية الامة وترقية نفوسها فاذا اخطأ لك المنتقد بأسلوب الخطاب فهل اخطأ الحق حتى انكرته والحق لا يغلب فمن صارع الحق صرعه واذا كان الانتقاد جارحاً خذ ما فيه من الصواب والق باقيه كما تلقى الاتربة بعد استخراج الذهب منها

أما تخطئة الآراء التي تحتمل وجهين وتقبل الاخذ والرد فلا بأس من المناظرة فيها لان في البحث فائدة مزدوجة لما ينجم عن تبادل الآراء من تمحيص الحقائق وانما يشترط حصر الكلام في الموضوع الذي عليه مدار البحث خوفاً من الخروج الى المطاعنات الشخصية وهي سلاح الضعيف . ومن داعيات الاسف اننا قلما نرى بين كتابنا من يحفظ هذه القاعدة فهم يخرجون غالباً من المباحثات العلمية أو التاريخية أو الاجتماعية أو السياسية الى المطاعنات الشخصية .وما ينطوي تحتها مما نجل أرباب الاقلام عنه وهم قادة الافكار وقدوة اهل الادب

البورصة والقمار

او القمار البورصة (١)

هما ضربتان قاضيتان على الاموال والابدان لا ندري أيهما شر من الاحرى . وكلاهما من آفات التمدن الحديث . فقد جاءنا هذا التمدن بحسنات كثيرة لكنها لا تكاد توازي بما لحقنا من آفاته وأضراره وخصوصاً القمار والبورصة . نعم ان القمار قديم لم تخل منه أمة من الامم القديمة ولا الحديثة لكنه لم يدخل بلداً الا جعل أعزة أهله اذلة وذهب بسعادة الناس وكدر صفاء راحتهم . ولم يقم مذهب ولا سنَّت شريعة الا وكان القمار معدوداً عندها من الرذائل المحرمة . وهو محرم في الشرائع الادبية والشرائع المدنية . ولو سألت المقامرين أنفسهم لما انكروا فظاعته ولذلك رأيتهم يتسترون ويتكتمون عند « معاطاته » . على أنه جاءنا في هذا العصر عن طريق أوربا وقد زاده التمدن الحديث برقشة وزهاء فاقتبسناه منهم بشكله الجديد وادواته المزخرفة وأسمائه الرنانة وفنونه المتنوعة فاستغرقنا فيه أيّما استغراق حتى ملك عواطفنا وكاد يذهب بعقولنا

وقد كتبنا في القمار غير مرّة وبينا تاريخه ونوّهنا بعواقبه ولا نزال نرى الحاجة ماسة الى بيان فظائعه لما نراه من تعاظم اضراره بانتشاره في العائلات حتى عم العلماء والجهلاء والاغنياء والفقراء وشمل الرجال والنساء والاحداث والاطفال والعياذ بالله . وقد حدانا الى خوض هذا العباب الآن ما رأيناه في أثناء الصيف الماضي من انتشار هذه الآفة في الاسكندرية حتى لا تكاد تدخل بيتاً في أصيل أو عشاء الا رأيت أهله عاكفين حول مائدة أو موائد رجالاً ونساء وأولاداً وبين أيديهم الورق وقد أقطبت وجوههم وانقبضت نفوسهم واستولى عليهم السكوت — الا ما قد يقطعه من الفاظ اللعب أو احتكاك النقود . فاذا لم تكن من زمرة اللاعبين شعرت انك سامري بين اليهود . وقد اتفق لنا ذلك في عدة بيوت وأدهشنا خصوصاً ما رأيناه من عكوف السيدات عليه وفيهنَّ جماعة تتفقنَ في أرقى المدارس علماً وتقى وتربين في أسمى البيوت تهذيباً وأدباً وكنّ الى عهد غير بعيد يعتبرن القمار من الرذائل

(١) عن الهلال سنة ١٣ صفحة ٢١

المحرمة فاصبحن والقمار شغلهنّ الشاغل وواسطة عقد الاجتماع في منازلهنّ . وقد عاتبنا بعضهنّ فسقنَ لاضطرارهنّ الى ذلك بطبيعة المعيشة في الاسكندرية لان أهلها « لا يجتمعون في السهرات أو الزيارات الا للمقامرة ومن لا يقامر لا يزور ولا يزار » وانهنّ « رأينَ رجالهنّ يقضون الليالي في المقامرة خارج المنزل في القهوات أو نحوها فاذا لم يلعبنَ في بيوتهنّ قضين الليل في وحشة الانفراد » وهذا عذرٌ الذنب أخف منه أو هو فرار من الدلف الى تحت الميزاب . فبدلاً من ان تكون المرأة الفاضلة وسيلة لانقاذ زوجها من هوة المقامرة باستنباط الوسائل الباعثة له على حب السهر في بيته والبعد عن أماكن المقامرة والاشتغال بما يصرف ذهنه عنها من الالعاب البيتية أو الاحاديث الادبية او المطالعات المفيدة تساعده على الاستغراق في تلك العادة الذميمة بان تجعل بيتها ملعباً للقمار وتجعل نفسها قدوة سيئة لجيرانها ومثالا ضاراً لاولادها وأهلها . .

ولو سألت سيدات الاسكندرية عن سبب انغماسهن بالمقامرة لرأيت معظمهن ينتحلن نحو هذا السبب . وهو عذر يلتجىء اليه الضعيف عند ضياع الحجة ـ فان المقامرة في المنازل والعائلات تفشت في بيروت قبل الاسكندرية وسبب تفشيها هناك على ما نظن ان اهل الجيل الماضي من أغنياء بيروت لم يتعلموا في المدارس ولا كان عندهم من وسائل التسلية ما عند أهل هذا الجيل من اسباب المطالعة في الكتب او الجرائد او الخوض في المواضيع الادبية . وكانت الاموال عندهم كثيرة والارباح فاحشة فكانوا يخصصون مبالغ من اموالهم للمقامرة لا يمسون سواها من ممتلكاتهم فلم يكن عليهم خوف من الفقر . ولم يكن ثمة من ينتقدهم والوجاهة يومئذ والنفوذ وقيادة الهيئة الاجتماعية للاغنياء ولو كانوا جهلاء . فلما أنشئت المدارس وتفتحت العقول أصبحت الآداب الاجتماعية في قبضة أهل العلم والادب . ولكن اولاد الاغنياء شبوا على ما تعودوه في منازل آبائهم من اللعب وسرى منهم الى عشرائهم من اهل الطبقة الوسطى فتكاثرت العائلات المقامرة في بيروت وأهل الاسكندرية يندر فيهم ذلك يومئذ كما يندر في اهل القاهرة اليوم الا من انتقل اليها من بعض العائلات البيروتية او الافرنجية . حتى اذا كثرت المهاجرة في الاعوام الاخيرة تكاثر اللاعبون في الاسكندرية وسرى داء اللعب في معظم وجهائها واواسطها . ومع ذلك فاننا نعرف جماعة من اوجه وجهاء بيروت المقيمين في الاسكندرية لا يدخلون اداة من ادوات

اللعب الى منازلهم ولا يمسونها في ايديهم وهم لو لعبوا لا تضرهم الخسارة لفرط غناهم . ولا نرى اعتزالهم اللعب جعلهم في وحشة او انفراد . وذلك يدلك على ضعف حجة المعتذرين عن المقامرة بالتسلية لزعمهم انهم لا يرون طريقة لتمضية السهرات سواها

على ان وسائل التسلية كثيرة وخصوصاً في المدن الكبرى - أولها الاجتماعات الادبية والمباحثات في الحوادث الجارية من سياسية أو اجتماعية وفي ذلك تثقيف ولذة وفائدة . فاذا ملّ من الحديث فهناك العاب كثيرة تعرف بالعاب المنازل على سبيل الحزازير ونحوها قد يشترك في اللعبة الواحدة عشرة أو عشرون وفي بعضها فضلاً عن التسلية فائدة لتوسيع العقل بدون تعب كالالعاب المبنية على الاسئلة التاريخية او الادبية أو نحوها وكلها مشهورة بين العائلات . واذا وُجد في الجلسة واحدٌ يعرفها يكفي لقضاء السهرة بها . ولا نستحسن اللعب بشيء من الالعاب التي تشبه آلات المقامرة مهما كانت بسيطة لان لعب الورق البسيط أو لعبة شاكوش كومبانيا أو نحوهما كثيراً ما يكون سبيلاً الى المقامرة ونخصّا للاعبين أو لاولادهم على الاقل . فالاحسن البعد عن ادوات اللعب والفرار منها والاقتصار على ما تقدم من الالعاب المنزلية وهي كثيرة أو المباحثات أو المطارحات أو المذاكرات على قدر استعداد الحاضرين . ونعرف شباناً في القاهرة والاسكندرية أنفوا من سهرات الكسل والرخاء التي تذهب بالوقت سدًى فألفوا جمعيات بعضها ادبية وبعضها علمية . ومنها جمعيات تمثيلية أشبه شيء بالاجواق فبعضهم يؤلف الرواية والبعض الآخر يمثلها وكثيراً ما عادت هذه "الاعمال" بالنفع المادي على الاعضاء فضلاً عن النفع الادبي . فما يمنع أن تشترك السيدات ايضاً في مثل هذه الجمعيات أو ينشئنَ جمعيات لانفسهن يشتغلنَ فيها بما ينفعهنَّ وينفع الناس ويكفي أن يصرفنَ اذهانهن عن تلك الالعاب الجهنمية

نعم ان المقامرة من الالعاب الجهنمية لانها تذهب بصحة اللاعبين واموالهم وتفسد اخلاقهم وآدابهم . أما فساد الصحة فالسهر الطويل وحده يكفي لهدم اركان البدن فكيف بما يرافق ذلك السهر من القلق والاضطراب وخفقان القلب والخوف والجزع . فان المقامرين اذا اجتمعوا للعب انقسموا جماعات تحيط كل جماعة منهم بمائدة وبين أيديهم اوراق اللعب أو غيرها ودخان التبغ يكاد يحجب ألوانها عن ابصارهم واذا لم يحجبها الدخان حجبها الغيظ أو القلق فيقعدون والسكوت سائد عليهم وقد تقطبت أسرتهم وانقبضت نفوسهم وامتقعت ألوانهم واحمرت عيونهم إما نعاساً وإما غيظاً . ولو

لمست جباههم لسالت عرقاً أو قبضت على انامله لذابت برداً او انصت لحركات قلوبهم لسمعت لخفقانها دوياً وقد ينقضي الليل وهم لا يشعرون ولكنهم اذا اصبحوا شعروا بعواقب السهر وعاد ذلك عليهم بالضعف والتعب

اما ضياع الاموال بالمقامرة فلا نظن احداً يجادلنا فيه وان كان كل لاعب يرجو ان يكون هو الرابح وقد يربح احياناً . والحقيقة انهم جميعاً خاسرون وخصوصاً الذين يلعبون في (المقامر) اماكن اللعب العمومية اذ يكفيهم خسارة ما يربحه صاحب المقمر منهم من ثمن الورق وأجرة اللعب وهو شيء كثير يؤخذ من اموال اللاعبين . فاذا اكتسب صاحب المقمر عشرين جنيهاً في الليلة فقد اخذها من اموالهم فاذا لعبوا عدده مئة ليلة بلغ ما اخذه منهم ٢٠٠٠ جنيه فاذا كان عددهم عشرين نفساً لحق الواحد مئة جنيه وهي خسارة ظاهرة لا ريب فيها . غير ما يخسره اللاعبون في اللعب وكل منهم يقدر الربح لنفسه . واذا فرضنا توازن القوى وتعادل الربح والخسارة كان جميعهم خاسرين ما دفعوه لصاحب الملعب . وقد يزعم بعض قهارمة اللعب انه يلعب على خطة سليمة ولهم في ذلك حسابات وتقديرات يتوهم سامعها لاول وهلة انها من الحقيقة في شيء وهي وهمٌ . وكثيراً ما اخترع اللاعبون طرقاً (سيستيم) خصوصية للعب زعموا انهم سينالون بها ثروة طائلة فعادت عليهم بالخسارة . اشهرها ما يعبرون عنه بالمارتنغال او المدوفيه او البارولي وكلها لم تأت بفائدة . ناهيك بما يضيعه المقامر من المال هدراً واسرافاً اذا ربح لانه لا يعرف له قيمة . والخلاصة ان ضياع الاموال بالمقامرة من الامور المقررة بالمشاهدة

على اننا لا نعد تلك خسارة كبيرة بالنظر الى ما يتبعها من الخسائر الادبية والاخلاقية فان الذين يقضون ليلهم في ما تقدم من التحرق والتحاسد يخرجون من سهرتهم وقلوبهم تطفح حقداً وحسداً وغيظاً ولو كان اللاعبون من اقرب الاقربين . فاذا توالى فيهم ذلك تعودوا الطمع والحسد والبغض ولذلك يندر بين المقامرين لطف الخلق وسلامة النية وحب الانسانية . فكيف نعرض المرأة اللطيفة المعلمة المهذبة التي ستربي اولاد المستقبل وهي ام الامة ومربية المربين ومعلمة المعلمين — كيف نعرضها لهذا الخطر العظيم ؟

اما البورصة فعواقبها كعواقب القمار من حيث خسارة المال والصحة والاخلاق وربما فاقته من بعض الوجوه . فان المقامر يعرف خسارته أو ربحه حال فراغه من

اللعب فيذهب الى فراشه وهو عالم بحاله من الغنى أو الفقر . أما المضارب في البورصة فانه يقضي ليله وهو يتقلب والافكار تجاذبه بين اليأس والرجاء فيما عسى ان يكون من تلغرافات الغد . فاذا أصبح أسرع الى قاعة البورصة حيث يجتمع سائر المضاربين وهم يعدون بالمئات فيدأون بالمبايعات بضجيج وجدال واستهواء ثم ينتقلون الى الاحاديث ومهما تفننوا فيها أو تبادلوا من المواضيع فالافكار متجهة نحو الصعود أو النزول والخسارة أو الربح . فاذا دنا الظهر وحان ورود التلغرافات عن الاسعار انقطعت الاحاديث وساد السكوت واشتغل كل منهم بهواجسه وقلبه يخفق لما عساه ان يكون من خسارته أو ربحه . فاذا زرت بورصة الاسكندرية حوالي الظهر رأيتها غاصة بالمضاربين وقد غلب عليهم السكوت حتى لا تكاد ترى بينهم متكلماً . وانما ترى اكثرهم قعوداً على الكراسي وقد تشاغل بعضهم بملاعبة شاربيه أو لحيته وآخر بتحريك عصاه وآخر بهز قدمه أو اللعب بسبحته أو بمعالجة سيكارته بين أنامله مع الاغراق في التدخين حتى يعقد الدخان على رؤوسهم مظلة وهم مطرقون عابسون لا يلتفت أحدهم الى الآخر وانما يولون وجوههم الى طريق التلغراف أو الى اللوح الذي تعلق عليه التلغرافات . وقد يتأخر ورودها ساعات بعد الظهر فيندر من يسوغ له طعام أو شراب قبل الاطلاع على الاخبار

ولا تسل عن حالهم عند وصول ساعي التلغراف فانهم ينهضون كمن هبّ من رقاد وقلوبهم تخفق وأبصارهم شاخصة نحو اللوح المكتوب فاذا قرأوا الاخبار انقلب ذلك السكوت ضجيجاً وعلت الضوضاء وتلونت الوجوه وتنوعت التأثيرات بين فرح وغضب وقلق واضطراب تبعاً للخسارة أو الربح . فيخرجون أسراباً وأفراداً وفيهم الضاحك والمبتسم والمنقبض والعابس هذا يهرع الى العربة فيركبها وذاك لا تكاد رجلاه تحملانه لاضطرابهما من الغيظ وآخر لا تساعده قوائمه على النهوض لشدة الجزع وكثيراً ما سقط المضاربون مغمى عليهم في ساحة البورصة اذ يأتيهم الخبر بخسارة جسيمة بعد طول الانتظار وتوالي القلق والاضطراب فيغلب عليهم الضعف فيسقطون . ناهيك بما يسقط في تلك الساعة المهولة من الآمال وما يخرب من البيوت واكثر ما يكون ذلك في أواسط الناس وأما الاغنياء فيساعدهم غناهم على الصبر حتى تعود الاسعار الى الصعود فاذا لم تعد لا تهمهم الخسارة الا اذا تكررت فتخرب اكبر بيت من بيوتات الثروة ولو كان أساسه على أساطين الذهب أو كانت حجارته من

الالماس . فان المضاربة أقدر القوى على خراب البيوت العامرة وفضيحة العائلات المستورة وضياع الانفس العزيزة

والبورصة كالقمار من حيث خسارة الاموال وقد يتفق ان يلعب أحدهم مرة فيكسب مبلغاً كبيراً على سبيل الصدفة ثم يكف عن اللعب قطعياً وينصرف الى شغل آخر . فهذا رابح وان كان ربحه غير مشروع لكنه باق وأما الذين يجعلون المضاربة شغلهم فانهم خاسرون لا محالة ولو حسبت ما يدفعه احدهم الى السماسرة بتوالي الاعوام لرأيته يزيد على ما يرجو ان يكتسبه المضارب لنفسه بعد طول الانتظار

والمضاربون كالمقامرين يزعم كل منهم انه أعرف من سواه في أساليب المضاربة وانه يسير في لعبه على طريق سليم الربح فيه راجح على الخسارة . وهذا وهم باطل فان المضاربة خسارة فقط ولا يغرنك ما تراه من حوادث الربح فانها لا تتناول الا واحداً من مئة من المضاربين ثم تدور الدائرة على الرابح فيخسر وشواهد الحال اكبر دليل

وانما تمتاز البورصة عن القمار بان الخسارة تقع فيها على الفقير اكثر منها على الغني لعجز الفقير عن الصبر حتى يصعد السعر - فالقوي فيها يأكل الضعيف . ولكن الطمع يأكل كليهما . على ان الفقراء انما يحملهم على اللعب الطمع في الغنى السريع ينقادون الى ذلك بما يسمعونه عن بعض الذين يتفق لهم ربح فجائي فيمسون فقراء ويصبحون أغنياء فتتوق أنفسهم الى الاقتداء بهم ويتجاهلون عن مئات أصبحوا أغنياء وأمسوا فقراء

وجملة القول ان البورصة كالقمار يجدر بالعقلاء تجنبها وخصوصاً السيدات فانها تؤثر في أموالهن وابدانهن وأخلاقهن مثل تأثير القمار تماماً . ولسوء الحظ يغلب في المضارب ان يكون مقامراً فاذا ربح من هذه خسر في تلك . فهل في السيدات أيضاً من ترتكب هذه الفظائع جميعاً ؟ . . أرجو ان لا يصح ظننا في سيدات الاسكندرية . ولكن اذا لم يصح فيهن جميعاً صح في جماعة كبيرة منهن ممن يلعبن القمار ويضاربن بالبورصة . . فما قولك في عاقبة ذلك على العائلات وكيف يشب أولاد هذا الجيل - نترك ذلك لحكم القراء

القول والعمل(١)

اذا اراد الله بقوم سوءا اعطاهم الجدل ومنعهم العمل

(عمر)

كل من يأتي عملاً حسناً يميل طبعاً الى التنويه به التماساً لحسن الاحدوثة . لان الانسان مفطور على حب الشهرة فيلذ له أن يسمع ثناء الناس على أعماله والاعجاب باقتداره . وقد ينوه هو بعمله ليستدر الثناء من سامعيه . فاذا رأى الناس يثنون على أعماله من عند أنفسهم أمسك هو عن ذكرها والغالب في الناس أن لا يكلفوا رجل العمل أن يتكلم عن نفسه بل هم يذيعون فضله ويزدادون رغبة في اذاعته كلما رأوه ساكتاً عنه فاذا اكثر من تحدثه باعماله مالوا الى تنقيصها وان كانت جليلة

والغالب في رجال الاعمال أن ينقطعوا للعمل وأعمالهم تترجم عنهم . فمن لم ينل اعجاب الآخرين عمد الى مدح نفسه وتعظيم عمله فاذا لم يؤانس اصغاء أو تأميناً استجهل الناس ونسبهم الى غمط النعمة . واذا سمعهم يثنون على فاضل من ابناء مهنته بما يشف عن تفضيله أصبح همه تنقص ذلك الزميل فيشتغل بالطعن وذاك مشتغل بالعمل . واذا تدبرت احوال الناس ودرست اخلاقهم رأيت اكثرهم انتقاداً للاعمال أعجزهم عن الاتيان بمثلها كأن الناس رجلان قوّال وفعّال

التكلم في العمل

وقد لا يجد العاجز لنفسه عملاً يطريه ومع ذلك فهو يكلف الناس امتداحه فينتحل عملاً لم يعمله او يرجع الى الافتخار بالآباء واعمالهم . ولا يخلو أن يكون لابيه أو جده أو أحد من اهله عمل يستحق الذكر فيأخذ في اطرائه ويفتخر به . ولو عقل لاقتدى بذلك السلف وعمل مثل عمله . واذا لم يجد بين أسلافه من يفاخر بعمله فتش عن شيء يميزه عن سواه وان كان لا يهم الناس كجمال صحته أو رشاقة قده أو رخامة صوته أو فصاحة لسانه . وقد يتفاخر بما يأكله أو يلبسه وهو منتهى السخف والصغار . وكبير النفس يلتمس الشهرة من طريقها الحقيقي ــ يلتمسها بالعمل والجد واذا امتدحوه فوق استحقاقه خجل وازداد تواضعاً وواصل السعي حتى

(١) عن الهلال سنة ١٦ صفحة ٣٥١

يدرك مبلغ ظنهم فيه . وهو في كل حال يحرك يده ويعمل فكرته ويشغل وقته بالعمل

وأسعد الامم حالا أمة كثر فعّالوها وقلّ قوّالوها واذا نظرت في طبائع الامم بيوم رأيتها تتفاوت قولاً وفعلاً ورأيت اكثرها تصدراً في مصاف الدول العظمى اكثرها اعتماداً على الاعمال دون الاقوال ـ هذه دولة الانكليز والانكليزي لا يتكلم الا قليلا ولكنه يعمل كثيراً تجالسه فتراه هامداً بارداً اذا تكلم خفض صوته لا يرفعه ولو غضب ولا يهمه من اقوالك الا ما يترتب عليه العمل . فاذا علم أنه لا يخرج عن الكلام لا يهتز له ولو كان فيه سباب أو تقريع . ويمثل اقتصار الانكليز على العمل دون القول حادثة ذكروا أنها جرت لجندي من جيش الاحتلال ركب حماراً الى العباسية والسائق يعدو في أثره وهو يشتم حماره وراكبه اعتماداً منه على جهل الراكب اللغة العربية . فسمع شتمه رجلٌ يعرف اللسانين فاستوقف الراكب وأخبره أن الحمّار يشتمه فقال « وهل شتمه هذا يحول دون وصولي الى العباسية ؟ »

قال « لا »

قال « فما الذي يهمني من كلامه اذاً ؟ »

والانكليزي لا يفوق الفرنساوي ذكاء وحدة وربما كان دونه فيهما ولكنه يسبقه بالعمل فيعمل ويواصل العمل كما يقولون في اصطلاحهم « بطيئاً ولكن ثابتاً » والفرنساوي قد تسوقه حدة مزاجه الى مزاعم ووعود لا يقوى على القيام بها كلها فيظهر قوله اكثر من فعله . والشرقيون أقرب مزاجاً الى الفرنساويين وهم يقلدونهم بأخلاقهم وآدابهم فغلب القول عندنا على العمل فترانا اذا خطر لاحدنا مشروع سياسي أو علمي أو فني ضاق صدره عن كتمانه فيعمد الى التحدث به وربما أعلنه قبل أن يحقق اقتداره على القيام به فيذهب كلامه ضياعاً

وقد تكون علة الفشل بعد المشروع عن الامكان أو ان يكون من قبيل النظريات التي لا تطبيق على العمل كرأي بعضهم ونحن في هذه الازمة المالية وغلاء المساكن أن يعتصب السكان على أصحاب الاملاك حتى يخفضوا الاجور . وهو رأي جميل ولكنك لو أردت تطبيقه على العمل لما وجدت الى ذلك سبيلا لان الاعتصاب لا فائدة منه ان لم يكن مصحوباً بقوة يخافها المعتصب عليه على حياته أو على ماله كأن يهددوه بالقتل مثلا وهذا لا يفيد في حكومة منظمة أو أن يخلوا المساكن والمخازن لتبقى خالية لا يقتضي عليها أجرة فيتدارك هذه الخسارة باسترضاء المستأجرين بتخفيض

الاجرة . وكيف يمكن اجماع سكان بلد أو حي من احيائه على اخلاء مساكنهم وأين يسكنون . وقد نقع في هذه الخطأ لاننا نقلد الامم المتمدنة بأعمال لا تلائم أحوالنا فيجني علينا اجتهادنا . وفي الناس طائفة من الاذكياء ارباب الهمم ينقصهم تطبيق النظر على العمل اذا خطر لهم مشروع اكتفوا بتطبيقه على احكام العقل فيشيعونه في الملا ويسعون فيه فاذا ارادوا اخراجه الى حيز العمل ظهر لهم مستحيلاً أو قريباً من المستحيل . وذلك كثير في الناس وهو علة الفشل غالباً في مشروعات أهل الذكاء والنشاط لانهم يشيعونها قبل تطبيقها على العمل وانما يبعثهم على ذلك كونها حسنة بذاتها أو بالنظر الى احوال ليس لنا مثلها

وربما اكتفى بعضهم من لذة العمل بطنطنة الجرائد وحديث المادحين وقد يكون العمل بنفسه قابلاً للظهور لو اقتصر اصحابه على السعي فيه سراً وصبروا على الافتخار به حتى يتم . ولكنهم يضيعون حماسهم واندفاعهم بالقيل والقال . وكثيراً ما يثير الحسد ضغائن بعض الناس فيضعفون عزائمهم فيقضون اوقاتهم بالجدل بلا طائل كما اتفق لنا في كثير من مشروعاتنا مما لا يحتاج الى تفصيل ولو تكتمنا ودرسنا كل مشروع درساً كافياً ووضعنا أساسه على صخر ثم أخرجناه كاملاً لما خفنا فشلاً ومن الاحاديث المأثورة « استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان فان كل ذي نعمة محسود »

شهادة التاريخ

وفي التاريخ شواهد كثيرة تؤيد ما قلناه فلا تكاد تجد بين عظمائه عظيماً فاز بمشروع سياسي أو علمي أو اجتماعي الا كان الكتمان معتمده ولا تجد قوة الا استطاع عملاً عظيماً ولا سيما في السياسة ومن أهم شروط الدهاء فيها الكتمان . فرجال العمل منهم يتسترون في مساعيهم فيؤلفون الاحزاب ويدخرون الاموال ويبثون الدعاة سراً حتى اذا تحققوا نجاح أمرهم ظهروا وفازوا — كذلك فعل مؤسسو الدول وكبار القواد. وقد يتقارع العظيمان ويتساجلان فيغلب الكتوم — اعتبر ذلك بأعمال أبي مسلم الخراساني ناقل الملك من الامويين الى العباسيين فانه بث الدعوة العباسية تحت طي الخفاء في خراسان وفارس والامويون غافلون حتى انتبه لها عاملهم على خراسان نصر ابن سيار فكتب اليهم شعراً قال فيه :

ارى خلل الرماد وميض نار ويوشك ان يكون لها ضرامُ

فان لم يطفها عقلاء قوم يكون وقودها جثث وهامُ
فان النار بالعودين تذكو وان الحرب اولها الكلامُ

ولم يصدق الامويون قوله حتى كان ما كان من ذهاب دولتهم وابو مسلم ينسب فوزه الى التكتم . يدلك على ذلك قوله من قصيدة :

قد نلت بالحزم والكتمان ما عجزت عنه الملوك بنو مروان اذ حشدوا

ولم يفز المنصور عليه ويتمكن من قتله الا بالتكتم كما هو مشهور . وتوارث العباسيون ذلك حتى صارت الاسرار من قواعد سياستهم وشاعت الجاسوسية حتى في صدر دولتهم ولم يفوزوا الا بذلك . ولو تكتم جعفر البرمكي لم يبلغ الرشيد خبره ولو لم يتكتم الرشيد لعلم جعفر عزمه على قتله فتدارك أمره . واعتبر ذلك في سائر دهاة العرب وغيرهم . والعلويون انما غُلبوا في الدولتين الاموية والعباسية لانهم لم يتبعوا سياسة التكتم بل اقتدوا بجدهم علي بن أبي طالب وكان يرى التجسس صغاراً فيصرح بما يخطر له فيستعد أعداؤه لمناوأته . وقس على ذلك ساسة العالم قديماً وحديثاً . ومن أهم أسباب غلبة الالمان على الفرنساويين سنة ١٨٧٠ دهاء بسمارك وتجسسه وتكتمه والفرنساويون يجاهرون وينادون استخفافاً بعدوهم وهو يسعى سراً في استطلاع أسرارهم وسائر احوالهم

الكتاب والمخترعون

دع السياسة وانظر في سائر أعمال الناس فانها تفتقر الى العمل اكثر مما الى القول . فمن عزم على تأليف كتاب مثلاً إذا كان من اهل العمل اشتغل بدرسه وتأليفه ولا ينشر خبره حتى يتمه الا ما تقتضيه الحال من مشورة أو استعانة . فاذا رأى بعد الشروع به ان يعدل عنه لا تخجله الخيبة . على ان مجرد التحدث بالكتاب قبل اتمامه قد يدعو الى ايقافه . ولكن جرت عادة بعض الكتاب عندنا ان أحدهم اذا خطر له ان ينشيء جريدة أعلن عزمه وعين الاثمان وعدد الشروط واخذ في اطراء عمله فضلاً عن اطراء الجرائد له ويندر ان يكون مشروعه مبنياً على اساس متين لان الغالب في القوال ان لا يكون فعالاً . فاذا لم يصادف نجاحاً في صحيفته القى التبعة على القراء وطعن في جهلهم وعقوقهم وزعم انهم لا يقدرون الاعمال حق قدرها وهم براء من تلك التبعة — وان كنا لا تنكر جهل السواد الاعظم من العامة مثل شأنهم في كل أمة . ولكن الكاتب الذي وقف نفسه لافادة الناس يجب عليه اولاً ان يعرف

كيف يعلمهم فيكتب لهم ما يفيدهم ويشوقهم ويسهل فهمه عليهم – فاذا فعل ذلك استغنى عن اتهام الامة بالعقوق والجهل ولم يضطر الى الترفع عن خطابهم وحبس قلمه غضباً وانتقاماً

كثيراً ما نقرأ ان بعض كتابنا الافاضل وعلمائنا الاماثل امسكوا عن التأليف او التحرير لانهم يرون الامة جاهلة لا تدرك قدر العلم والعلماء وان احدهم اذا الف كتاباً أو نشر صحيفة لا يصادف اقبالاً ولا يلقى كسباً . ولا يخفى ان من واجبات الكاتب الحقيقي ان يعوّد الناس على المطالعة بطلاوة أسلوبه وحسن اختياره فيتطامن قليلا فيأخذ بيد العامي وينهضه اليه لا ان يجلس على كرسيه متشامخاً ويباعد ما بينه وبينه ثم يعنفه لانه لم يفهمه . وشكوى أولئك الكتاب لا تقتصر على الطعن بالقراء ولكنها تتناول كل كاتب راجت صحيفته أو كتبه لانهم يزعمون ان العامة لا يروج لديهم غير السفاسف والمواضيع التافهة . وهذا وهم اذ لا يعقل ان يكون سبب هذه النهضة اشتغال الكتاب بالسفاسف والقول الهراء وهذه صحفنا ترتقي وتتقدم نحو الكمال كل عام عما قبله ولا ينكر فضلها في خدمة الوطن وترقية نفوس الامة الا المكابر . أما تقاعد أولئك الكاتبين أو ترفعهم فسببه لا نقول قلة البضاعة اذ قد يكون بينهم علماء فطاحل وانما هو انهم لم يتعوّدوا العمل فلما أرادوا خدمة الامة لم يؤسسوا عملهم على قواعد عملية فاكتفوا بما يبدو من حسن مشروعهم لاول وهلة مما يسمعونه من اعجاب مريديهم ومتملقيهم وتوهموا ان صدور أول عدد من صحيفتهم كاف لاقبال الناس على الاشتراك من كل صوب فتنهال عليهم النقود انهيال الغيث . فلما صدرت نفثات اقلامهم لم يؤانسوا اقبالا سريعاً فتوقفوا عن العمل والقوا التبعة على القراء المساكين وطعنوا في الكتاب الآخرين واحتقروا ما يكتبونه وينشرونه وقالوا فيه ما قالوه . ولا يشمل هذا الحكم كل من رجع عن مشروع باشره اذ قد يكون لرجوع بعضهم أسباب قهرية لا سبيل الى دفعها

واعتبر ذلك في ارباب المهن والمخترعين وهؤلاء يشتغلون في معاملهم صامتين حتى اذا وُفق أحدهم الى اختراع أو اكتشاف أظهره واكتفى باظهاره اعلاناً واطراء فاذا كان عمله عظيماً قرظه الناس وخلده التاريخ واذا كان حقيراً لا يزيده اطراء صاحبه الا حقارة . وأما الذين كلما خطر لهم خاطر من اختراع أو رأي جديد تصدوا لنشره وبيان ما يرجى من نفعه فهؤلاء يغلب أن يؤوبوا بالفشل للاسباب التي قدمناها .

وكتمان الاسرار يدلُّ على جواهر الرجال . وكما أنه لا خير في آنية لا تمسك ما فيها فكذلك لا خير في انسان لا يمسك سرّه

ربوهم على العمل

فاذا تقرر أن الانسان يكون إما قوالا أو فعالا وجب علينا أن نربي أولادنا على « العمل » بالثبات والتؤدة حتى لا يطيشوا لاول خاطر يخطر لهم فتحرج صدورهم عن كتمانه قبل أن ينضج وتتهيأ له الاسباب فيقضون أعمارهم بالتحدث عما ينوون عمله من العظائم وما في امكانهم اتيانه من الاختراعات او المشروعات لو توفرت لهم الاسباب التي توفرت لسواهم وان هؤلاء لم ينجحوا الا لتعويلهم على النفاق او لتوفيقهم الى صدفة عمياء . ولو اشتغل أولئك بالصبر والثبات لنالوا ثمار اتعابهم على قدر قواهم ومواهبهم وكفوا الناس عواقب بطالتهم

الاحسان

دَينٌ على الانسان [1]

ليس من غرضنا البحث في الاحسان ووجوبه من حيث الدين فان الكلام في ذلك من قبيل تحصيل الحاصل . اذ ما من ديانة الا وهي تأمر بالاحسان وتفرض على الناس اعالة المساكين وتخفيف مصائب بني الانسان . والاحسان يشمل كل حسنة يأتيها المرء لابناء نوعه سواء كان ذلك بسد عوزهم او مداواة اسقامهم او تثقيف عقولهم او تخفيف احزانهم أو انقاذهم من ظلامة أو غير ذلك — فهذا كله تأمر به الاديان وتعد فاعليه ثواباً وهم يفعلونه التماساً للثواب أو تكفيراً عن ذنب . وقد أنشأوا لذلك المستشفيات والمدارس ودور العجزة ودور الضيافة وغيرها في كل العصور — وما منهم من يفعل ذلك الا وهو يحسبه تفضلاً يلتمس عليه أجراً — وعندنا انه واجب قد أُجر عليه سلفاً ودينٌ لا مناص له من أدائه فاذا لم يفعل ذلك فقد قصر بوفائه

خلق الناس لا كما شاؤا بل كما شاءت الاقدار أو كما اقتضت نواميس الطبيعة وفيهم الضعيف والقوي بدناً او عقلاً ممن يحمل القناطير الى من لا يقوى على حمل نفسه وفيهم من يحل المعضلات بمضاء عزيمته ويكشف الغوامض بنور بصيرته ومن لا يميز

(١) عن الهلال سنة ١١ صفحة ٤٤٣

خيره من شره . وما هم مخيرون في ذلك ولا ملومون لان شأن قصير البصيرة مثل شأن قصير البصر — فهل اذا ولد الانسان كفيفاً يلام لقصر نظره أو اذا ولد كسيحاً يؤاخذ على قعوده ؟ . فالمولود صغير العقل ضعيف الرأي لا يلام لتقصيره في ميدان الارتزاق. واذا فرض ان التربية تقويه وتعوض عن ذلك النقص فيه فهو غير مسأول عن تربية نفسه — وانما التبعة في ذلك على أهله وذويه . على ان الفقر كثيراً ما تكون علته من مجاري الطبيعة التي لا سبيل الى دفعها — وكذلك الذين يولدون أقوياء العقول والابدان وفيهم النشاط والهمة مما يخولهم كسب الاموال أو الارتقاء في المناصب أو غير ذلك من مطامع بني الانسان . فهؤلاء لا فضل لهم في كسبهم وارتقائهم للاسباب التي ذكرناها

ألا يكفي الفقراء ما بلوا به من الضعف الطبيعي أو معاكسة الطبيعة حتى تثقل كواهلهم بالتعنيف ونمسك عن الاخذ بيدهم في طريق هذه الحياة . فكما نعدُّ قيادة العميان في طريقهم فرضاً واجباً لا فضل لنا فيه فقيادة ضعفاء القوى العقلية فرض أوجب لان كفيف البصر قد لا ينقصه الا رؤية الطريق الى منزله وأما كفيف البصيرة فكل طرقه مظلمة . اذا رأيت كفيفاً يتلمس الطريق ويتعثر بالحجارة أو يلطم وجهه بالجدران فانك لا تتمالك عن ان تمد يدك لارشاده — وكم يكون غضبك لو سمعت أحداً يعنفه على تعثره وقصر بصره . أما اذا رأيت فقيراً يشكو ضيق ذات يده وهو صحيح البدن كامل الاعضاء فانك تنقم عليه وتكثر من تعنيفه ولا تقبل له عذراً لانه كامل السن تام الاعضاء . وقد يكون عذره أدعى الى القبول من عذر ذلك الاعمى لانه لم يعجز عن التكسب الا لضعف في قواه أو لمعاكسة الاحوال له أو للسببين جميعاً — وعمى البصيرة شرٌّ من عمى البصر

والناس أخوة وفيهم القوي الرابح والضعيف الخاسر وبين ذلك مراتب . فالضعيف يكفيه من نكبات الدهر عجزه عن التكسب وحسب القوي من النعم السابغة ان يكون عوناً لاخيه الضعيف . ومن الجهل ان يتيه الغني بغناه وهو اذا كان وارثاً فالفضل في جمع المال لابيه واذا كان قد اكتسبه بجده وسعيه وحسن نظره فالفضل لما خلق فيه من المواهب — وما هو موجدها ولا فضل له فيها . على ان الثروة كثيراً ما تكون علتها صدفة لا يقتضي اغتنامها بعد نظر ولا سداد رأي . فالفقير عالة على الغني ويكفي الفقير ذلاً ان يكون سائلاً والغني يكفيه فخراً ان يكون مسئولاً . اذ ما عسى ان تكون حيلة ذلك الغني لو انه ولد ضعيفاً أو تعيساً وكان هو العالة على أخيه

ومن العار الفاضح ان يكون بين بني الانسان أغنياء أرزاقهم واسعة وأموالهم طائلة حتى يعجزهم التصرف بها ولا يعرفون وسيلة لاستنفادها وبين أيديهم أناس اذا حصلوا على حكاكة تلك الاموال كانت فيها سعادتهم وبناء بيوتهم وتربية أولادهم — ما الذي يضر صاحب الالوف اذا بذل العشرات وصاحب مئات الالوف اذا بذل المئات — وبين أظهرنا مئات يزيد دخل أحدهم على عشرة آلاف جنيه في العام وفيهم من يزيد دخله على ذلك كثيراً فينفق معظمها في ما لا طائل تحته من أسباب البذخ والترف مما يسبب الامراض ويعجل الآجال — وهل من العدل أن يموت ذلك الغني من التخمة والفقير بجانبه يموت من الجوع . . .

فالغني مطالب باعانة الفقير طبعاً بلا منة ولا فضل . ناهيك بالاوامر الدينية والشرائع الالهية والنظامات المدنية فانها مجمعة على ذلك أيضاً فضلاً عما يجده المحسن من اللذة في انتشال أبناء نوعه من وهدة الفقر أو من هوة الجهل أو انقاذهم من الامراض أو تخفيف احزانهم ومصائبهم . فان في مثل هذا الشعور لذة عظمى — اذا كان المحسن من اهل الشعور الانساني والا فيكفيه ما يناله من الشهرة البعيدة وحسن الاحدوثة وما من طبيعة بشرية الا وتطلب المدح وترتاح اليه وما في ذلك عار ولا نقيصة . واذا لم يكن المدح يهمه وكان من أهل الدين فيكفيه ما يرجوه من الثواب العظيم — واذا لم يكن يهمه هذا ولا ذاك فما هو من بني الانسان

اذا تقرر ذلك بقي علينا النظر في سبل الاحسان . وقد جرت عادة أهل البر في بلادنا اذا هموا باحسان ان يجعلوا وجهته غالباً تخفيف الآلام ومعالجة الامراض أو سد عوز الجائعين أو تسهيل أسباب العبادة بانشاء المستشفيات ودور العجزة والتكيات والمعابد ونحوها — وهو برٌّ يشكرون عليه . ولكننا نرى البر من طريق التعليم اكبر فائدة وأغزر نتاجاً . لانك ترى في شوارع القاهرة والاسكندرية مثلاً وفي غيرها من مدن مصر والشام غلماناً صحاح الابدان يطوفون الشوارع يلتقطون أعقاب السجاير أو فتات الموائد أو يجمعون فضلات الناس والبهايم — تراهم تارة بين قوائم الخيل وطوراً بين عجلات المركبات أو عند ابواب الملاهي يتوسد بعضهم الرصيف والبعض الآخر الحائط يتعرضون للحر والبرد والجوع والعطش وسائر مسببات الامراض ناهيك بما تقودهم اليه تلك البيئة من أسباب الرذائل والفحشاء . ولا يمر بهم أحد الا توهمهم من أقذار المدينة وعافت نفسه النظر اليهم — ومع ذلك فان هؤلاء — حتى

هؤلاء ـ اذا بذلت العناية في تعليمهم خرج من بينهم رجال يخدمون بلادهم وأمتهم خدمة ذات بال . فضلاً عما لا ريب فيه من تحسين أحوالهم وتخفيف أثقالهم عن الهيئة الاجتماعية

فنوجه التفات المحسنين الى المدارس فاننا في حاجة اليها اكثر كثيراً من حاجتنا الى المستشفيات أو بيوت العبادة لان الانسان اذا مرض ولم يكن في بلده مستشفى لا يعدم وسيلة للمعالجة واذا أراد الصلاة وكان المعبد بعيداً صلى في منزله أو على الطريق او في أي مكان كان . وأما التربية والتعليم فلا تكونان الا في منازل تشاد لهذه الغاية يتردد اليها الاحداث أعواماً عديدة يتلقون العلم والادب ويكتسبون الفضائل على أساتذة قضوا العمر في اتقان فني التعليم والتربية ـ وهي المدارس ـ على ان الفائدة التي نرجوها من المستشفيات ونحوها انما هي قصيرة ووقتية قد لا تجاوز المحسن اليه أما المدارس فقد تخرج رجالاً ينهضون ببلادهم وأمتهم من الحضيض الى الاوج

عيشة الوجهاء في مصر

وتجافيهم عن الرياضة البدنية (١)

الثروة تساعد صاحبها على التمتع بأسباب التنعم ويحق للغني ان يتمتع بثروته وينفقها في سبيل راحته بل يجب عليه ذلك لينصرف بعض ماله الى سواه ممن هم في حاجة اليه . والغني المتقشف مكروه الا أن يعوض عن ذلك بالانفاق على المشروعات العمومية وهذا نادر . والاغلب في اهل الثروة ان يتمتعوا بثروتهم بالانفاق على أنفسهم وهذا حق لهم لا نجادلهم فيه . ولا نريد الخوض في ما ينفقون وكيف ينفقون وانما نحصر الكلام في تنبيههم الى خطأ نخشى عليهم من عواقبه . نعني مبالغتهم في التنعم من حيث الراحة الجسدية بحيث لا يعملون عملاً يفتقر الى اجهاد بدني تتحرك فيه عضلاتهم لتقذف ما في الدم من المواد الدائرة المجتمعة فيه

ان الرياضة البدنية من ضروريات الصحة وقد عول عليها المتمدنون في مدارسهم ومنازلهم ومنتدياتهم . ولم يفعلوا ذلك الا بعد أن تحققوا نفعها وكثيراً ما ذكرنا ذلك في الهلال وحرضنا قومنا على مزاولة هذه الرياضة وبينا فوائدها .

(١) عن الهلال سنة ٢٢ صفحة ٣٦٠

ونريد الآن أن نوجه كلامنا خصوصاً الى « الذوات » وأهل الثروة وهم أحوج اليه من الفقراء والصناع . لان هؤلاء قد يضطرهم الفقر الى الرياضة من مشي أو ركض أو حمل أو جهاد عضلي يدوي أو غير ذلك مما يساعد على قذف الفضلات الفاسدة . وأما الاغنياء فقلما يحركون أعضاءهم باجهاد . وقبل التقدم الى الموضوع نبين فائدة الرياضة البدنية وعملها الفيسيولوجي

فائدة الرياضة البدنية في اعمال الحياة

تقوم أهم اعمال الحياة بالهضم والتنفس والدورة الدموية وبها يتم تجديد الانسجة . وقد يتبادر الى الذهن أن الهضم اذا كان صحيحاً تكفل بالتغذية . وهذا وهمٌ لان الهضم وحده لا يكفي لتجديد الانسجة ولا بد من حمل الدم الى اطراف الجسد بالدورة الدموية بعد تطهيره بالتنفس مما يخالطه من المواد المندثرة بالعمل الحيوي . وهذه المواد سامة اذا ظلت في الدم أفسدت التغذية وأضعفت القوى الحيوية

فلا يتم تجديد الانسجة على الوجه الصحي الا بهذه الاعمال الثلاثة : الهضم والدورة والتنفس ولا بد من الموازنة بينها . فاذا كثر الغذاء وضعفت الدورة أو ابطأ التنفس اختلت الموازنة . فالذين يأكلون كثيراً يحتاجون الى تنفس نشيط ودورة صحيحة اكثر مما يحتاج اليه المتقشفون . وافضل الوسائل المساعدة على ذلك الرياضة البدنية لانها تتم بالانقباض العضلي . ولهذا الانقباض أهمية كبرى في تجديد الانسجة . وبيان ذلك ان الدم يحمل من القلب بالشرايين طاهراً نقياً الى جميع اطراف الجسد . ثم يعود الى القلب بالاوردة وفيه ما اندثر أو مات من الانسجة . ويتم هذا التبادل بين الاوردة والشرايين في الاوعية الشعرية وهي انابيب دقيقة جداً تتخلل أنسجة الجسد من العضل والدهن والعصب والجلد وغيرها . فتؤلف هناك شباكاً دقيقة كشباك الصيد وفي أخلية تلك الشباك تستقر حويصلات تلك الانسجة . فاذا كان النسيج عضلاً كانت الالياف العضلية مستقرة في خلايا الشباك الشعرية من العضل

وسرعة الدورة الدموية تتوقف على قوة انقباض القلب . فاذا كان القلب نشيطاً وانقباضه قوياً كان الدم سريعاً في جريه . واذا ضعف القلب ابطأت حركة الدورة . وسرعة جري الدم في الاوعية الدموية تختلف بحسب موضعه فهو على أشد سرعته قرب القلب ثم يبطىء بالتدريج . ويؤخذ من تجارب علماء الفيسيولوجيا أن الدم يسير في الشرايين الكبيرة قرب القلب نحو ١٢ قيراطاً في الثانية فاذا بلغ الى القدمين

صارت سرعته نحو قيراطين وربع فقط . وفي الاوعية الشعرية أبطأ من ذلك كثيراً

ولبطء الدورة اذا بعدت عن القلب أسبابٌ منها : ١ انصراف جانب من القوة الدافعة باحتكاك الدم بجدران الشرايين ٢ أن تفرع الشرايين يجعل مجموع مساحتها في سائر اجزاء الجسد اكثر من مساحة الشرايين الكبرى بجوار القلب . فتتوزع القوة على تلك المساحة الكبيرة فتبطىء الحركة ــ كما يحدث في سرعة ماء النهر اذا اتسع مجراه أو تفرقت مياهه في ترع مساحة سطوحها اكبر من مساحة سطح النهر الاصلي

ويظهر هذا الفرق خاصة في الاوعية الشعرية لان مساحتها أعظم كثيراً من مساحة الشرايين المتفرعة هي منها . وفي بطء الدورة في تلك الاوعية حكمة لان عليها يتوقف تجديد الانسجة بما يحصل بينها وبين الحويصلات التي تتخللها من التبادل

ولكن هذا البطء قد يسبب ركود بعض المواد الفاسدة النافذة الى تلك الاوعية من الانسجة المجاورة لها . فتتراكم بتوالي الايام وتفسد التغذية . وقد شاهدوا بالميكروسكوب أن الدم الشرياني اذا وصل الى الاوعية الشعرية ظل القسم المركزي منه جارياً والتصق الجزء المحيط منه بجدار الوعاء وظل ملاصقاً للجدار . ويسمونه الطبقة الراكدة وبها تتم التغذية بالتبادل . فيخشى اذا طال مكثها بما يجتمع اليها من الفضلات المدثرة أن تفسد . ومن الطرق المساعدة على ملافاة ذلك هصر تلك الاوعية بالعمل العضلي

ومعنى ذلك ان العضل يكون الجزء الاكبر من أنسجة الجسد اللينة . واليه تنتهي اكثر الشرايين وفيه تتكوّن اكثر الشباك الشعرية . فاذا انقبضت اليافه هصرت ما يتخللها من الاوعية الشعرية فتساعد على حركة الدورة وتدفع المواد المتجمعة في تلك الاوعية الى الاوردة ومنها الى الرئتين لتتطهر . فضلاً عن البقايا الفاسدة التي تخرج من الجلد سائلاً كالعرق أو بخاراً كالحامض الكربونيك وبخار الماء أو تتصرف في طرق أخرى

وجملة القول أن طبيعة الحياة تستلزم الرياضة البدنية كما تستلزم التغذية . والرياضة لازمة للتنفس والدورة في سبيل تطهير الدم . والتغذية بلا رياضة لا يكون عملها تاماً واذا قلّت الرياضة يجب أن يقلّ مقدار الاغذية لئلا تكثر الفضلات المدثرة ويفسد الدم

عيشة الوجهاء

فذا عرفنا ذلك عرفنا ما في عيشة الوجهاء و « الذوات » في مصر من الخطر على حياتهم . لانهم يكثرون من الاغذية ويقللون من الحركة البدنية فيتضاعف الضرر من تراكم الفضلات في الدم . ولسوء الحظ أن ذلك الضرر لا يظهر لصاحبه الا بعد فوات الفرصة ـ اذ يغتر المترفون بامتلاء ابدانهم واشراق وجوههم والتفاف معاصمهم وبريق عيونهم . وقد يكون وراء ذلك قلبٌ ضعيف أو كبد محتقنة أو كليتان متعبتان . ولا يظهر الضعف في هذه الاعضاء الرئيسية الا بالفحص الطبي أو عند الاجهاد العضلي من ركض أو وثب أو الصعود على جبل أو سلم . فيظهر ذلك الضعف بضيق النفس وسرعة النبض أو غير ذلك . والذوات الذين نعنيهم لا يتكلفون المشي على الاقدام وانما ينتقلون بالمركبات أو الاوتوموبيل من منازلهم الى دوائرهم أو مكاتبهم أو نظاراتهم . واذا خرجوا للنزهة ففي المركبات ايضاً . ويعودون الى منازلهم بها

هل رأيت وجيهاً مترفاً يمشي في حديقة أو منتزه أو يلعب في نادٍ من أندية الالعاب الرياضية ؟ كأنهم يعدون المشي من شؤون الفقراء وصغار الموظفين أما كبار القوم والرؤساء وأهل الثروة فليس للارض حظ من أخمص أقدامهم . أو لعلهم يرون الاعمال العضلية على اجمالها من أدلة الضعة فيستنكفون من أن يتحركوا حتى في لبس أثوابهم . فالغني المترف يكلف خادماً يأتيه بالثياب ويساعده على لبسها قطعة قطعة لئلا يضطر أن ينحني الى الامام والانحناء متعب لا سيما للسمان . فيعهد الى الخادم أن يلبسه نعاله ويزررها له ويساعده على تزرير قميصه وربط ياقته الخ . والاصل في الاستعانة بالخدم في اللبس الاقتصاد في الوقت ولا بأس من ذلك عند الحاجة الى السرعة ولكنه معدود الان من وسائل الترف وشارات الوجاهة . وكذلك ركوب المركبات فانه يقتصد في الوقت ولا بأس به . لكننا نستحث اصحابه على تخصيص وقت للرياضة البدنية .

ولم نكن لننكر هذا الرخاء لولا ما ينجم عنه من الضرر . وان هذا الضرر لا يظهر الا بعد فوات الفرصة . على انا نرى الوجهاء في البلاد المتمدنة ـ وهم أشد منا محافظة على الوقت ـ ينزل أحدهم من القطار الحديدي وحقيبته في يده يسير بها ماشياً الى منزله اذا كان قريباً . وقد ترى الغني صاحب الملايين او الامير او الوزير او الرئيس يمشي في الشوارع مهرولاً كسائر آحاد الناس ـ لا يرى في ذلك حطة .

غير ما يقضيه القوم من الاوقات في الرياضة البدنية بالحدائق او الاندية لا يرون في ذلك تفريطاً لانه لازم للحياة . هل رأيت ناظراً او مديراً او غنياً او وجيهاً عندنا يفعل ذلك ؟

قلدنا الافرنج في كثير من اسباب المدنية الحديثة وأخذنا عنهم الاوتوموبيل وغيره من اسباب الراحة وتفننا في الاطعمة المغذية من اطعمتهم مع كثرة ألوانها واشكالها . ولم نأخذ عنهم ما هو تابع لهذه المعيشة من الالعاب الرياضية لقذف ما يجتمع من الفضلات الفاسدة . أكثرنا من الغذاء وقللنا من الرياضة فآل ذلك الى ضخامة البدن بما تراكم تحت الجلد من الطبقات الدهنية لقلة الحركة . وليس السمن دليل الصحة دائماً واذا زاد كان دليلا على المرض . واقل اضراره انه يتعب القلب في توريد الدم الى الانسجة . وليست الصحة في السمن وانما هي في سلامة الاعضاء الرئيسية — ومن اسمن جسمه فقد اتعب قلبه وكبده وكليته . واذا كان نهماً أتعب معدته وأمعاءه . وقد يتناول طعاماً يسهل هضمه في المعدة لكنه يثقل على الكلى لكثرة ما فيه من المواد اللحمية

والانسان يحتاج في غذائه الى جزء صغير مما يتناوله عادة فما زاد عن حاجته أصبح عبئاً ثقيلا على امعائه وكليتيه وكبده يمكن تخفيفه بالرياضة البدنيـة . والا فان تلك الاعضاء لا تزال تئن تحت تلك الاثقال وهي ساكتة مستسلمة تستغيث ولا يصغى اليها . واذا سمع صوتها أحياناً فلا يجاب طلبها لكنهم يلهونها عن طلبها بعقار منبه أو مسكن أو مخدر حسب الحالة فتسكت وقد كظمت . ولا تزال صابرة كاظمة حتى تذهب ضحية نهم صاحبها ويذهب هو أيضاً معها . وقد يكون سبب الوفاة حسب الظاهر انفلونزا او نزلة بسيطة فيستغرب أصدقاؤه موته وهم يعرفونه غض الشباب مشرق الوجه سمين البدن . وقد يموت فجاءة في لحظة بلا مرض فيخاف الناس كثرة الوفيات الفجائية أو بعلل بسيطة وربما اتهموا الطبيب بالاهمال . والحقيقة ان سبب الوفاة علة قديمة تأصلت بتوالي الاهمال في سنين عديدة وهي تنخر في احد الاعضاء الرئيسية ولم تظهر الا عند فوات الفرصة

وأكثر هذه العلل من ثمار هذه المدنية وسببها كثرة الغذاء وقلة الرياضة . وقد يعترض بان الالعاب الرياضية التي نشير اليها اكثرها من مستحدثات هذه المدنية . ولم يكن أسلافنا أقل نهماً منا في الطعام فكيف كانوا يعمرون ؟ فنجيب على ذلك ان

أولئك الاسلاف كان لهم العاب خاصة بهم تقوم مقام العاب هذه الايام وربما كانت أفضل منها . اهمها العاب الفروسية . ومهما بلغ من ترف الوجهاء والامراء في تلك الايام فالفروسية كانت تعوض عن الرخاء وتقوم مقام الرياضة البدنية . ومن كان لا يميل الى تلك الالعاب فالانتقال وحده رياضة لانهم كانوا ينتقلون مشاة او على الافراس او البغال او الحمير وركوبها رياضة حسنة بخلاف ركوب المركبات ـ الا البيسكل فان في ركوبه رياضة . ولكن من يركبه من الوجهاء والذوات ؟

فنتقدم الى وجهائنا أن يوجهوا عنايتهم الى الرياضة البدنية . ومهما زعموا من ضيق وقتهم وكثرة شواغلهم فلا نظنها تزيد على شواغل رجل مثل اللورد كرومر فضلاً عن شيخوخته . فقد عرفناه يخصص للرياضة البدنية قسماً من وقته ويعد ذلك واجباً مثل سائر واجباته السياسية أو الادارية . فكما كان يعين قبل الظهر للمقابلات والمعاملات كان يخصص العصر للعب . وكثيراً ما شاهدناه في حديقة الجزيرة مشمراً عن ساقيه حاسراً عن زنديه يلاعب الكرة بشبكته يثب يميناً وشمالاً كأنه في ريعان الشباب . لا يرى في ذلك عيباً ولا تفريطاً بل هو يعتقد أنه ضروري لاشغاله السياسية اذ يزيد حركة الدورة ويطهر الدم وتصح التغذية فيصفو الذهن وينشط العقل للاعمال . وهذا شأن كل انكليزي حيثما كان ـ ولا نظن الانكليز غلبوا العالم الا بهذه الالعاب

فماذا يمنع وجهاءنا من انشاء اندية لهذه الالعاب أو نحوها . وقد يكفي الرجوع الى رياضة الاسلاف نعني الخروج الى البساتين على ظهور الخيل أو غيرها من الدواب . وقد يكفي المشي على الاقدام في المتنزهات . وهذا سهل وانما تجب المواظبة عليه بان يجعله طالب الرياضة فرضاً لازماً في وقت معين من اليوم . وكما يذهب الى الديوان كل يوم في الساعة التاسعة مثلاً ولا يرى مندوحة عن ذلك فليجعل الخروج للنزهة في ساعة معينة كالواجب الذي لا بد منه واذا تعوده أصبح لا يرى راحة الا به

حقيقة الانسان

وراء ثلاثة استار [1]

من الامثال الشائعة « قلوب الرجال صناديق مقفلة مفاتيحها التجارب » ويريدون بقلب الرجل ضميره أو حقيقته وهي أصله المشتمل عليه . ومعرفة حقيقة الرجل من الامور الهامة لاضطرار الناس الى المعاملة والمعاشرة . فاذا عرفت حقيقة عميلك أو عشيرك أمنت الخطر منه . واهتم كثيرون من أهل الملاحظة والفهم بوضع القوانين لدلالة ظواهر الناس على بواطنهم فلم يبلغوا ما ارادوه الا قليلاً مما ثبت في علم الفراسة كدلالة العيون أو التقاطيع على الاخلاق والمواهب ـ حتى هذه فانها غير مضطردة في دلالاتها نظراً لكثرة ما يعتورها من الطوارئ التي تبعد بين الظواهر والبواطن كما بيناه في كتابنا علم الفراسة الحديث

فحقيقة الانسان لا تزال من الغوامض التي لا يستطاع كشفها الا بالمعاشرة الطويلة فتظهر كما هي تقريباً فيعرف الصادق من الكاذب والامين من الخائن . فيختار الانسان اصدقاءه وعملاءه ولكن بعد فوات الفرصة وضياع العمر . واكثر الناس يؤخذون بالظواهر وهي تخالف البواطن غالباً وخصوصاً في الامم التي الفت المجاملة وتعودت التملق والاحتيال . وهذا هو السبب في تكاثر الشرور . واذا أمعنت النظر في احوال الناس رأيت للانسان ثلاثة مظاهر متوارية وراء ثلاثة استار يتدرج الباحث الى استطلاع حقيقته بازاحة ستر بعد ستر فيبدو له مظهر بعد مظهر والثالث أقربها الى الحقيقة

وهي تبدأ بما يبدو من ظواهر الانسان عند أول مقابلة وهو المظهر الاول . تتلوه المحادثة والمعاشرة السطحية وهو المظهر الثاني . واخيراً ما يظهر من الانسان بعد المعاشرة الطويلة والمعاملة بالاخذ والعطاء وهو حقيقته أو الاقرب الى الحقيقة على الاقل

المظهر الاول من مظاهر الانسان

اذا لقيت انساناً لا تعرفه فأول ما يبدو لك منه ظواهره الخارجية من القامة والملامح واللون واللباس فكأنك عند اول رؤيته قد ازحت الستار الاول عن حقيقته .

---

(١) عن الهلال سنة ٨ صفحة ٢٧١

وقد تدل ظواهره على بواطنه فتصل الى الحقيقة من المظهر الاول وهذا نادر ومع ذلك فان كثيرين من الناس يعولون في احكامهم على ما يبدو لهم من النظرة الاولى . فكأنهم حكموا على مجهول مختبىء وراء سترين. وقد تصح فراستهم فيفلحون أو تخطىء فينالون ثمرة تعجلهم ولات ساعة مندم

كم من شاب يقع نظره على فتاة فيفتتن بجمالها ويأخذ بظواهرها فيعجبه قوامها واحتشامها ورخامة صوتها وغير ذلك من المظاهر الجميلة فتقع من نفسه موقعاً حسناً وهو لم يزح عن حقيقتها الا الستار الاول ولم يصبر على ازاحة السترين الباقيين . ولعله لو فعل لخاطبها وعاملها وعاشرها لتغير رأيه فيها . وقد يقع للفتاة مثل ذلك في الرجل فيتصدى لخطبتها شاب جميل الصورة رشيق القامة في وجهه مهابة وحول فمه ابتسامة وفي عينيه ذكاء وقد اتقن هندامه بحيث لا يفرق شيئاً عن افاضل الرجال واذا خوطب تلطف وتواضع وتصنع . وقد يظهر بعد كشف السترين الآخرين غير ما هو

دع الزواج بالظواهر فان للحب عملاً كبيراً فيه وعين الحب عمياء ترى في محبوبها كل الكمالات وانظر الى سائر المعاملات فانك تجد المظهر الاول تأثيراً في اكثرها وخصوصاً بين العامة مما لا يزال باقياً من عوامل التمدن القديم يوم كان الناس يؤخذون بالظواهر . ولا تزال العامة الى الآن يؤخذون بها فينظرون في اختيار رئيسهم أو معلمهم أو حاكمهم الى كبر هامته وبهاء طلعته ورخامة صوته او جهوريته . وكم سمعنا من العامة من يمدح قسيسه او مطرانه بقوله انه جميل الخلقة له يد تليق بالتقبيل لبضاضتها وبياضها وان صوته رخيم يطرب السامعين . وقلّ منهم من يثني على ذلك الرئيس لسعة علمه او سداد رأيه . وكم كنت تجد ولا تزال تجد الى الآن بين أولئك الرؤساء من لم يكن له ما يبعث على تقديمه غير شكله الظاهر واذا خبرته وجدته فارغاً — حتى العقلاء الذين ينقدون الرجال فان المظاهر الخارجية تؤثر فيهم وتعدل في حكمهم على اصحاب تلك المظاهر . فما قولك بالعامة البسطاء ولا يخفى عليك ما قد ينجم عن ذلك من الخطر

وللانسان مظاهر معنوية غير الهندام والجمال نعني ما يتحلى به بعض الاغنياء أو الوجهاء من الشهرة . فاذا لقيت احد المشاهير سبق الى ذهنك احترامه لانك كنت تحترمه بالسمع قبل ان تراه . فلا تزال تعتقد فضله حتى ينحسر عنه الستاران الثاني والثالث فتظهر لك حقيقته وقد تكون اقل كثيراً مما تظن . ويظهر تأثير الشهرة من

هذا القبيل اذا عرضت عليك قصيدة قيل لك انها من نظم المتنبي او ابي تمام مثلاً فانك تجد فيها حسنات لم تكن لتراها لو عرفت انها من نظم بعض عامة الناس وبعكس ذلك لو قرأت قصيدة لابلغ الشعراء وانت تظنها لاحد العامة فانك تجد فيها من اماكن الضعف اكثر مما لو عرفت ناظمها . وقس على ذلك سائر ما يتمشى عليه من الشهرة في الانشاء أو العلم أو الشجاعة أو الدهاء فان المشهورين بشيء من ذلك تقوم شهرتهم لاول وهلة مقام المظهر الاول من اللباس أو الجمال أو نحوهما . وكما تكشف حقيقة اولئك بعد كشف الستر الثاني أو الثالث تكشف حقيقة هؤلاء متى واليت الوقوف على ما ينظمونه أو يكتبونه

المظهر الثاني من مظاهر الانسان

قال الامام علي « تكلموا تعرفوا أن المرء مخبوء تحت لسانه » فاذا لقيت انساناً حسن البزة جميل الصورة لطيف الهندام رشيق الحركة يقع من نفسك موقعاً جميلاً ولا يزال كذلك حتى يرفع عنه الستار الثاني بالكلام ونعني به الخوض في المواضيع العمومية أو الابحاث الاجتماعية أو السياسية أو غيرها مما يفتقر الى ذكاء أو معرفة . فعند ذلك إما أن يرتفع الرجل في عينيك أو ينحط أو يبقى في مكانه . غير ان المنزلة التي ينالها بعد ازاحة هذا الستار لا يتغير سواء اذا كان رث الهيأة قبيح الخلقة ولو ساواه بالذكاء والفصاحة والمعرفة . لان الجمال مزية تضاف الى حسنات الرجل ويزيدها كما تزيد شهرة الكاتب في استحسان كتابته

فالمظهر الثاني من الرجل أو المرأة يكون بعد المحادثة والمعاشرة وهما تظهران كثيراً من سرائر الانسان ولكنهما لا تكشفان عن حقيقته . واكثر الناس يكتفون في احكامهم على الرجل او المرأة مما يبدو لهم في هذا المظهر بعد كشف الستر الثاني . وكثيراً ما يخطئون لان المحادثة والمعاشرة دون المعاملة الداخلية يعدان من جملة الظواهر الخارجية . لان في بعض الناس قوة عظيمة على التظاهر بخلاف ما هم فيه من الطبائع ولا يستطاع كشف حقيقتهم الا بعد الاختبار الطويل . ولكن الغالب في الناس أن يبنوا احكامهم في معاملاتهم على هذين المظهرين . فاذا رأت الفتاة شاباً جميلاً حسن البزة وعلمت بالمعاشرة والمحادثة انه لطيف المعشر واسع الاطلاع وقد اتقن آداب المعاشرة ثم طلب يدها فلا ترده ولا يرده ابواها الا الذين يدققون في البحث عن دخائل الرجل بازاحة الستار الثالث . وقس على ذلك حكم الشاب على

الفتاة في مثل هذه الاحوال . على ان الفتاة يعدون من حسناتها انها لا تتكلم الا قليلاً وقد يكون سكوتها من الحشمة والحياء او من العجز والجهل ولا يعرف ذلك الا بالاختبار

على أن السكوت يستر كثيراً من نقائص الرجل ويغنيه عن كثير من الاخطار ولذلك قالوا في امثالهم « السكوت من ذهب » فاذا لقيت رجلاً من اهل الوجاهة في مجتمع دارت فيه الاحاديث على مواضيع لا معرفة له بها فسكوته يبعث على توهم المعرفة فيه . وخصوصاً اذا اتقن التظاهر بفهم ما يدور وانه انما سكت تعففاً لا عجزاً . واذا كان في وجهه شيء من ملامح الهيبة والجلال والعظمة فعند ذلك يغلب على اعتقاد الحضور ان الرجل انما سكت ليترك مجالاً لسواه في البحث

المظهر الثالث

وهو حقيقة الرجل تظهر بعد ازاحة الستر الثالث بالمعاملة والمعاشرة الطويلة اذ يظهر مقدار معرفته وحقيقة اخلاقه . ولا يكشف عن تلك الحقائق في الرجال مثل الاخذ والعطاء بالبيع والشراء فيظهر صدق الرجل او كذبه وأمانته او خيانته ويقول لاعبو الورق (المقامرون) ان اللعب يكشف عن هذه الحقيقة باجلى بيان . واما سائر الاخلاق فتتكفل بكشفها العشرة العائلية . واما الاقتدار العقلي فيبدو بالمعاملات العمومية وحل المسائل المعضلة . فتظهر طباع الرجل في معاشرة والديه او اخوته او زوجته فينكشف عن جوهره اذا كان حاد الطبع او واسع الصدر او ضيق العقل او سهل الخلق او كريم النفس او خسيسها او غير ذلك من الخلال التي لا تظهر بغير الاحتكاك الطويل .لان من الناس من تضرب الامثال بلطف عشرته ودماثة اخلاقه بين اصدقائه وهو عكس ذلك في منزله مع اهله . وقد يكون فظاً خشناً مع الناس لطيفاً وديعاً مع اهله . وانما حقيقته تظهر في منزله ويغلب أن يكون لما يبدو خلاف ذلك للناس اسباب طارئة

فالمظهر الثالث يراه الناس بعد ازاحة الستار الثالث فيظهر قدس الاقداس وعليه المعول في أعمال الناس . وخصوصاً في المناصب الهامة أو الاعمال الكبرى فان المظهرين الاولين لا تأثير لهما ولا سيما في هذا العصر عصر الحقائق . فلا الجمال ولا حسن البزة ولا زخرف الكلام أو لطف العشرة تساعد الانسان على نيل منصب سامي أو اداري او علمي وانما يصل الى ذلك بقوة عقله واستقامته وعلو همته . فقد

يبلغ الرجل أعلى المراتب السياسية أو العلمية وهو قبيح الخلقة ألكن اللسان اذا جالسته لم تجد فيه ما يسرك وانما يظهر جوهره اذا عرضت المشاكل التي تحتاج الى اعمال الفكرة فيحل معضلاتها بذكائه ويضيء طرقها ببرهانه . فكم بين الملوك والقواد والعلماء ورجال السياسة من قباح الخلقة ضعاف العارضة وكم بين السوقة من اهل الجمال والفصاحة

ومع اعترافنا بان الاصل في الرجل حقيقته التي تظهر بعد كشف الستار الثالث فانا نرى للمظهرين الاولين تأثيراً شديداً في احوال المعائش فان العاقل حسن الاخلاق ينال من دنياه وهو جميل الخلقة طلق اللسان حسن الاسلوب اضعاف ما يناله وهو قبيح المنظر قصير اللسان . لان الناس مهما بلغ من ارتقائهم وتوخيهم الحقائق لا يزال للظواهر الخارجية تأثير على احكامهم — حتى بعد اطلاعهم على حقيقة الرجل بطول المزاولة والاختبار فان جلال طلعته ولطف هندامه وحسن بزته وفصاحة لسانه تزيده رفعة في أعينهم . ويندر أن يوفق واحد الى حسنات المظاهر الثلاثة وهو اذا وفق اليها نال أرقى المناصب وبلغ اقصى المراد . وويل لمن يبلى بسيئات تلك المظاهر اذ يكون قبيح الظواهر ضعيف البواطن فيكون من أشقى الناس حالاً . ولكن قد يسعده الحظ أو ترمقه الصدفة فيعيش متمتعاً بكل اسباب السعادة وهذا نادر — الا أن تؤول اليه تلك الاسباب بالارث فاذا اقتصد في انفاقها عاش سعيداً

المجاملة

من آفات الهيئة الاجتماعية [1]

في القاموس « جامله عامله بالجميل ولم يصفه الاخاء أو أحسن عشرته »

والمجاملة اما ان تكون في الحديث فتقتصر على المحادثات والمطارحات واما في المعاملة وتتناول الاشغال في الاخذ والعطاء — فلننظر في كل منهما على حدة

(المجاملة في المحادثة) اذا سألت أوربياً أو أميركياً عن رأيه في شأن من الشؤون لا يستنكف من التصريح بما يخطر له ولو كان في قوله ما يسوءك أو يغضبك.

(١) عن الهلال سنة ١١ صفحة ٩

وهي حرية في القول لا مشاحة في انها من الفضائل الناجمة عن التعليم الصحيح . واما اذا وجهت ذلك السؤال الى شرقي فقد يدرك منه نحو ما أدركه ذاك ولكنه يستنكف من التصريح لك برأيه فجأة فيجعل جوابه لطيفاً تخلله ما يخفف غضبك من الاعذار وهو ما يعبر عنه بالمجاملة . ولا بأس من المجاملة اذا وقفت عند هذا الحد واقتصرت على لطف المعاملة بل هي تفضل على الحرية الجافية لان المجاملة قد تكون من قبيل الدهاء في السياسة فينال صاحبها بحسن الاسلوب ما لا يناله بدونه . أما اذا تجاوزت هذا الحد فانها تنقلب الى الرياء والخديعة وتصير وبالاً على أهلها وسبباً رئيسياً من أسباب انحطاطهم

والمجاملة من الاخلاق الراسخة في طباع الشرقيين ولا نحسبها فطرية فيهم بل نظنها من نتائج ما أصابهم من الذل والاستبداد في القرون الاخيرة بعد ان دالت دولة الشرق واضطر الشرقيون بحكم الطبيعة ان يستسلموا لاهل الغرب أو يقتدوا بهم . يدلك على ذلك ما كان عليه العرب في جاهليتهم وفي صدر دولتهم بعد الاسلام من حرية القول والعمل فقد كان الرجل وهو من آحاد الناس لا يبالي ان يصرح برأيه ولو كان في تصريحه ما يسوء الامير أو الخليفة أو السلطان وهو دليل الانفة وعزة النفس وصدق اللهجة _ وهذه الخلال لا تعيش الا في ظل العدل والحق والحرية

وفي الحديث المشهور عن الاعرابي مع عمر بن الخطاب وقد قال عمر « اذا رأيتم فيَّ اعوجاجاً فقوموه » فقال الاعرابي « لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا » دليل على ذلك اذ لم يجرئه على هذا القول الا اعتقاده بعدل ذلك الخليفة

وأمثال هذه الشواهد كثيرة في كتب العرب مما يدل على ان أخلاق الامم تختلف باختلاف الاعصر والاحوال . وان الظلم والاستبداد من اكبر البواعث على رسوخ الرياء في طباع المظلومين فيشيع ذلك فيهم ويسمونه المجاملة . لان المجاملة بمعناها الاصلي لا تقتضي الرياء وانما يراد بها الملاطفة وحسن الاسلوب وان لم تصف النية وهي نافعة. وأما المجاملة على ما نراها شائعة بيننا فانها مجلبة للاضرار بل هي سوس ينخر في جسم العمران فتضل الناس وتسيء التعامل فلا يثق الانسان بنصيحة ولا يركن الى رأي. وقد تقود الى الغرور وخصوصاً في حديثي العهد في مخالطة الناس فينخدعون بما يسمعونه من امتداح أعمالهم فيتمادون الى ما لا تحمد عقباه وهم معذورون لانهم لا يسمعون نصحاً صحيحاً بل لا يسمعون الا اطناباً واطراء

ويظهر ذلك الغرور خصوصاً في أرباب الاقلام لانهم اذا كتب أحدهم مقالة أو نظم قصيدة وعرضها على صديق له قبل نشرها أو بعده فاول ما يتبادر الى ذهن ذلك الصديق اطراء صديقه الكاتب او الناظم فيبذل جهده في اختراع المعاني وتنميق العبارة المؤدية الى مدحه . والكاتب كما لا يخفى معجب ببنات أفكاره فيزيده الاطناب اعجاباً ويحسب نفسه قد فاق الاولين والآخرين علماً وفضلاً . واذا كان من أهل الغرور جرّه ذلك الى التطاول والادعاء فيسقط . ومن الضرر الفاحش ان لا يسمع الانسان الا المدح في أعماله وأقواله واكثر الناس تعرضاً لهذا الامر اصحاب الجرائد والمجلات . اذ لا تصدر جريدة أو مجلة الا وتسابق الشعراء الى نظم التقاريظ في مدح خطتها وسمو مواضيعها وتفننوا في سبيل الاطناب في سعة علم صاحبها وغزارة فضله أو صدق لهجته قبل ان يبدو شيء من ذلك على جريدته او مجلته

وأرباب الصحافة أنفسهم يقعون في نفس ذلك الخطأ فاذا ورد عليهم كتاب وان كان موضوعه تافهاً فانهم يشعرون بوجوب مدحه وخصوصاً اذا جاءهم صاحب الكتاب بنفسه وحرضهم على مدح كتابه التماساً لرواجه . وقد يكتب اليهم في هذا الشأن يستحثهم ويستنهض همتهم لتقريظ الكتاب تنشيطاً للمؤلف . والغالب في الصحف ان تجيب الطلب حياء من المؤلف وتنشيطاً له وجرياً على عادة المجاملة في كل شيء . وقد عرف القراء ذلك فاصبحوا لا يعتمدون على أقوال الجرائد في تقريظ المطبوعات

وعذر أرباب الصحف في تلك المجاملة ان المؤلفين لم يتعودوا الصبر على سماع الانتقاد واكثر ما يظهر من المؤلفات قابل للانتقاد لحداثة عهدنا في التأليف . فاذا أراد صاحب الجريدة انتقاد كل كتاب يرد عليه ضاق وقته وأثار عليه العداء حتى من أعز أصدقائه . وما من صاحب جريدة أو مجلة الا وقد وقع في ذلك . . .

ويظهر لنا مما نقرأه الآن من انتقاد الكتب في الجرائد والمجلات ان الناس قد أخذوا يتعودون سماع الانتقاد على ما يكتبونه ويصبرون على صداقة منتقديهم ولو قليلاً . واملنا وطيد ان ينتشر هذا الروح ويتمكن من ارباب الاقلام لانه اكبر دليل على ارتقاء الامة وسعة علم كتابها . على ان المؤلف المنصف لا يستنكف من الاقرار بخطئه والاعتراف بفضل المنتقد عليه . ويسرنا ان صدق اللهجة أخذ ينتشر بين الناس . وفي الناشئة المصرية جماعة لا يستنكفون من ابداء رأيهم في شأن من الشؤون بالحرية

التامة وذلك من نتائج التربية والتعليم والقدوة الحسنة

(المجاملة في المعاملة) مهما يكن من اضرار المجاملة في المحادثة فانها لا تظهر للعيان ظهور اضرار المجاملة في الاخذ والعطاء لان المعاملات التجارية ونحوها انما تقوم بصدق المعاملة وصراحتها . فالافرنجي مثلاً اذا سألته قضاء حاجة ولم يكن يستطيع قضاءها أو لا يريد ان يقضيها قال لك حالاً اني لا استطيع ذلك او لا اريده . وقد يكون ذلك الجواب عنيفاً لديك ولكنه خير من جواب الشرقي « حاضر » او « من عينيَّ » او « على رأسي » وهو يقول ذلك وينوي ان لا يفعل . وقد تخاطبه في هذا الشأن مثنى وثلاث ورباع وهو يختلق الاعذار ويجدد الوعد ولا يبالي بما تنفقه في سبيل الانتظار من الوقت وغيره — أليس ذلك من الرياء والخداع ولكننا الفناه وعددناه من قبيل الملاطفة وما هو منها في شيء

اذا كلفك صديقك أمراً فاما ان تعده وتفي او ان تصرح له بعدم اقتدارك على القيام بطلبه فتترك له سبيلاً للبحث عن مصلحته . ويدخل في هذا الباب الاخلاف في المواعيد وخصوصاً مواعيد المقابلة فقد يعدك بعضهم بالمقابلة في الساعة الفلانية في المكان الفلاني وهو لا ينوي الوفاء او يترك ذلك للتقادير وانما كان وعده حياء منك . ومن الغريب ان لا يستحي من اخلافه . وثما اثقل ذلك على حديث العهد في هذه المعاملة — على انه لا يلبث ان يألفها لكنه لن يستحسنها لما فيها من ضياع الوقت . ويسرنا ان نرى تحسيناً واضحاً في هذه العادة في الاعوام الاخيرة من فضل العلم ونتوقع التخلص منها كلها تدريجاً

ومن ضروب المجاملة في المعاملة التي لا نرجو للشرقي خلاصاً منها تحمل مشقة الزيارة في غير اوانها واكرام الزائر واستطالة زيارته . فالافرنجي اذا زرته في ساعة له فيها عمل يقضيه لا يستنكف ان يقول لك بصريح العبارة « اعذرني اني لا اقدر ان اقبل زيارتك الآن لاني مشغول » اما الشرقي فلا نظنه يتصل الى هذه الحرية الا بعد أجيال طويلة ونظنها آخر ما يستتم اقتباسه من عادات الافرنج . على اننا نرى اتخاذ هذه الحرية لازماً في احوال اضطرارية والزائر اذا كان صديقاً لا يرضى بخسارة صديقه او مضايقته . ولكن لا بد من لطف الاسلوب في ذلك الاعتذار

القسم الثاني

المرأة والحب والزواج

الامة نسيج الامهات

فعلينا تربية البنات (١)

لا يغرنك من المرأة حياؤها وانزواؤها ولا تحتقر لين أناملها ورقة احساسها . ولا تعجب وأنت شاب بقوة جنانك وكثرة سعيك . ولا تفتخر باستقبالك القنابل في ساحة القتال وجوب البلاد وخوض البحار واذلالك القوى الطبيعية واستخدامك البخار والكهربائية . ولا تفاخر المرأة بقوة سلطانك ولا تهول عليها بصولجانك ولا ترهبها بعلمك وصناعتك واختراعاتك واكتشافاتك . واعلم انك مهما أدركت من العز والسؤدد وأحرزت من العلم والصناعة ما أنت الا ثمرة غرس بنانها وصنيعة قلبها ولسانها . ولولا قلبها الضعيف ما قوي قلبك ولولا رخص بنانها ما اشتد بنانك . فالمرأة وهي منزوية في مطبخها تؤثر في الهيئة الاجتماعية تأثيراً لا تستطيعه الجنود المجندة ولا تقوى عليه أعاظم رجال العلم والسياسة

ولا يخفى عليك أن المرأة هي الام وهي الزوجة وهي الاخت . فالام والزوجة والاخت قابضات على زمام العمران فاما ان يرفعنه الى أوج السعادة واما ان يهبطن به الى حضيض الذل . يفعلن ذلك خفية واعتباطاً لا يشعر بهن أحد . ولا غرابة في ذلك والرجل مهما أوتي من المواهب أو بلغ من المناصب لا يخلو ان يكون زوجاً أو ابناً أو أخاً وقد يكون كل ذلك معاً . فهو ربيب امرأة وعشير امرأة ورفيق امرأة وقد أطاعها في طفولته وحداثته مكرهاً وانقاد اليها في شبابه محباً واكرمها في كهولته

---

(١) عن الهلال سنة ١٦ صفحة ٢٣٩

ا كراً جامداً وقضى تسعة أعشار حياته بين يديها وقلبه طوع ما بين شفتيها . وقد
بي كما تريد وتشب كما تشاء . وهو يطيعها بلا أمر ويصدع باشارتها بلا قانون ويجري
لى هواها وهو لا يدري . واذا رأيته يكدُّ في طلب العلى أو يجدُّ في التماس العلم أو
لفضيلة فاعلم انه انما يلتمس جهاراً ما أوحت به اليه سراً ويسعى قصداً وعمداً في
طلب ما غرسته في نفسه اعتباطاً . فالقاضي يحكم في الجلسات العلنية وفي خلال حكمه
ظلال انطبعت على مخيلته من انفاس والدته أو زوجته . والتاجر يبيعك السلعة وفي
خلال حديثه أو مساومته رقة أو خشونة او لين او فظاظة مما اكتسبه من عشيرة
حياته وهو لا يعلم . وقس على ذلك الكاتب والصانع والمحامي والطبيب وغيرهم فلا
يعمل الرجل عملاً الا وللمرأة فيه أثر لأنها اكثر عوامل الطبيعة تأثيراً فيه . وينسب
الفرنساويون كل ما يجري في الناس الى المرأة حسناً كان او قبيحاً فاذا حدث حادث
ظل سببه مجهولاً قالوا « فتش عن المرأة » Cherchez la Femme وقال آخرون
« ان التي تهز السرير بيمينها تهز الارض بيسارها » .

فاذا كانت هذه حال المرأة في الهيئة الاجتماعية فما بالنا لا نلتفت الى ترقية مداركها بالعلم والادب ـ بحث الباحثون عن اسباب تأخرنا فوجدوا الجهل اكبرها فقالوا بنشر العلم واخذوا يستحثون الهمم على انشاء المدارس العالية وتعميم العلوم الراقية ولكنهم حصروا كلامهم في تعليم الشبان وقلما التفتوا الى المرأة وهي أولى بذلك منهم لانها قوام ذلك المجتمع ولا تفلح أمة أمهاتها جاهلات لا تعرف غير غرفتها او منزل اهلها . فقد مضت العصور التي لم تكن تطالب فيها بغير الاحتجاب والانزواء ولا لوم عليها اذ ذاك لان الرجل لم يكن يرضى منها غير ذلك فاذا رغب في زواج ارسل والدته او عمته او بعض ذوات قرابته تنتقي له عروساً فلا يقع اختيارها الا على التي لا تعرف من الدنيا غير بيتها ومطبخها فتعود وهي تبالغ في مدحها بقولها « ان لها فماً يأكل وليس لها فم يتكلم » فاذا قسم له الاقتران بها افتخرت بعد طول عشرته انها لا تخرج من منزله الا الى القبر .

واذا تتبعت تاريخ المجتمع الانساني رأيت الامم انما ترقى بالمرأة الراقية وتختلف طرق رقيها باختلاف الاعصر والاجيال ـ دعنا من ضرب الامثال على تأثيرها في الدين وانها اكبر العوامل في نشر التقوى وتهذيب النفوس ودعنا من النظر في تأثيرها على الآداب الاجتماعية في الدول القديمة والحديثة وخذ امثلة قليلة ممن ظهر في صدر

الاسلام من فضليات النساء وكنّ من اكبر العوامل في نهضة العرب ونشر لواء الاسلام بما ربينه من القواد والحكام والعلماء وقد نبغ منهنّ جماعة من خيرة الامهات والاخوات والزوجات بما كان في نفوسهن من انفة البداوة لشبوبهن على استقلال الفكر واباء الضيم فكنّ يترفعن عن ارتكاب ما يهون على الناشئات في مهاد الذل المغلولات باغلال الحجاب فنبغ منهنّ في الجاهلية وصدر الاسلام نساء لهنّ شأن وارادة وانفة ورأي وفيهنّ المدبرة والحازمة والادبية والشاعرة والتاجرة والصانعة . ذات مناقب رفيعة تضرب بها الامثال كسلمة بنت عمر العدوية وهند بنت عتبة امرأة ابي سفيان وعمارة بنت كعب الانصارية وام حكيم بنت الحارث والخنساء الشاعرة وخديجة بنت خويلد زوج النبي واسماء بنت أبي بكر ذات النطاقين وأختها عائشة أم المؤمنين وعائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين وغيرهنّ

وما زال ذلك شأن المرأة حتى اركن المسلمون الى الترف وشاع التسري بينهم فآل ذلك الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال وصاروا يتهادون الجواري على اختلاف اجناسهنّ . فبعد ان كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تفكر في غير زوجها وهي واثقة بامانته فاذا هو قد تشتت امياله بين عدة نساء فقلّت غيرته عليها . ولما رأته مشغولاً عنها قلّت ثقتها به الا من عصمها عقلها وشرفها . فلم ينضج التمدن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن وذهبت حريتها وغيرتها وصارت هي تهدي زوجها الجارية وتحبب اليه القرب منها لا يهمها ذلك ولا تغار منه . وبعد ان كان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها صاروا يساعدونه في الحصول عليها

فافضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستقلال فكرها فاحتقرها الرجل وساء الظن بها وصار يعدها عدوة له ويوصي بعدم الاركان اليها فيعاشرها على غل وسوء رأي . يقفل عليها الابواب والنوافذ ويسد في وجهها الطرق والمسالك ويمنعها من الخروج او الكلام — وهو صاحب الذنب في انحطاطها . فاصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة الناس حتى المؤلفين والرواة [illegible] ونظموا فيها الشعر وتفننوا في وضع الجمل الحكمية والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة وعدم الوثوق بها

فقضت المرأة المسلمة ومن عاشرها من نساء اهل الذمة مدة الاجيال الاسلامية

الوسطى وهي مظلومة محبوسة محتقرة جاهلة . حتى اذا توسط القرن الماضي وفتحت المدارس للبنات وزاد اختلاطنا بالافرنج واقتبسنا عاداتهم وأخلاقهم وعلمنا تأثير المرأة في هيأتهم الاجتماعية اصبحنا لا يرضينا من فتاتنا ان يكون لها فم يأكل ولا يتكلم ولا ان يكون البيت سجنها المؤبد لا تنظر الى الطرق الا من خلال النوافذ واذا خاطبها رجل تلعثم لسانها واذا ساومت بائعاً باعها القطن حريراً والنحاس ذهباً . او اذا رأت برقاً ظنته شرراً يتطاير من عيون الجان أو سمعت رعداً خالته دبدبة خيول العفاريت او اذ رأت حلماً اصبحت تلتمس تفسيره وهي بين خائفة ومستبشرة . واذا قيل خسف القمر عمدت الى النحاس تدقه تخويفاً للحوت الذي ابتلعه . تقضي نهارها تسمع من عجائز الخادمات خرافات واقاصيص لا تزيد الجاهل الا جهلا . واذا انقضت ساعات الاقاصيص عمدت الى اصلاح وجهها بالخضاب وغيره . وهي انما تفعل ذلك تشاغلاً عن البطالة . ثم تعمد الى النوافذ تطل على المارة خلسة وقد أصبح عقلها خزانة أوهام ومخاوف . فضلاً عما قد تؤول اليه الخلوة والبطالة من العادات القبيحة مما لا يليق ذكره . وفي المثل المأثور « الرأس الفارغ مغارة ابليس » فالفتاة الجاهلة المحتجبة تعتاد الاحاديث الملفقة ويهون عليها الكذب والنميمة والغيبة ونحوها

فالمرأة التي هذا هو حالها كيف نعهد اليها بتربية أبنائنا رجال المستقبل وهم انما يكونون كما تريد امهاتهم بل كيف نرجو رقياً والجهل مخيم على منازلنا لا يدور فيها غير الاحاديث الفارغة فاذا لم ترتق نفوس الامهات لا ترتقي نفوس الابناء وهي انما ترتقي وتتثقف بالعلم الصحيح وقلما يفيد تعليم الرجل والمرأة جاهلة . وان تساويهما بالجهل خير لسعادة العائلة من تفاوتهما على هذه الصورة لما ينجم عن ذلك من الشقاق لاختلاف الاذواق . واذا كان لا بد لنا من تعليم احد الزوجين واردنا من التعليم ترقية شأن العائلة فتعليمها اولى من تعليمه . لكن افضل من هذا وذاك ان يكون كلاهما متعلماً راقياً

وقد شاع تعليم المرأة بين المسيحيين في الشام ومصر ولا يزال ضعيفاً بين المسلمين . مع ان الحكومة المصرية تنبهت له من اوائل هذه النهضة . ومن رجالها الذين أخذوا بناصر المرأة وحثوا الامة على تعليمها المرحوم رفاعه بك المتوفى سنة ١٨٧٥ صاحب الايادي البيضاء في نقل العلم الى العربية ونشره بين معاصريه . فقد قال في عدة مواضع من كتبه ان التعليم يجب أن يشمل الذكور والاناث . وفصّل ذلك على

الخصوص في كتاب المرشد الامين للبنات والبنين المطبوع بمصر ١٢٩٢ هـ وأتى بالاحاديث والآثار المؤيدة لذلك وهي تدل على أن حرمان المرأة من التعليم ليس من قواعد الدين الاسلامي في شيء وانما هي عادة ولدت في عصر الانهماك والانحطاط وقد اشتهر في العصر العباسي غير واحدة من حافظات القرآن والشاعرات وغيرهن

وبدأت الحكومة المصرية بتعليم المرأة من أيام محمد علي وقرر ديوان المدارس سنة ١٨٣٦ ان تعليم الاناث ضروري وبدأ تعليمهن بانشاء مدرسة القوابل . والفضل الاول في انشاء المدارس لتعليم الفتيات على النسق الافرنجي انما هو للبرنسيس جشمه عفت احدى نساء الخديوي اسماعيل فانشأت سنة ١٨٧٣ مدرسة سمتها مدرسة السيوفية . وكان الاجانب قد انشأوا كثيراً من مدارس البنات بمصر أقدمها مدرسة مسز ليدر الانكليزية سنة ١٨٣٥ بمصر ثم فتح غيرها مدارس أخرى وكان بعض المسلمون يدخلون بناتهم اليها . فلما اقدمت البرنسس عفت على انشاء مدرستها زاد المسلمون اقداماً على تعليم بناتهم ثم أمر اسماعيل نظارة الاوقاف بانشاء مدرسة للبنات

وقضت الاحوال بالاقتصاد فتصاغرت المدرستان ثم توقفتا . وقلما عادت الحكومة الى العناية بذلك . وأما الاهالي فانشأوا عدة مدارس اكثرها للافرنج . ويؤخذ من احصاء المدارس لهذا العام ان في مصر الآن (سنة ١٩٠٨) ٩١ مدرسة لبنات منها ٢٣ مدرسة مصرية و٦٨ اجنبية غير المدارس المختلطة وعدد تلميذاتها جميعاً ٤٤١ ٢٠ فتاة منهن ١١٢ ١١ من بنات الوطنيين و٣٢٩ ٩ من الاجانب فتكون نسبة بنات المدارس الوطنيات الى تعداد الاهالي نحو واحد في الالف واما الاجانب فنحو ١٠ في الالف . وأما الذكور فمدارسهم ٢٨١ مدرسة وتلامذتها ٦٦٦ ٧١ تلميذاً منهم نحو ٠٠٠ ٦٠ من الوطنيين

ويكفي الاطلاع على هذه الارقام للاقتناع بضعف تعليم البنات عندنا وشدة حاجتنا الى زيادة المدارس لتعليمهن . ويسرنا ان ناظر معارفنا العاقل الحكيم قد صرح بهذه الحاجة في بعض خطبه وحث الناس على انشاء المدارس لهذه الغاية . وان روحاً جديدة دبت في قلوب بعض الغيورين للسعي في هذا السبيل . فاذا ارادوا رفع شأن الامة ساروا في هذا المسعى بهمة وثبات . فان الامة نسيج الامهات

كيف نصنع الاخلاق

وتأثير المرأة في اصطناعها (١)

أجمع ارباب الاقلام ووافقهم عقلاء الامة على أننا في حاجة الى الاخلاق الراقية التي لا بد منها لتقدم في اسباب هذه المدنية . نعني الصدق والوفاء والشجاعة الادبية والاعتراف بالحق والشعور بالواجب والثبات ومتانة الخلق ونحوها . وكتب الادب والاخلاق حافلة بتعداد الاخلاق الحسنة وابداء النصائح في الطرق الفضلى للنجاح في الاعمال أو نيل الثواب . على أن هذه الاقوال قلما تخرج الى حيز العمل وانما يكررها الناس ويتلذذون بتلاوتها كما يتلذذون بالخيالات الشعرية الجميلة . وقلما يبقى لها أثر في نفوسهم أو يظهر لها صدى في اعمالهم . ويشبه ذلك قولنا للمريض انك مصاب بالداء الفلاني بدليل كذا وكذا لكننا لا نصف له الدواء الذي ينقذه من ذلك المرض . فهو يلتذ بمعرفة مرضه لكن هذه المعرفة لا تنفعه ان لم يرافقها وصف الدواء وكيفية تناوله . فقولنا اننا في حاجة الى الخلق الفلاني يلذ لنا لكنه لا يفيدنا ان لم نتعلم كيف نصنع ذلك الخلق ونطبق أعمالنا عليه — ذلك ما اردنا بسطه في هذه المقالة

كيف تتكون الاخلاق

ليس الانسان في ما وفق اليه من الاختراعات العظمى الا مقلداً للطبيعة يقتبس منها ويستنير بنبراسها . فلا تكاد تجد اختراعاً مهماً الا رأيته مبنياً على أمثلة من نوعه جارية في الطبيعة حولنا . فلاصطناع الاخلاق يجب أن نعلم اولاً كيف تتكوّن تلك الاخلاق في الانسان حسب ناموس النشوء ثم نقلد الطبيعة في اصطناعها او تكوينها

يؤخذ من اعمال الفكرة في هذا الناموس ان الانسان صنيعة الاقليم . تتغير اطواره وتتبدل اخلاقه واحواله حتى تطابق ما يقتضيه اقليمه . ولذلك اختلفت اخلاق الامم كاختلاف اقاليمها . فان لاهل البادية اخلاقاً غير اخلاق اهل المدن . وتختلف اخلاق اهل الجبال عن اخلاق أهل السهول . وقس على ذلك

واذا تدبرت هذه الاخلاق في اصل منشأها وسبب ظهورها رأيت للعقل دخلاً كبيراً في تكوينها بحيث يصح القول « ان اخلاق الانسان تاج عقله وصنيعة اقليمه »

(١) عن الهلال سنة ٢٢ صفحة ٥٨٥

ولايضاح ذلك نضرب مثلاً مبنيًا على رأي أصحاب ناموس النشوء في ارتقاء الانسان : نفرض رجلاً لا يزال على الفطرة الحيوانية لم يتكوّن فيه شيء من المميزات البشرية فالارجح في نظرنا ان الارتقاء بدأ اولاً في عقله فامتاز عن سائر الحيوانات بالادراك . ثم استعان بالادراك على تكوين اخلاقه التماساً للبقاء ودفعاً لما يهدده من أسباب الفناء

وبيان ذلك ان الانسان وُجد ضعيفاً بين الاقوياء . فاصبح عرضة للمؤثرات الطبيعية وفريسة للحيوانات المفترسة التي لا يقوى على دفعها بقوته البدنية . لكنه امتاز عنها بالحيلة العقلية فاستخدمها في الدفاع عن نفسه والاحتفاظ بحياته . ولولا ذلك لانقرض عن وجه الارض من عهد بعيد كما انقرض سواه من انواع الحيوان . لكنه استخدم حيلته العقلية في اتقاء البرد باصطناع الالبسة وفي اتقاء الحيوانات المفترسة باصطناع الاسلحة وبناء المنازل . وساعده النطق على الاجتماع فتألف قبائل وبطوناً انتشرت في الارض على اختلاف المناطق والاقاليم . وقام التنازع بينها على المعاش أو على السيادة فأصبح أشد حاجة الى الحيلة العقلية من قبل . وأهم ما يدعوه الى ذلك عاملان : (١) الدفاع عن نفسه (٢) الاجتماع مع اخوانه للاستعانة بهم على اعدائه

والعامل الاول – نعني الدفاع عن نفسه في مقاومة الحيوانات الضارية أو محاربة الاعداء من بني جنسه – اوجد فيه اخلاق اهل البادية كالشجاعة والهمة والنشاط والنجدة ونحوها . سيق اليها بالانتخاب الطبيعي وبقاء الاصلح . لان القوم المقيمين في بادية لا غنى لهم عن هذه الاخلاق للدفاع عن حياتهم وكسب اسباب معاشهم . فاذا لم يكن ذلك خلقاً فيهم تعودوه بتوالي الاجيال حتى يصير خلقاً بانقراض الضعفاء العاجزين عنه وبقاء الاقوياء القادرين عليه . فمن لم يكن فيه استعداد لاكتساب ذلك الخلق مات وبقي الاصلح . وقس على ذلك تكوّن سائر الاخلاق اللازمة لدفاع الانسان عن نفسه أو التماس رزقه

أما العامل الآخر – نعني اجتماع الانسان برهطه للتعاون على اعدائه – فيحتاج الى طبقة أخرى من الاخلاق . مرجعها الى تبادل المنافع ومعرفة الحقوق والواجبات . فاضطراره الى الاجتماع حمله على تكلف الاخلاق اللازمة لذلك واستخدم ارادته في الصبر والكظم رغبة في مصلحة نفسه . فاصبحت تلك الاخلاق عادة ثم صارت بتوالي الاجيال خلقاً فطرياً . وجد البدوي نفسه في حاجة الى الاستعانة باهله

وجيرانه فاخذ في تقريبهم منه ببذل مايحتاجون اليه وأهمه الطعام فاكثر من الضيافة وهي تقتضي الكرم والسخاء فاصبح الكرم بتوالي الاجيال من أخلاق أهل البادية. وقس عليه الوفاء والحلم والصدق وغيرها . ويقال بالاجمال ان الخلق تبعث على تكوّنه الحاجة وتأمر به الارادة . ويمر في ثلاثة أدوار : نعني ان العقل يحكم بعمل تستلزمه أحواله فتعمد الارادة الى اجرائه مضطرة متكلفة كاظمة . فاذا تكرر ذلك العمل صار « عادة » ـ ويغلب ان يبدأ بذلك كبير من عقلاء القبيلة ثم يقلده الجيران لما يجدونه فيه من الخير لهم . ثم تصير تلك العادة بتوالي الاجيال « ملكة » راسخة تتوارثها الاعقاب . وأخيراً تصير « خلقاً »

على نحو هذا النمط تكونت الاخلاق في أدهار متباعدة لا يدرك أولها . وهي تختلف في الامم باختلاف أقاليمها وسائر أحوالها . لان ما يبعث أهل البادية على تطلبه من الاخلاق قد لا يتطلبه أهل المدن . وقد تختلف أخلاق الامة الواحدة باختلاف أطوار مدنيتها تبعاً للمؤثرات التي تطرأ عليها . فتضطرها الى عادات كانت في غنى عنها في أحوالها الاولى . ثم تصير تلك العادات أخلاقاً راسخة . بهذا نعلل الفرق بين أخلاق العرب في الجاهلية وأخلاقهم في هذه الايام . وبين الاخلاق الرومانية في أوائل دولة الرومان وما صارت اليه بعد ان استبحر عمرانها

فالامة الواحدة تختلف أخلاقها باختلاف أقليمها وتختلف في الاقليم الواحد باختلاف أطوار مدنيتها ـ يقع ذلك فيها وهي لا تتطلبه ولا تشعر بانتقاله لانه يتدرّج من العادات الى الملكات فالاخلاق عملاً بسنة الارتقاء

كيف نصنع الاخلاق

فاذا شئنا ان نكوّن في أنفسنا أخلاقاً ليست فينا فلنقلد الطبيعة ـ لكننا نحتاج قبل كل شيء الى « الارادة » . نعني ان ننظر في ما ينفعنا ويصلح أحوالنا الاجتماعية . فاذا تحققنا اضطرارنا اليه عملنا على جعله قاعدة لا بد من اتباعها . فنصمم على ذلك ونعمل به ولو مكرهين . ثم لا يلبث ان يصير ذلك عادة فملكة فخلقاً . ولا يتم تكوّن الخلق الا باجيال متوالية . لان الاخلاق الراسخة في الامم يصعب اقتلاعها أو نزعها الا بالصبر وصدق العزيمة مع قوة الارادة

مثال ذلك ان « الشجاعة الادبية » من الاخلاق الراقية التي نحن في حاجة اليها

فعلينا أولا ان نتثبت ذلك ونعتقده . ثم نجعله قاعدة أعمالنا ونغرسه في أبنائنا منذ الصغر وهم في المهد ونرضعهم اياه مع اللبن ـ ذلك هو أساس التربية والعمدة فيه على الامهات . ثم يعهد أمره الى المعلمين في المدارس . وهكذا في سائر أطوار الحياة فتصير الشجاعة الادبية عادة فيهم يتوارثها أبناؤهم حتى تصبح بتوالي الاجيال خلقاً فطرياً . ويقال نحو ذلك في سائر الاخلاق

الامة نسيج الامهات

يظهر اصطناع الاخلاق سهلاً لاول وهلة لكنك تجده عند اعمال الفكرة من الامور الشاقة . وسبب ذلك ان نجاحه يتوقف على عاملين هامين يصعب توفرهما في الامة المفتقرة الى هذا الاصلاح . نعني « الارادة القوية » و « المرأة المتينة الخلق » وأهمهما هذه الاخيرة لان على الام تتوقف الخطوة الاولى في تكوين الاخلاق . فاذا كانت الام قوية الخلق وعهد اليها بتربية الاخلاق الراقية في أبنائها كالصدق ومعرفة الواجب والثبات والشجاعة الادبية ونحوها فقد أدركت الامة ماتشتهيه وشبَّ أبناؤها على تلك الاخلاق . وهي أيضاً تربي المعلمين الذين عليهم ان يتمموا تكوين الاخلاق في المدارس . ولذلك قلنا في غير هذا المكان « ان الامة نسيج الامهات »

فكيف نحصل على أمهات متينات الاخلاق نعهد اليهنَّ بهذه المهمة ، اذا كانت المرأة عندنا قد صارت الى ما هي عليه من ضعف الخلق بتوالي الذل والجهل أجيالا متطاولة هل من سبيل الى انهاضها واصلاحها غير التعليم والتربية ؟ ولا يعترض بان كثيرات من الامهات يحسنَّ تربية بنيهنَّ وهنَّ جاهلات . أن متانة الخلق قد تكون مع الجهل وانما يساعد عليها الوسط ـ نعني الحالة العمومية في الامة . كالمرأة في الجاهلية انها كانت متينة الخلق تبعاً لحالة تلك الامة في ذلك العهد . لان العرب يومئذ كانت أخلاقهم متينة ونفوسهم قوية من طبيعة البداوة . فلما صاروا الى الحضارة وركنوا الى الرخاء وضعفت اخلاقهم ضعفت اخلاق المرأة معهم . ولعلها لو اعيدت الى البادية لاسترجعت متانة خلقها بتوالي الاجيال . لكننا نريد متانة الخلق ونحن في المدن بين يدي مدنية حديثة لا بد لنا من الاخذ بها والتخلق بالاخلاق اللازمة لها . فلا مندوحة لنا عن تربية المرأة تربية صحيحة وهي تتكفل بان تخطو بالامة الخطوة الاولى نحو الاخلاق الراقية . وتهيء العاملين في الخطوة الثانية وما بعدها

المرأة والحجاب

فتعليم المرأة هو الحجر الاساسي في التربية الاخلاقية . والامة تحتاج في مصالحها وسائر احوالها الاجتماعية الى الاخلاق الراقية اكثر من حاجتها الى العلوم العالية . وعليه كان تعليم المرأة مقدماً على كل سعي في سبيل المدنية . فهل اشد ضرراً على الهيئة الاجتماعية ممن يقفون في سبيل تعليمها وتثقيفها بحجة الحجاب او غيره ؟ لكن القائلين بذلك والحمد لله قليلون . وقد اصبح تعليم المرأة لا يختلف فيه عاقلان . على اننا نعرف جماعة من كبار القوم واصحاب المناصب العلمية والدينية والسياسية يقولون بوجوب تعليم المرأة ونزع الحجاب عنها ضمن دائرة الآداب الشرقية ـ يقولون ذلك في مجالسهم ويباشرونه بانفسهم فيعلمون بناتهم احسن تعليم ويفهمونهنّ حقيقة الحجاب . ولكن قليلين منهم يجاهرون بآرائهم هذه في الصحف لاسباب اعتبارية لا يرون بداً من مراعاتها

نعرف استاذاً من خيرة رجال العلم والدين في مصر علم ابنته في انكلترا فنالت شهادة مدارسها العالية . ولما جاء طالب يخطبها لم يشأ أن يجيبه على ذلك قبل ان اراه اياها . وسمح له بمحادثتها ليكون الشاب على بينة من اخلاق المرأة التي ستكون رفيقة حياته . فوجود مثل هذه الروح في الطبقة الراقية من الامة يبشرنا بتعميمه مع الزمن

لا تنكر ما وصلت اليه حال المرأة المسلمة عندنا من الرقي حتى نبغت منهن الخطيبات والكاتبات والمعلمات . لكننا نرى ذلك في الامم الاسلامية غير العرب اكثر وضوحاً . حتى ظهر من الفتيات المسلمات عاملات في المصالح العامة . واسبق المسلمين الى ذلك الاتراك فان نساءهم ألفن جمعية سمينها « جمعية نزع الحجاب » يدعين فيها الى تعليم المرأة وحل قيودها . وقد نبغت منهنّ طائفة من العاملات في شركة التلفون بالاستانة . على ان المرأة التركية قطعت قيود الحجاب ونهضت للاصلاح قبل المرأة العربية . وكان لها شأن يذكر في الانقلاب العثماني

واعتبر ذلك في المرأة الهندية فان الهنود قد شكلوا الجمعيات وانشأوا المجلات في سبيل ترقية المرأة وجمعوا الاموال لتعليمها . وفي اخلاق المرأة الهندية متانة ظهرت في احوال مختلفة . هذا عرش مملكة بهوبال قد توالى عليه ثلاث ملكات حكمنَ

المملكة بحزم وتعقل نحو قرن كامل : الاولى قدسية بيكم أرملة نظار محمد خان . وكان هذا قد تولى بهوبال سنة ١٨١٨ ولم يعش طويلاً تخلفته امرأته هذه وهي في التاسعة عشرة من العمر . وكانت حازمة عاقلة يذكرون من اعمالها انها باعت مجوهراتها لتخلص مملكتها من الديون . وخلفتها على الملك ابنتها سيكاندر بيكم سنة ١٨٣٥ وهي في التاسعة عشرة من عمرها ايضاً . فارادت أن تقتدي بوالدتها في الحزم والتدبير فطافت مملكتها وتفقدت احوالها حتى عرفت ما يشوبها من المفاسد وغيرها مما يحتاج الى اصلاح . ثم أتت باصلاحات جمة ولها ذكر جميل في تاريخ الهند الحديث . وقد حجت سنة ١٨٦٣ وكتبت عن رحلتها هذه كتاباً نقل الى الانكليزية . وفي تلك السنة ماتت سيكاندر هذه وخلفتها ابنتها شاه جهان ملكة بهوبال الحالية وقد قضت على كرسي الملك نيفاً وخمسين سنة ولا تزال . وهي مشهورة بالحزم والتعقل . وقد وقفت في ٢٨ فبراير الماضي خطيبة عند وضع الحجر الاول لكلية عليكره . ومدار خطابها تحريض الامة الهندية على التعليم والتربية وبذل الاموال في سبيل ذلك . وخاطبت تلامذة تلك الكلية بما يدل على ارتفاع مداركها وعلو همتها . ولا شك انها كانت قدوة حسنة بين نساء الهند حتى انشأن مؤتمراً نسائياً عقد بالامس فألقت هي فيه اول خطبة في سبيل تربية المرأة وترقيتها

وتظهر متانة خلق المرأة على صور تختلف باختلاف احوال الامم . فتظهر في الامم المحاربة بالشجاعة في الحرب كما كانت قارا فطمة عند الاكراد

. أما المرأة العربية فتظهر متانة خلقها في تربية ابنائها وترقية نفوسهم وهي آخذة في ذلك والحمد لله . فاذا استمرت في هذا السبيل بشر الامة بالوصول الى ما تطلبه من الاخلاق الراقية اذ تكون الامهات قادرات على غرس تلك البذور في الابناء من الطفولة

الغنى والسعادة والمرأة (١)

يظن الفقير المقل أن السعادة في الغنى فهو لا يحلم بغير المال ولا يرى شيئاً ينقصه غير المال . واذا أصيب بنكبة نسبها الى الفقر وقال لو كنت غنياً لتلافيت تلك النازلة . وقد يكون في حاجة الى أمور كثيرة ولكن حاجته الى المال تسدل على بصره غشاوة فلا يرى سواه

ولا تنكر حاجة الانسان الى المال ولا نلوم الساعين في اكتسابه لانه قوة يستخدمها العاقل في كل ما يحتاج اليه من طرق معائشه . ولكننا نلوم أناساً يعمهون في الهيام به ولو كلفهم ذلك بيع أنفسهم في سبيل الحصول عليه . فكم من فتى غض الشباب طمع في المال وتقاعد عن تحصيله بالسعي والجد في صناعة أو تجارة أو عمل آخر فحوّل أفكاره الى التماسه من طريق الزواج كأني به يعرض شبابه للبيع فمن دفع الثمن الاكبر « رسا المزاد عليه » وهو قبل ان يرسو المزاد يعد نفسه بالسعادة القادمة حتى يخيل اليه ان المال سيرفعه من بين الناس الى مصاف الملائكة . واذا نصحه ناصح ان ينظر في اختياره الى غير المال ويلاحظ الادب والحشمة والصحة والتدبير وغير ذلك من ضروريات الزوجة لأجاب انه فعل ذلك أيضاً . ولكنه وأبيك لا ينظر الى غير المال . واذا ذكرت بين يديه فتاة ذات يسار ولو كانت فيها العيوب السبعة الشرعية أعماه طمعه عن سائر العيوب وحاول اقناع نفسه بانها كاملة فهو يخدع نفسه بنفسه

وبالاختصار ان صاحبنا لا يلبث ان يتزوج ويقبض المال (اذا تيسر له قبضه) حتى تذهب منه شهوة الغنى فتنقشع عن عينيه تلك الغشاوة فيرى ما جرّ نفسه اليه من الشقاء . والمال اكبر نصير عليه

يسعى الفقير يومه وليله عاملاً مجتهداً وهو يخاف ان يموت من الجوع فاذا رأى غنياً في قصره أو مركبته أو سمع بما يولمه الاغنياء من الولائم وما يتمتعون به من نعيم المجد والسؤدد تحركت فيه عاطفة الحسد وشكا سوء حظه وربما لام المدبر الاعظم ونسب شقاءه الى مقسم الحظوظ

لا يغرنك يا صاحبي ما تراه في أصحاب الاموال من الترف والرخاء وسعة العيش

---

(١) عن الهلال سنة ٨ صفحة ٣٢٥

ولا تحسب السعادة في كثرة المركبات أو ايلام الولائم ولا الراحة في اقتناء البيوت وكثرة الخدم والتأنق بالمآكل والمشرب . فان ذلك قد يدعو الى شقاء لا يقاس به شقاء الفقراء . واذا رأيت غنياً سعيداً فسعادته ليست من أمواله ولا من ألوان طعامه ولا من كثرة مركباته

تعالَ معي الى تلك القصور الباذخة بما يحفُّ بها من الحدائق الفيحاء وما في ساحاتها من الحشم والاعوان وتأمل ما في قاعاتها من الرياش الثمين وما على موائدها من آنية الفضة والذهب . لا شك انك اذا رأيت ما هنالك من الخز والاطالس والعاج والديباج هاجت فيك عاطفة الحسد وعتبت على الاقدار لانها حرمتك ومنحت الآخرين . لكن مهلاً لا تسرع في الحكم . . اخرج من قاعة الاستقبال واتبعني الى غرفة الرقاد تمهل ولا تعجل في الاستفهام عما تراه . . . أرأيت ذلك الرجل الحسن البزة الجالس على ذلك المقعد الحريري يقرأ الصحف ؟ انه صاحب المنزل وقد تحسبه مهتماً بمطالعة الاخبار وهو انما يتشاغل في تقليب الورق عما ثار في نفسه من عوامل الكدر لامور جرت في منزله على غير مرامه . وهو لا يجسر على الاعتراض مخافة الفضيحة . وكأني به يقول « أما يكفيني انشغال بالي بتاجري وأعمالي حتى اقلقت هذه المرأة راحتي بالموده والتوالت وخاصرة وبئس العادة هي » تمهل . . . ولا تضجر . . تعالَ معي الى غرفة التوالت .... خفف الوطء لئلا تزعج « المدام » وهي تصلح بدلة الرقص للذهاب الى « البالو » الليلة . ولا تستغرب تلك الآلة التي تشد بها وسطها انها آلة التبرج ويسمونها المشد . ولا تعجب لعدم انتباهها لنا فان بالها منشغل بتدبير وسيلة تقنع بها زوجها بأن الرقص مع الشبان في حفلة البالو وان كانوا غرباء انما هو من ضروريات التمدن . وان النفور من الرقص والاقتصار على السهرات البسيطة من العوائد القديمة التي نسخها التمدن الحديث . تعالَ لا تطل الوقوف اني أرى شاباً حسن الهندام في « الصالوتو » يلاعب عصاه بين اصابعه وعيناه شائعتان الى الدار . انه من جملة المدعوين الى البالو الليلة وقد جاء لزيارة المدام توطئة لاستجلاب رضاها حتى تدعوه الى الرقص معها في تلك الليلة ولا تدعو سواه . وهو يحاذر ان يراه زوجها ولذلك فهو يتظاهر بانه جاء ببواعث اخرى تتعلق ببعض المهام

لا اطيل بك الوقوف ولا ازعجك بالرواح والمجيء ولكنني اكتفت الرجوع الى

هـذا المنزل في آخر الليل او في صباح الغد فتسمع عتاب الرجل لامرأته لانها كلمت فلاناً أو رقصت مع فلان واهملت زوجها كأنه بعض خدمها . ولا يقتصر العتاب على الكلام ولكنه قد يجر الى خصام شديد يساعد على اشتداده انزعاج نفوسهم من السهر الطويل والافراط بالمنعشات والمنبهات . فيقضون اياماً لا يهنأ لهم طعام ولا يلتذون بشراب

وما الرقص الباعث الوحيد على الخصام وربما كان اضعفها جميعاً وعندك من اسباب التحاسد بين الاغنياء والتسابق الى المجد ما يجر الى اضعاف ذلك . ناهيك عن مشاغل الثروة وكثرة الانهماك بالكسب . فاذا كان الغني بخيلاً عاش عيشة الفقير ومات خائفاً من الفقر فهو اشقى من الفقير المعوز . واذا كان كريماً وانصرف الى البذخ والترف فانغمس في الملذات واسرف في شبابه من كل وجه اعتلّ جسمه إما اعتلال فتتسلط عليـه الامراض . لان الافراط في الشهوات يؤدي الى المرض . فالانهماك بالطعام والوانه يؤدي الى داء النقرس وداء آخر في الشرايين وفي القلب. والافراط بالمسكرات يؤدي الى امراض كثيرة اشتهر امرها . وهكذا الافراط في كل شيء

ولا يحتاج الانسان لقوام حياته الا الى قليل من المال لا يعجز أفقر الناس عن الحصول عليه . وما علة شقاء الفقير الا خوفه من العوز ولكننا لم نسمع أن أحداً مات من الجوع أو العري لعجزه عن الكسب . والانسان مهما يكن من ضعفه لا يعجزه تحصيل لوازم معيشته فلولا خوف الفقير من العوز لاحس بانه وحده السعيد ولا شفق على الغني المنهمك بالمكاسب المجازف في التجارات المخاطر بالمال لكسب المال فيقضي نهاره في السعي والتعب والاهتمام وليله باعمال الفكرة والخوف والاضطراب . وهو لا يحتاج لقوام حياته الى اكثر مما يحتاج اليـه الفقير وما زاد على ذلك فهو فضلة لا حاجة اليها . رحم الله الشيخ اليازجي حيث قال

ألا يا جامع الاموال هلاًّ جمعت لها زماناً لافتراقِ
أتأكل كل يوم الف كبش وتلبس الف طاق فوق طاق

والسعي في الكسب الكثير مشكور اذا كان الغرض منه محموداً وخصوصاً اذا اعتدل صاحبه في شؤونه وحافظ على صحته ولاحظ مصالح أمته وكان سعيداً في بيته. والا فان الغني المنغمس في الشهوات اما ان يموت شاباً أو ان يعيش عليلاً يشتهي

رغيفاً وبصلة في يد فقير يأكلهما بلذة واشتهاء

وأما الفقير (ولا نريد به المتسول) فانه في شاغل عن ذلك الاسراف بما يحتاج اليه من النظر في أسباب معائشه فيقضي أوقاته مهتماً في كسب ما يقوم باوده فاذا فرغ من عمله لم يبق له همٌ غير التمتع بما كسبت يداه فيأتي منزله وليس ثمت ما يدعو الى الغيرة أو التحاسد ولا هو يخاف الفقر وهو فيه ولكنه قد يكون سعيداً الى حد يفوق التصديق . لان السعادة كما قدمنا ليست في الغنى ولا هي في الفقر ! ! ولكنها في راحة الضمير والسلام العائلي . ان السعادة يا صاحبي في تدبير شؤون بيتك فاذا ربحت أموال الارض وجئت منزلك فرأيت شؤونه سائرة على غير ما ترضاه من الترتيب وتربية الاولاد وسائر أسباب الراحة فانك تبيت حزيناً كئيباً ولا يغني غناك عنك شيئاً . وأما اذا قضيت نهارك بالتعب وكان السلام سائداً في بيتك والفضيلة مخيمة فوق عائلتك فانك ترى السعادة خادمة لك

ومحور راحة العائلة أو شقائها المرأة فهي اذا كانت عاقلة مدبرة عمرت البيت وغمرته باسباب السعادة واذا كانت فاسدة الاخلاق أخربته . والعياذ بالله

فالمرأة مصدر السعادة أو الشقاء . علموها وثقفوها فتعمر بيوتكم وترفع شؤون هيأتكم الاجتماعية . التفتوا الى تعليم المرأة قبل حشد الاموال . واعلموا أن السعادة بالمرأة لا بالمال فهي اما أن تبني البيت بالفروش والبارات أو أن تخربه بلحظة ولو كان قائماً على أساطين الذهب والفضة

وخلاصة القول أن السعادة ليست بالغنى والشقاء ليس في الفقر . فان كلاً من الاغنياء والفقراء قد يكون سعيداً وقد يكون شقياً واذا بحثت عن سبب تلك السعادة أو ذلك الشقاء لم تجد لهما علاقة بالغنى ولا بالفقر . ولكنهما يتوقفان على أحوال داخلية ترجع الى علاقة أفراد العائلة بعضهم ببعض والى أخلاقهم الخصوصية وخصوصاً المرأة فانها أم العائلة ورئيستها ومصدر شقائها وسعادتها

المرأة الشرقية

امس واليوم (١)

كثر تحدث الناس في اوائل هذا العام في المرأة والحجاب على أثر ظهور كتاب « المرأة الجديدة » لقاسم بك امين صاحب « تحرير المرأة » فرأينا أن نفرد فصلاً للبحث في المرأة الشرقية وما عانته من الاحوال في اثناء القرن الماضي بعد ما طرأ علينا من عوامل التمدن الحديث مما لم يتفق للشرق في دور من ادوار عمرانه منذ الخليقة الى اليوم

ولما كان الكلام في المرأة المسلمة بنوع خاص قد وفى البحث فيه صاحب « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » ولا شأن لنا فيه ــ رأينا أن نحصر كلامنا في المرأة المسيحية في سوريا وان كانت حالها قبل عصر التمدن مثل حال المرأة المسلمة من اكثر الوجوه وخصوصاً من حيث الحجاب والحرية حتى فرّق التمدن بينهما على ما سيجيء

﴿ المرأة امس ﴾ قضت المرأة في سوريا قروناً طويلة كأنها متاع من امتعة البيت لا شخصية لها ولا حرية . لا تعرف من مجريات الكون غير ما تحتويه جدران منزلها . ولا جليس لها ولا سمير غير الخدم والعجائز . وكان رأسها فارغاً الا من الخرافات والاوهام ويدها مغلولة الا عما تقوم به من خدمة زوجها واولادها على ما كانت تقتضيه حالهم يومئذٍ من اعداد ضروريات الحياة

فقبل القرن التاسع عشر وهي في تلك الحال راضية بذلها قانعة بما قسم لها صابرة على مضض الحياة بالرغم عنها . ولا لوم عليها ولا تثريب لانها ما فتئت منذ حداثتها موضع الاحتقار والاستهزاء يتشاءمون بولادتها ويتذمرون من حداثتها ويخافون مستقبل حياتها . فاذا وُلد لاحدهم بنتٌ اشفقوا على حاله واقبلوا يعزونه ويهونون عليه كأنه أُصيب بنقمة . فتقضي تلك المسكينة سني صباها وأخوها موضع محبة الوالدين ومرجع آمالهم . فتشبُّ صغيرة النفس ضعيفة الرأي . حتى اذا ارشدت وآن زواجها اقفلوا عليها الابواب وأرسلوا الحجاب . ومنعوها من الخروج لئلا تأكلها العيون

(١) عن الهلال سنة ٩ صفحة ٣٥٠

أو تجرحها الالسن . واذا طلبها طالبٌ فانما يتقدم على ذلك بما يتوسمه في والدها أو اخيها من الجاه أو الغنى وهو لم يرَها ولا عرف شيئاً عن صحتها أو عقلها أو أدبها. واذا كان من اهل الرأي والنظر بعث والدته (أو خالته أو جارته) لتستطلع احوالها في بيتها (أو في الحمام) وقد ينحصر بحثها في قامتها وجمال عينيها ورائحة فمها. فاذا آنست الحماة من كنتها ملاطفة وانساً عادت شاكرة حامدة وليس اجمل من تلك الفتاة في عينيها فتقص على ابنها ما لقيته من لطف الوالدين وحشمة الفتاة. ومن اكبر دلائل الحشمة عندهم أن يكون للعروس « فمٌ يأكل وليس لها فمٌ يتكلم » وانها لا تعرف من الدنيا غير ما في دار والدها. وانها بسيطة ساذجة لا تعرف البارة من الغرش « ولا الخمس من الطمس » ولكنها تحسن عجن العجين وغسل الغسيل وطبخ الطبيخ

فاذا رن ذلك المديح في أذنيه عمد الى التزلف للوالد وبعث الرسل في خطبتها. ولهم في الخطبة طرق غريبة واساليب عجيبة لا محل لها هنا. فاذا اصاب الطالب استحساناً عقدوا خطبته على الفتاة وشرطوا عليه أن لا يراها قبل ساعة الاكليل

أما العروس فقد لا تسمع ذكر ذلك الخطيب الا بعد تمام الخطبة. وقد ترد عليها اخبار الجواسيس من العجائز في وصف قوته اوغناه او فروسيته او نحو ذلك فتراقب المارة من خلال الستور وكلما رأت شاباً يشبه ما وصفوه خفق قلبها فتفرح هنيهة ثم تعلم انه ليس هو. وقد تعرفه ولا تشعر بانعطاف اليه او ربما سمعت عن خلة فيه لم تعجبها فتنفر منه. وويلٌ لها اذا صبرت وويلان اذا اعترضت. والمصيبة العظمى والطامة الكبرى اذا اجتمع الخطيبان في اثناء الخطبة في مكان واحد ولو على سبيل الاتفاق فاذا لم تختف تلك المسكينة في خزانة او وراء ستار او لم تهرب الى بيت الجيران ولو أدى بها الامر الى أن ترمي نفسها من حالق — فاذا لم تفعل ذلك قالوا « لقد اهتز العرش وأجفلت الملائكة وغضب المولى الكريم »

ثم يجيء يوم الاقتران — ولا بد ان يجيء ولو طال الانتظار — فيقف الاثنان في حفلة الزفاف وهما يحاذران ان ينظر احدهما الى الآخر. ومتى تم الاقتران يقرب الخطر العظيم اذ تتصادم العواطف وتختلط الاذواق — وقد يكون بينهما تخالف او تنافر فيقضيان بقية الحياة في نكد وخصام. واذا تقاضيا فهي المحكوم عليها ولو كانت صاحبة الحق

واذا اسعدها الحظ وتقاسما اتعاب الدهر فهو السيد السند وله السلطان المطلق وما هي بالشيء الذي يستحق ان يذكر . فاذا اقتضى الحديث ذكرها قال « امرأتي اجيت نة » او عرّفها بضمير الغائبين فقال « هم » او « اهل البيت » او « الجماعة » او « أم الاولاد » وتقضي المرأة مع زوجها اعواماً وتلد له البنين والبنات ولا تذكر اسمه صريحاً ومتى عرض ذكره كنّته بابنه فقالت « ابو فلان » او عرّفته بضمير الغائب فقالت « هو » أو « سيدي » او نحو ذلك . ويمضي العمر وهي محبوسة في بيتها لا تجالس غير النساء . الا ان تخرج الى الكنيسة فتجلس لسماع الصلاة وبينها وبين الرجال حاجز . أما نهارها فتقضيه في اعداد ما يرتاح اليه الرجل ويجيء في المساء فتمدّ له المائدة وتقف في خدمته ويندر ان تواكله وخصوصاً اذا جاءهم اضياف

وقد كان لتلك الحال حسنات وسيئات . اما الحسنات فهي (اولاً) أن شؤون المرأة يومئذٍ لم تكن تقتضي من النفقة غير الحاجيات لانحباسها في منزلها وانقطاعها عن سائر الناس (ثانياً) ان زواج البنات كان سهلاً قريباً لانه كان يتوقف في الغالب على خاطر الوالدين وهم يحكمون بقانون المصلحة لا يستشيرون العواطف ولا يقيسون الاخلاق . والعقل اذا تسلط قضى بالامر سريعاً

وأما السيئات فانها كثيرة منها (اولاً) ان المرأة تقضي حياتها في الجهل وأنت اعلم بعواقب الجهالة فتتسلط على عقلها الاوهام فمتى فرغت من طبيخها وغسيلها ولم يكن عندها ما يشغلها عمدت الى الزينة والتزجيج والتخطيط والتكحيل والتخضيب وانغمست في اسباب اللهو الباطل . والعياذ بالله من البطالة وخصوصاً للنساء فانها آفة من الآفات فلا حديث للمرأة الجاهلة الا الخوض في احوال جيرانها وفيما يأكلون ويشربون ويلبسون ويفرشون وفي ما هو عندهم وليس عندها أو ما هو عندها وليس عندهم وتربو بناتها على مثالها من فساد الخلق فلا تلبث احداهنّ اذا بلغت سن الزواج أن يشتغل فكرها بامر الزواج . لا يمر عليها يوم لا تسمع به خبر خاطب أو طالب الا حسبته اطول من شهر الصوم ولا ترى عجوزاً مقبلة الا ظنتها آتية لتخطبها لبعض الشبان فتنصرف الاذهان بذلك الى ما لا يليق

ومن آفات الجهل الاعتقاد بالخرافات والسماع للعرافين والدجالين . وكثيراً ما كانت عاقبة ذلك الاعتقاد قتل الاطفال وخسارة الاموال وانثلام العرض ناهيك

بتربية الاولاد على تلك النقائص وما ينجم عنها من فساد الاخلاق وسوء التربية

(ثانياً) كانت المرأة تئن تحت نير الحكم المطلق ولا تقدر على الاستئناف فجرّها ذلك الى الخبث والرياء فاعتقد الرجال « ان النساء من طبعهن المكر والدهاء والغش والخيانة فلا ينبغي الركون اليهن أو الاعتماد على اقوالهنَّ لانهنّ ناقصات عقل ودين والويل لمن يودع سرّه عند امرأته فانها لا تلبث أن تبوح به للجيران . . » فانغرس في ذهن الرجل ان المرأة عدوة له وكلها شر وفساد حتى قال بعض الشعراء

انّ النساء شياطين خلقن لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

(ثالثاً) ان فساد ظن الرجل في امرأته حملها على سوء الظن به . فصارت تعاشره بالحذر . اذا غاب عن منزله حسبت لغيابه الف حساب واذا خاطب احداً خافت من وراء ذلك الخطاب شرّاً أو خيانة . وما أشبه ذلك بما ورد في اقاصيص الف ليلة وليلة ومرجعها كلها الى أن المرأة شر كبير وعدو خبيث

(رابعاً) اذا خطبت فتاة لشاب لا تحبه ورأت والدها مصرّاً على تزويجها به وكانت متصلبة الرأي واحبت رجلاً آخر ـ قادها استبداد والدها وساعدها جهلها على التمرد حتى تخرج من بيته خلسة وتتزوج بذاك قهراً . والامثلة من هذا القبيل كثيرة لا يزال يتحدث بها اهل هذا العصر الى اليوم

﴿ المرأة اليوم ﴾ مرّ نصف القرن التاسع عشر وهذه حال المرأة في سوريا حتى اذا حدثت الفتنة المشهورة سنة ١٨٦٠ وتقاطر المنكوبون من انحاء لبنان والشام الى بيروت حركت الشفقة بعض دعاة النصرانية من الافرنج فأسسوا المدارس للبنات فاضطر المنكوبون الى ادخال بناتهم في تلك المدارس لانها كانت تعلم البنات مجاناً وتساعد والديهنّ على كثير من حاجيات الحياة . وكانت مدارس الصبيان قد تأسست قبلها وخرج منها جمهور من الشبان المتعلمين فحثوا آباءهم على تعليم البنات فلم تمض بضع سنوات حتى تثقف في تلك المدارس جيل من البنات خرجنَ الى العالم وفتحنَ المنازل ودبرن البيوت على ما تلقينه في المدرسة من مبادىء الحرية الشخصية . وكان ذلك أول غرس التمدن الحقيقي في ربوع الشام

على ان تلك الحرية لم تبح للنساء الا بعد شق الانفس . فقضت المرأة الجديدة في سوريا أعواماً عديدة وهي عرضة لانتقاد الجمهور لا يعجبهم حديثها ولا يروق لهم لباسها ولا يرضيهم خروجها ولا دخولها . فاذا لبست البرنيطة رمقتها العيون شذراً

واذا تكلمت في موضوع بين جماعة اتهمها الناس بالوقاحة والسلاطة . ولا جرم فان ذلك طبيعي في جسم العمران لان الرجل المستبد يرى في تحرر امرأته ما يضعف نفوذه فيحركه حب الاستئثار على انتقادها ومقاومتها . كما يحدث اذا دخل العدل بلاداً تعودت الاستبداد وكانت الكلمة فيها لفئة من أهل النفوذ والطمع فان العدل يثقل على تلك الفئة الظالمة فترمي العادلين بالاستبداد وتنسب اليهم الخيانة والاجحاف حتى اذا توازنت القوى ظهرت الحقيقة واعترف بها الخاص والعام

وهذا ما أصاب المرأة في سوريا في اثناء انتقالها من عصر الجهل الى عصر العلم . ولم يعترف الناس بفضل علمها حتى اكتهل اهل الجيل الاول وشبَّ أهل الجيل الثاني فاصبح تعليم المرأة عندهم امراً مستحسناً بل فرضاً واجباً لا يختلف في صلاحيته اثنان . وأصبحت المرأة السورية ربة عائلتها وزينة منزلها وواسطة عقد الاجتماع . وهي التي تدبر شؤون بيتها باقتصادها وحكمتها وتربي اولادها بخوف الله وتعلمهم حب القريب وتبث فيهم روح النشاط والاقدام وتدربهم على حرية القول والفكر والعمل وتشارك زوجها في رأيه وتشاطره أحزانه وافراحه . فاذا غدر الزمان به اعانته واذا أصيب بلية عزته وخففت مصيبته . وهي تفعل ذلك مدفوعة بانعطافها القلبي لانها لم تتزوج ذلك الرجل الا باختيارها بعد ان عاشرته واختبرت أطواره . فكم من نساء حكم عليهنَّ الدهر بفقد ازواجهنَّ فربين اولادهنَّ بعرقهنَّ إما بالخياطة أو بالتعليم أو نحو ذلك من أشغال النساء التي يكتسبنها بالمدارس . وكلما أصغى الرجل لاقوال امرأته زادها أنفة ورزانة فتزداد عفة وصيانة

وما أغرب ما يخاف بعض الناس من تعليم المرأة فيزعمون أنها اذا تعلمت القراءة والكتابة هان عليها التغزل وانقادت الى الابتذال . والحقيقة أن مطالعة الكتب ومعرفة اخبار الناس تكسبها الفضائل كما تكسب الرجال . والمراد بالكتب (طبعاً) الكتب المفيدة المحتوية على تهذيب الاخلاق والتقوى . ولم نعرف تقوى النساء الحقيقية في بلادنا الا بعد التعليم لان ذوات التقوى والصلاح منهنَّ قبل ذلك انما كانت تقواهن عن سذاجة وجهل . فربما صلت المرأة وهي لا تعرف لمن توجه صلاتها . واذا سألتها عن حكاية موسى أو يوسف أو المسيح أو غيرهم رأيتها لا تعرف عنهم شيئاً . ونعرف امرأة قضت معظم سني حياتها وهي تصلي لبيلاطس البنطي فلما قيل لها ان الرجل ليس من القديسين في شيء وأن المسيح صلب على يده استغربت

ذلك وقالت انها رأت اسمه في الامانة الكبرى (نؤمن بإله واحد الخ) فغنته قديساً

فتعليم المرأة يرقي ذهنها في الدنيا ويسعدها في الآخرة الا اذا انقطعت الى مطالعة أقاصيص الخلاعة واستغرقت في احاديث الحب والغرام . أما في ما خلا ذلك فان اشتغالها بالمطالعة ينير بصيرتها ويشغلها عن [illegible] من الاحاديث الفارغة ويزيدها مقدرة على تربية اولادها وملاطفة زوجها وتدبير شؤون منزلها . ومن كانت هذه مشاغلها فما يخطر ببالها الاشتغال بدواعي العشق والهوى أو الجموح في الشهوات كما هو شأن النساء البطالات

وزد على ذلك ان اطلاعها على احوال الناس واخلاقهم يؤهلها لمشاركة الرجل في الرأي فيعظم شأنها عند الرجل فلا يحتمل اغواؤها وابتذالها لان ابتذال المرأة انما هو من سوء تربيتها لا من طبيعتها . لان العلم نور العقل وشأنه شأن المصباح الذي يحمله الساري ليهتدي به فاذا كنا لا نأمن المرأة على حمل هذا المصباح لئلا تحرق البيت به فما بالنا لا نحظر عليها حمل الابرة مخافة أن تفقأ بها عينيها »

وما أحسن ما جاء في بعض اقوال الشيخ احمد فارس صاحب الجوائب من مقالة في هذا الموضوع قال « فقل لي بحقك واصدق في المقال أيما اجمل بالمرأة ان تقعد مطالعة لبعض الكتب المفيدة وتقول هذه اشارة الى آية كريمة أو حديث شريف أو واقعة مشهورة أو مثل سائر أم تقول ان ضم طرفي الفرجية اشارة الى تمني الوصال أو اصلاح النقاب من أوراء اشارة الى [illegible] من جهة الى جهة يشير الى كذا وكذا » اه

ومن فضل العلم في المرأة نمو عاطفة الاحسان [illegible] ولكن نحجم عند [illegible] الجمعيات الخيرية لتربية البنات واعالة المساكين ومعالجة المرضى فيجب ان تعلمن وتثقفن وهذه الاحساسات لا تنمو الا في ظل العلم ومنبتها المدارس

❁ (استدراك) على انه نلتمس لمقاومي تعليم بعض العذر في ما سبق الى اذهانهم من اضراره . ولعلهم شاهدوا بعض اللواتي اسأن استخدام العلم وتطرفن في طريق الحرية فأدى بهن ذلك الى ما لا تنكر اضراره كالاسراف في الملابس والزينة الى حد لا تحتمله احوال رجالهن . وكاساءة لبس المشد المضر بالصحة الخانق للانفاس. ومن هذا القبيل الخروج في الرقص الى ما وراء الحد الذي وضعه أرباب هذا

الفن ـ على اننا لا نرى الرقص من ضروريات التمدن وان ظنه بعضهم ضرورياً وعدّ الفتاة التي لا تحسنه او لا تميل اليه غير تامة التهذيب . وهو مغالاة في تقليد الافرنج الى ما ينافي الطبائع الشرقية لان الشرقي مفطور على الحشمة والحياء وهما زينة المرأة وجمالها الحقيقي . ومهما قيل في جواز الرقص فلا يحسن بنا الخروج فيه عن دائرة الفطرة التي ولدنا فيها

ومما لا نستحسنه من التطرف في التمدن الحرية الزائدة في المعاشرة على مثال ما يأتيه بعض الافرنج من خروج الفتيات والفتيان معاً بغير ما يجيز ذلك من روابط القرابة . وقد قلنا « بعض الافرنج » لان ذلك مستنكر عند الافرنج من أهل الطبقة العليا الذين يدققون في مراعاة الآداب

ولا نرى استبداد الفتاة برأيها دون رأي والديها كل الاستبداد خلقاً مستحسناً فان احترام آراء الوالدين فرض مقدس

فان كانت هذه الامور وامثالها مما بغض تعليم المرأة الى اولئك فلهم بعض العذر ولكن التعليم في نفس الامر لا يدعو الى هذه النقائص وانما هي ادران في جسم التمدن الحديث يجب نزعها

الحب اختياري ام اضطراري (١)

(رد على سؤال)

[السؤال] جمعتني الصدفة ذات ليلة ببعض الاخوان فتجاذبنا أطراف الحديث فجرنا سياق الكلام الى الحب وما ينشأ منه وهل هو اختياري أم اضطراري فقال أحد الحضور اني أقول لكم بما رأيت ان الحب اختياري وذلك ان لي صديقاً كان مولعاً بحب فتاة وكنت أراه دائماً ينشد الاشعار فيها وكان يطلعني على كل شيء يجري بينهما فكنت أراه دائماً في انشغال وتشتيت بال ففي ذات يوم دخلت عليه فوجدته جالساً في حالة مخالفة لما أعهده به فسألته عن السبب فقال لي

تركت حبيب القلب لا عن ملالة ولكن جنى ذنباً يؤدي الى الترك
أراد شريكاً في المحبة بيننا وايمان قلبي لا يميل الى الشرك

فقلت وما معنى ذلك قال تركت حبيبتي وأقسم لي أقساماً معظمة انه لم يبق عنده تأثير لحب فعلمت ان الحب اختياري »

(١) عن الهلال سنة ٤ صفحة ٢٥٨

فلما سمعت ذلك استغربته ولم أصدقه حتى الآن لعلمي أن الحب قتال فجئت أتلو هذه العبارة حرفياً عليكم لكي تزيلوا عني الاوهام وتفيدوني هل الحب اختياري أم اضطراري

الحب انواع وأشكال ودرجات وطبقات ترجع كلها الى ثلاثة أقسام كبرى (١) المحبة الوالدية بين الوالدين وأولادهم (٢) المحبة الجنسية بين الرجل والمرأة (٣) محبة الاقران بين الشاب والشاب أو بين الفتاة والفتاة . ويظهر من سؤالكم انكم تريدون المحبة الجنسية فهذه اما ان تكون طاهرة أو غير طاهرة فالمحبة غير الطاهرة لا تسمى محبة حقيقية لترتبها على غرض تزول المحبة بزواله كمن يحب انساناً محسناً فاذا كف احسانه نفر منه وفي هذا النوع من المحبة تكثر الظنون وتختلف الشكوك فهي عرضة للفساد أو الزوال

أما المحبة الطاهرة ونريد بها تآلف القلوب تآلفاً نقياً طاهراً لا يخامره دنس ولا يعترضه ظن فهي اختيارية في أولها اضطرارية في آخرها على حد قول الشاعر

والحب أول ما يكون مجانة فاذا تمكن صار شغلاً شاغلا

فالحب الطاهر اذا تمكن لا ينزعه سبب من الاسباب فهو اضطراري رغم أنف المحبين والدليل على ذلك ما تسمعه وتقرأه عن أحوال العشاق العذريين الذين يحبون حباً خالصاً من كل غرض حيواني . فمجنون ليلى لم ينل وطراً من ليلى بل تزوجت بسواه ولكنه ثبت في حبها الى آخر نسمة من حياته وهي لم ترد شريكاً في المحبة فقط بل تركت الواحد وتمسكت بالآخر وقد قضى مجنون ليلى هذا معظم أيامه تائهاً باكياً ولم يحول عن حبها وهو القائل

أحنُّ الى ليلى وان شطت النوى بليلى كما حنَّ اليراع المشطبُ
يقولون ليلى عذبتك بحبها ألا حبذا ذاك الحبيب المعذبُ
فلو تلتقي في الموت روحي وروحها ومن دون رمسينا من الارض منكبُ
لظلَّ صدى رمسي وان كنت رمةً لرمس صدى ليلى يهش ويطربُ
ولو ان عيني طاوعتني لم تزل ترقرق دمعاً أو دماً حين تسكبُ

كل ذلك وهو يعتقد انها لا تحبه بمقدار حبه لها لانها قبلت بسواه وهاك قوله

فيا رب سوِّ الحب بيني وبينها يكون كفافاً لا عليَّ ولا ليا

وزد على ذلك انهم كانوا كلما منعوها منه ازداد حباً لها وثباتاً على ودها ومن ذلك قولهُ

فان تمنعوا ليلى وطيب حديثها علي فلن تحموا علي القوافيا
فاشهد عند الله اني أحبها فهذا لها عندي فما عندها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا وبالشوق مني والغرام قضى ليا
يقولون ليلى أهل بيتي عدوة وأفديك يا ليلى بنفسي وماليا
يقولون ليلى بالعراق مريضة فيا ليتني كنت الطبيب المداويا
يقولون سوداء الجبين ذميمة ولولا سواد المسك ما كان غاليا
خليلان لا نرجو لقاء ولا ترى خليلين الا يطلبان التلاقيا
واني لاستحييك ان أعرض المنى بوصلك أو ان تعرضي في المنى ليا
فيا رب اذ صيرت ليلى هي المنى فزني بعينيها كما زنتها ليا
والا فبغضها الي وأهلها فاني بليلى قد لقيت الدواهيا
على مثل ليلى يقتل المرء نفسه وان كنت من ليلى على اليأس طاويا

وهاك ما قاله كثير في عزة

فقلت لها يا عز كل مصيبة اذا وطنت يوماً لها النفس ذلت
أسيئي بنا أو احسني لا ملومة لدينا ولا مقلية ان تقلت
هنيئاً مريئاً غير داء مخامر لعزة من اعراضنا ما استحلت

ومما يدل على اضطراره للحب مع انه يود التخلص منه قوله

أريد لانسى ذكرها فكأنما تمثل لي ليلى على كل مرقب

وهاك ما قاله جميل في بثينة

خليلي فيما عشتما هل رأيتما قتيلاً بكى من حب قاتله قبلي
أبيت مع الهلاك ضيفاً لاهلها وأهلي قريب موسعون ذوو فضل
فلو تركت عقلي معي ما طلبتها ولكن طلابيها لما فات من عقلي

وقوله

يا ليتني ألقى المنية بغتة ان كان يوم لقائكم لم يقدر

وقس على ذلك ما يقوله الشعراء الذين ابتلوا بالهوى العذري على ان الناس يتفاوتون شعوراً وأخلاقاً فمنهم المخلص والثابت والمتردد والفاتر . وتختلف شدة الحب باختلاف الاعمار فالانسان في أوائل شبابه اكثر ميلاً الى الحب فاذا لم يحب فتاة أحب شيئاً آخر وقد يحب صناعة أو تجارة وترى اللواتي لا يتزوجن من بنات الافرنج

يربين الكلاب أو بعض انواع الطير ويحببنها حباً شديداً فكم سمعنا بمن ناحت على كلبها او طيرها لفراقه أو موته ذلك لان المحبة من جملة الحاجات الطبيعية . على اننا نعرف أناساً لا أثر لعاطفة الحب الحقيقي فيهم وهم قليلون

ماهو الحب (١)

(رد على سؤال)

[السؤال] بينما كنت أروض نظري في مجلتكم الغراء اذ عثرت على سؤال لاحد الافاضل في الجزء السابع من السنة الرابعة في (هل الحب اختياري ام اضطراري) ولدى مطالعتي جوابكم اشتاقت نفسي الى معرفة ماهية الحب وما هي درجته واسماؤها بالترتيب وهل من الضروري ان يكون الحب متبادلا بين المحب والمحبوب وهل في عصرنا هذا من بلغ به الحب درجة مجنون ليلى وكثير وجميل وغيرهم من العشاق المذريين

الحب أساس العمران وواسطة عقد الاجتماع وخلاصة النواميس الادبية واكسير الفضائل البشرية وهو مهذب النفوس ومرقي العقول ومحيي العواطف ولولاه لكان الانسان وحشاً ضارياً ولانفصمت عرى الاجتماع فبطلت العائلات وبادت الامم وهلك نوع الانسان

وقد بحث الناس في أصل الحب وفلسفته وأسباب ظهوره فيسيولوجياً أو تشريحياً أو طبيعياً فلم يهتدوا الى تعليل يرتاح اليه العقل وعندنا انه سيال من السيالات العصبية يشبه المغنطيسية الحيوانية كثيراً أو لعله نوع من الجاذبية العامة التي تربط الاجرام السماوية بعضها ببعض وعليها تتوقف الموازنة بين السماء والارض . ونسبة الحب الى جسم العمران كنسبة الجاذبية الى جسم الكون . أما ماهية سيال الحب فلا يمكن تصورها كما اننا لا نستطيع تصور ماهية "السيال" الكهربائي او المغنطيسي ولكننا نحكم عليها كلها بالنسبة الى ظواهرها

هـذا ما يقال في الحب قولا عاماً من وجه فلسفي أما عند التفصيل فالحب انواع ذكرناها في جوابنا الذي أشرتم اليه

أما مراتبه فكثيرة لا تكاد تحصى وقد يعسر تمييز الحدود بينها فنكتفي بذكر

---

(١) عن الهلال سنة ٤ صفحة ٦٥٨

أشهرها: أول درجات الحب «الارتياح» وهو ان يرتاح الانسان لمشاهدة الآخر أو مجالسته أي انه يسر بذلك بلا جاذب ولا دافع. ثم «الميل» وهو ان يرتاح المرء الى الشيء مع ميل اليه. ثم «الرغبة» وهي ان تريد الشيء مع الحرص عليه. ثم «الاشتياق» وهي الرغبة في الشيء مع نزوع النفس اليه. ثم «الهوى» وقد بدأ الثعالبي به فجعله أول مراتب الحب. ثم «العلاقة» وهي الحب اللازم للقلب. ثم «الكلف» وهي شدة الحب. ثم «العشق» وهو اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه الحب. ثم «الشعف» وهو احراق الحب القلب مع لذة يجدها وكذلك اللوعة واللاعج فان تلك حرقة الهوى وهذا هو الهوى الجوى. ثم «الشغف» وهو ان يبلغ الحب شغاف القلب وهي جلدة دونه. ثم «المحرق» وهو الهوى الباطن. ثم «التيم» وهو ان يستعبده الحب (ومنه سمي تيم الله أي عبد الله. ومنه رجل متيم). ثم «التبل» وهو ان يسقمه الهوى (ومنه رجل متبول). ثم «التدليه» وهو ذهاب العقل من الهوى (ومنه رجل مدلهٌ). ثم «الهُيُوم» وهو ان يذهب على وجهه لغلبة الهوى عليه (ومنه رجل هائم). وأخيراً «الجنون» وهو آخر مراتب الحب

أما تبادل الحب بين المحب والمحبوب ففيه نظر. والمشهور على الالسنة ان تبادل الحب ضروري ويعبرون عن ذلك بقولهم «القلوب شواهد». وعندنا أن هذه القاعدة تصدق غالباً لا لسر غامض بل لاسباب بسيطة يدركها كل من راقب ماجريات الحوادث المتعلقة بهذا الموضوع. مثال ذلك ان عمراً اذا أحب زيداً انما يحبه غالباً لارتياحه الى أخلاقه وهو لم يرتح اليها الا لانطباقها على أخلاقه هو فالغالب ان زيداً يحب عمراً أيضاً للسبب عينه فيظهر ذلك مظهراً يعبرون عنه بشهادة القلوب وقس عليه. فتبادل المحبة غالبٌ ولكنه ليس ضرورياً

أما العشق في عصرنا فلا يختلف عما كان في سائر الازمان الا بما اقتضته العادات الحادثة. أما القلوب والعواطف فلا تزال كما كانت منذ بدء العمران أو لعلها صارت اكثر قبولاً لتأثير عوامل الحب بما أحدثه التمدن الحديث فيها من التهذيب

الحب الجنسي وفراسة الوجه[1]

وللناس فيما يعشقون مذاهب

قد يقع نظر الشاب على فتاة فلا يهمه أمرها ولا يتحرك قلبه نحوها وربما نفرت نفسه منها فيراها صاحبه فيتعشقها ويهيم بحبها وربما أغضب الاهل والخلان من أجلها ولسان حاله يقول :

رأوها بعين غير عيني فاصبحت قلوبهم فيها مخالفة قلبي

على ان الجمال بحد نفسه لا يخلو من شروط عامة يعترف بها الاكثرون فيجمع أهل البلد الواحد على الاعتراف بجمال فتاة من فتياتهم يجعلونها محور اعجابهم يتحدثون عنها في مجالسهم ويضربون بها الامثال في احاديثهم فهذه وامثالها من ربات الجمال لا دخل لهن في هذا البحث اذ ليس المراد بالحب مجرد الاستحسان أو الاعجاب انما نريد به تجاذب القلوب الى حد التكافف حتى لا يرى المحب في حبيبه غير الجمال ولو لم يستطع اثبات ذلك بالبرهان وحتى يشعر بتمازج الروحين واتحاد القلبين فلا يبقى سبيل للوم اللائمين ولا نصيحة الناصحين واذا عوتب على جنونه قال قول الشاعر :

جرى حبها مجرى دمي في مفاصلي فاصبح لي عن كل شغل بها شغل

فاذا سمعه صديقه يقول ذلك استغربه لانه لا يرى في محبوبه ما يبعث على هذا الهياء وربما رأى فيه ضد ما رآه صاحبه ـ فما هو السبب في هذا التباين أو التضاد ؟

ان هذا البحث قد شغل اذهان العلماء من قديم الزمان فكانوا في الاعصر القديمة ينسبونه الى تلاؤم الابراج وتوافق المواليد أو الاسماء أو نحو ذلك من خرافات القدماء . ولا يزال من أثر هذا الاعتقاد على ألسنة عامتنا قولهم اذا تحاب اثنان « ان نجميهما اتحدا أو توافقا » فلما بطل التنجيم ورجع الناس الى الحقائق المبنية على المشاهدة والاختبار عللوا ذلك التجاذب بالمغنطيسية الحيوانية حتى اذا اكتشفوا ما اكتشفوه من الاسرار الطبيعية واستشفوا ما وراء مكتشفاتهم من الاسرار الغامضة التي يتوقعون كشفها في مستقبل الزمن نسبوا ذلك التجاذب الخاص بين المحبين الى توافق « كهربائيتهما » ـ يريدون أن في الناس قوة كالكهربائية تتفاوت شدة وضعفاً

(١) عن الهلال سنة ١٣ صفحة ٤١٣

وتختلف ايجاباً وسلباً باختلاف الاشخاص حتى اذا التقى شخصان وتوافقت كهربائيتهما تجاذب قلباهما وتحابّا — وهو قولٌ يدلُّ على رغبتنا في التعليل مع جهلنا حقائق الامور

وتفنن آخرون في تعليل واسطة ذلك التجاذب فجعلوه في العيون وعبروا عن فعله بالسحر الذي يقول فيه الشاعر

عيونٌ عن السحر المبين تبين ... لها عند تحريك الجفون سكونُ
اذا أبصرت قلباً خلياً من الهوى ... تقول له كن عاشقاً فيكونُ

ولم يقولوا ذلك عبثاً لما في العيون من الدلال على الاميال والعواطف على حد قول التعاويذي

عيناك قد دلّتا عينيَّ منك على ... أشياء لولاهما ما كنت رائيها
والعين تعلم من عيني محدثها ... ان كان من حزبها أو من اعاديها

على ان هذا ايضاً لا يعلل سبب التجاذب الخاص بين اثنين لا يرى الناس باعثاً عليه

وآخر من نظر في هذا الموضوع جورج ميترس أحد ادباء الانكليز فقد تفرغ للبحث فيه بحثاً استقرائيًّا فجعل رائده المشاهدة والتحري ودليله القياس العقلي فتوصل الى نتيجة مرجعها الى شكل الوجه في المحبين . وقد دوَّن رأيه في مقالة طويلة نشرتها مجلة الستراند وخلاصتها أنه وجد بالاختبار في نفسه وفي كثيرين من اصحابه وغيرهم ان التجاذب بين المحبين يرافقه على الغالب تباين في شكل الوجه ويشتد التجاذب بينهما كلما تباعد الشبه بين وجهيهما . فالوجه المستطيل يجتذب الوجه المستعرض وصاحب الانف الكبير يجذبه صاحب الانف الصغير وبارز الجبهة يحب غائرها وجاحظ العينين تسحره العيون الغائرة وأسود العين يحب صاحب العين الزرقاء ومستدق الانف يحب مستعرضه وكلما تعددت أوجه الاختلاف بين المحبين توثقت عرى المحبة بينهما

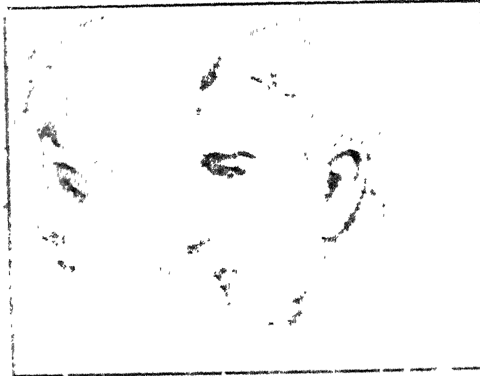
فالوجوه تختلف باختلاف اصحابها حتى لا تكاد ترى وجهين متشابهين تمام المشابهة لتعدد أسباب الاختلاف . اذ لكل عضو من أعضاء الوجه عدة أوجه للاختلاف فالفم مثلاً يختلف طولاً واتساعاً وبروزاً واطمئناناً وثخانة ورقة وتقوساً واستقامة . وقس على ذلك اختلاف شكل الشفتين ثخانة ولوناً واختلاف الانف والعين والحاجب والوجنة والذقن والجبهة وغيرها . وتختلف هذه الاشكال تقارباً وتباعداً

باختلاف الامم واكثر الامم تناسباً في اشكال وجوههم القوقاسيون وأوسطها شكلاً الوجه المعبر عنه بالوجه اليوناني أو الروماني لان اعضاءه متوسطة الحجم وفيها تناسب



زوجان وجه احدهما مستطيل ووجه الاخر مستعرض

وشكله وسط بين الطول والقصر والعرض والضيق فاذا جعلنا هذا الوجه القاعدة الاساسية فكل ما يختلف عنه عدّ خارجاً فاذا برز الانف اكثر من بروزه فيه عدّ بارزاً أو انخفض عنه عدّ منخفضاً وقس على ذلك سائر الاعضاء



الاختلاف التفصيلي في تقاطيع الوجه

والاختلاف في شكل الوجه إما ان يكون عامّاً من حيث هيئته الاجمالية أو تفصيلياً بالنظر الى أعضائه . في الحالة الاولى وجد ميرش المشار اليه أن صاحب

الوجه المستطيل يحب صاحبة الوجه المستعرض والعكس بالعكس . وصاحب الوجه البيضي يتعشق صاحبة الوجه المربع . وقد أتى بامثلة كثيرة سمى اصحابها . وفي الشكل الاول صورة زوجين اشتهرا بالمحبة الشديدة عرفهما الكاتب المذكور

وأما الاختلاف التفصيلي بين الوجوه فعلى اشكال ويظهر غالباً بالتصوير الجانبي ("بروفيل) فيظهر بروز الانف أو اطمئنانه وطوله أو قصره وبروز الذقن أو نزوله . وفي الشكل الثاني مثال من هذه الاختلافات وبالنظر الى الرسم كفاية فان جبين الرجل فيه طويل وجبينها قصير وعينه أفقية وعينها مائلة وانفه بارز كبير مستدق وأنفها غائر قصير مستعرض وقس على ذلك سائر أعضاء الوجه فيهما

فالقاعدة العامة عند صاحب هذا الرأي ان الاوجه المتخالفة تجاذب والمتشابهة تدافع وتذكرنا قاعدته هذه بناموس التجاذب في الكهربائية أي ان الكهربائية الايجابية تجذب السلبية وبالعكس فالكهربائيتان المتخالفتان تتجاذبان والمتشابهتان تتدافعان . واذا أردنا تطبيق هذه القاعدة على الحب رأيناها تصدق على ما بين الجنسين من التجاذب العمومي أي التجاذب بين الذكر والانثى على الاجمال . وأما قاعدة ميترس فيشبهها رغبة الانسان في الغريب او ميله الفطري الى تكميل ما فيه من النقص باصلاح النسل باجتماع المتباعدين فيخرج من نسلهما خلق وسط . وقد أتى ميترس المشار اليه بأدلة كثيرة لاثبات رأيه قال أنه شاهدها بنفسه وتحققها بالمقابلة والاستقراء ومع ذلك فان رأيه لا يزال محلاً للنظر والانتقاد حتى يؤيده التواتر . ولا يعسر على قراء الهلال تطبيق هذا الرأي على من يعرفونهم من الازواج العشاق - والبحث يكشف الحقيقة

المرأة العربية

قبل الحجاب و بعده [1]

تمهيد

ان مسألة الحجاب والمرأة الشرقية أو العربية من المسائل الحيوية التي تمس مصالح الامة العربيـة ويتوقف عليها مصيرها في تيار هذه المدنية . ولذلك خاضت فيها أقلام الكتاب من أول هذه النهضة . ولعل أول من طرق هذا الموضوع من كتابنا المرحوم الشيخ احمد فارس الشدياق في الجوائب بالاستانة منذ نحو نصف قرن . ثم تناولتها الاقلام في سائر انحاء العالم الاسلامي ولا سيما مصر

واختلفوا في هل تبقى المرأة على حجابها أو لا بدَّ لها من تركه ؟ وتضاربت أدلتهم وتباينت آراؤهم . وما اختلافهم في الحقيقة الا تنازع بين القديم والحديث مثل اكثر ما يقع من الاختلاف في الاصلاح الاجتماعي الذي يخالف ما ألفه الناس وتعودوه حتى رسخ في نفوسهم . فتتصادم الافكار ويذهب كل فريق الى المغالاة في تأييد رأيه وتحقير رأي مناظره . ويغلب أن يكون كلاهما متطرفاً والحقيقة بينهما تجلي مع الزمان

وكنا في جملة من خاض عباب هذا الموضوع في الهلال وغيره من وجوه مختلفة ونحن باحثون فيه الآن من الوجهة التاريخية . فان الدليل التاريخي من أقرب الادلة الى الصواب . وقبل التقدم الى الموضوع نقول كلمة في المرأة وفي الحجاب

المرأة

اختلف العلماء في المرأة من حيث عنصرها وفطرتها وتناقضت أقوالهم في ذلك تناقضاً غريباً . واكثر الطاعنين فيها من رجال الدين قال ترتوليان « المرأة باب جهنم » وقال القديس برنار انها « آلة ابليس » وقال القديس انطونيوس انها « معمل اسلحة الشياطين وصوتها فحيح الافعى » وقال القديس بونافنتوري انها « عقرب متهيئة للدفع أو هي بال الشيطان » وقال ارميا انها « باب الجحيم وطريق الاثم وسم

(١) عن الهلال سنة ٢٢ صفحة ١٦٣

العقرب » وقال يوحنا الدمشقي انها « ابنة الغش وعدوة السلام » والقديس غريغوريوس قال انها « سامة كالصل وحقودة كالتنين » . وقد تباحث اللاهوتيون طويلاً في هل للمرأة نفس . وهي تعد عند اكثر الامم القديمة من قبيل المتاع حتى في انكلترا الى أوائل القرن الماضي فقد كان للرجل ان يبيع امرأته في المزاد العمومي . وقال الشاعر العربي :

ان النساء شياطين خلقنَ لنا نعوذ بالله من شر الشياطين

وبالغ آخرون في طيب عنصرها وفضائلها فقال بوفي « نحن مدينون للمرأة بحياتنا وبما يساعدنا على احتمالها » وقال غيره « للمرأة سلطة في نظرائها اكثر نفوذاً من القوانين ودموعها أقوى حجة من الشرع » وقال آخر « ان الرجل الذي يعامل المرأة بغير الاحترام الشديد ليس رجلاً حقيقياً » وقال آخر « تبدأ الاعمال العظيمة أولاً بالمرأة » وغالى آخرون في أهمية المرأة حتى قال أحدهم انها أصل كل شيء لان جرثومة الاولاد فيها . وان العلم سيصل قريباً الى التوليد بالكيمياء بدون واسطة الرجال

وقال آخرون قولاً وسطاً وفرق بين امرأة وامرأة كما يفرق الناس بين رجل ورجل . لكنه بالغ في الفرق بين النساء فقال « اذا كان الفرق بين الرجل والرجل كالفرق بين السماء والارض فالفرق بين المرأة والمرأة كالفرق بين السماء وجهنم » ولعل هذا القول أقرب الى الصواب . وأقرب منه ان المرأة على ما تربو عليه وتنشأ به ولله در القائل :

فهي شيطان اذا أفسدتها واذا أصلحتها فهي ملك

على انهم اختلفوا ايضاً في حجابها وتطرفوا في أحكامهم . فقالت طائفة بوجوب حجبها لان رفع الحجاب يأول الى فسادها . وقال آخرون باطلاق سراحها لان الحجاب يضعفها ويجحف بحقوقها . والحكم في ذلك يختلف باختلاف الحجاب المراد هنا

ما هو الحجاب

الحجاب حجابان : ١ ستر العورة ٢ الاحتباس في المنزل . فالاول يراد به اتخاذ الخمار ونحوه مما نراه كل يوم . وهو قديم عند اكثر الامم الشرقية قبل النصرانية

وبعدها ولم تغير النصرانية شيئاً منه . وظل معروفاً في اوربا الى الاجيال الوسطى وما بعدها ولا تزال آثاره باقية هناك الى الآن . وقد اتخذته بعض الامم لرجالها فضلاً عن النساء كدولة الملثمين في المغرب وقبيلة الطوارق الآن . وليس هو الحجاب الضار واذا روعي الاعتدال فيه كان لازماً للمرأة يزيدها حشمة ووقاراً ولا سيما في الشرق لانه اكثر انطباقاً على طبائع الشرقيين وعاداتهم

واما الحجاب الذي يراد به حبس المرأة في المنزل لا تفارقه الى الموت مع منعها من مخالطة الناس فقد شاع في الشرق في أثناء التمدن الاسلامي . على انه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة الا بعد نضج المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين وركونهم الى الترف والرخاء . فالمرأة البدوية كانت مساوية للرجل ونبغ من مضارب البادية نساء اشتهرن بالشجاعة والاقدام والحزم والرأي والتجارة والادب والشعر وغيرها كما سيجيء . فلما انتشر الاسلام وكثرت الجواري وشاع التسري في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة وساء كل منهما الظن في صاحبه . والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيّق على المرأة الدروب واقام عليها الارصاد والعيون من اوائل الدولة الاموية اذ اتخذوا الخصيان من العبيد ثم استقدموا الصقالبة البيض

فالحجاب الضيق على نحو ما هو شائع في العائلات الاسلامية بالشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده باهل بيته واستئثاره بالملذات لنفسه . وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الاذهان . لانك لو راجعت ما جاء في القرآن من هذا القبيل لرأيت تفسيره اقرب الى ما يراد من رفع الحجاب . ولكن الناس تعودوا ان يفسروا الآيات الدينية بما يوافق عاداتهم او اغراضهم او اميالهم . اعتبر ذلك في كل دين تمدن اهله وعمدوا الى تفسير كتبه — فكتب النصارى مثلاً ليس فيها نص صريح يمنع عامتهم من التزوج بامرأتين فاكثر . ولكن الكنيسة رأت الاقتصار على امرأة اقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع . وكان ذلك شائعاً في الدولة الرومانية فاستخرج رؤساء الدين ذلك من بعض القرآن بالتفسير والتأويل . والمسلمون لما استكثروا من الجواري وساءت الظنون بينهم وبين نسائهم وأرادوا الحجر عليهن لم يعدموا تفسيراً يساعدهم على ما ارادوا فحبسوا المرأة وضيقوا عليها . واعتقدت هي بتوالي الاجيال انه يحل للرجل ما لا يحل لها فصبرت عليه وخافته لكنها لم تحبه . فخافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزاً وغادرها تجالس الخدم والعبيد والجواري

واصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يحادثها الا نادراً واعلن ارتيابه من امانتها واصبح يفتخر بانها لا تخرج من منزلها الا الى القبر

هذا هو الحجاب الذي نشكو منه ـ لا ستر العورة ـ لان المرأة قد تغطي رأسها او وجهها وتخالط الناس وتعمل اعمال الرجال . وبعد هذا التمهيد نأتي بالامثلة من حال المرأة العربية قبل هذا الحجاب وبعده

المرأة العربية قبل الحجاب

نعني حال المرأة قبل ان استبد الرجل فيها وحبسها وساء ظنه بها . ويشتمل ذلك على حالها في الجاهلية وصدر الاسلام . كانت المرأة العربية في تلك المدة راقية النفس متينة الخلق قوية الارادة ونبغ من العرب نساء اشتهرن بالتعقل والحكمة والدهاء كان لهن تأثير كبير في احوال الهيئة الاجتماعية والانقلابات السياسية . حتى ظهر منهن من تولت الملك وقادت الجند وشادت الممالك . وهو عصر المرأة العربية الذهبي فانها ماتت نفسها بعده ودفنت مواهبها ولم تحاول النهوض من تلك الكبوة الا الآن

ومع سقم تاريخ الجاهلية وضياع اكثر حوادثه لم نعدم ما يدل على رقي المرأة في ذلك العصر بايراد اخبار اللواتي نبغن فيه وهن اقسام :

(١) النساء اللواتي تولين الملك وقبضن على أزمة السياسة

(٢) اللواتي اشتهرن بالحزم والتعقل

(٣) اللواتي اشتهرن بالشجاعة والفروسية

(٤) الكاهنات

(٥) الشهيرات في الشعر والادب

١ — الملكات العربيات

لا يمكننا استقصاء اسناد الملك الى النساء في الجاهلية الاولى لضياع اخبار تلك الامم واختلاطها . ولكننا نعلم ان المرأة كان لها شأن في دولة الحمورابيين فتولت المناصب السياسية والقلمية

الملكات في دولة الانباط

وأقدم الدول العربية التي نبغ فيها الملكات العربيات ممن وصلنا خبرهن دولة الانباط . فقد توالى من ملوكها في بطرا من سنة ١٦٩ ق م ـ ١٠٦ ب م نحو ١٨

ملكاً فيهم خمس ملكات : الاولى الملكة خلدو زوجة الحارث الرابع وقد شاركته في الحكم باوائل تاريخ الميلاد . يليها شقيلة امرأته الثانية حكمت بعدها معه وقد حكموا جميعاً من سنة ٩ قبل الميلاد الى ٤٠ بعده . ثم شقيلة الثانية امرأة ملك ثاني حكما من سنة ٤٠ ــ ٧٥ م وبعدها شقيلة اخرى والدة ربال الثاني ابن مالك وكانت وصية عليه وخلفتها معه جميلة امرأته . وكلهم حكموا من سنة ٧٥ ــ ١٠١ م فيظهر أن هؤلاء الانباط كانوا يشركون نساءهم في الحكم كما تفعل ارقى الامم المتمدنة الآن . وقد انكر بعض الباحثين كون الانباط عرباً لان لغتهم آرامية لكننا بينا في « تاريخ العرب قبل الاسلام » ان هذه اللغة كانت لغة السياسة والكتابة في الامم السامية في ذلك العصر كما كانت اللغة اللاتينية لغة العلم في أوربا الى عهد غير بعيد . وكما هي الفرنساوية لغة السياسة في أوربا والفارسية لغة الطبقة الراقية في الشرق الاقصى الآن

زينوبيا ملكة تدمر

ويلي دولة الانباط دولة عربية ظهرت في تدمر في القرن الثالث للميلاد . لم يطل عمرها لكنها خلفت ذكراً لا يمحوه كرور الايام بنبوغ اعظم ملكة عربية نعني « زينوبيا » ملكة تدمر ويسميها العرب « الزباء » والباحثون مختلفون في هل الزباء هي زينوبيا نفسها لكن الارجح انها هي وان اختلفت اللغة المنقوشة على الآثار للسبب الذي قدمناه عن عربية الانباط . واختلفت الروايات بين ما رواه الرومان عن زينوبيا وما رواه العرب عن الزباء لكثرة ما طرأ على روايات العرب من التشويش بالتناقل السماعي اجيالاً متوالية

وُلدت زينوبيا في تدمر واسمها الاصلي « بنت زباي » وكانت بارعة في الجمال العربي سوداء العينين نافذة اللحظ لؤلؤية الاسنان قوية البدن عالية الهمة حازمة واسعة الاطلاع . وكان لها شأن عظيم في التاريخ فامتدت سيطرة تدمر في أيامها على قسم عظيم من المملكة الرومانية الشرقية في أواسط القرن الثالث للميلاد . وكانت في بادىء الرأي تحت رعاية الرومان ثم خرجت من طاعتهم وطاردت جنود الروم حتى استولت على مصر والشام والعراق وما بين النهرين وآسيا الصغرى الى انقرة . واجتمع تحت لوائها جند من الروم والعرب والارمن وغيرهم

فخافها الروم وجند أورليان في بيزانتين وحمل عليها . وكانت كثيرة الاعتماد على رجالها العرب والارمن ولم تكن تثق ببقاء أهل الشام على ولائها لان اهل المدن لم

يخفوا شبه تلك السيادة البدوية . وكان في جند زينوبيا جمٌّ غفير من الروم فالتقت جنودها بجنود اورليان في انطاكية وحمص وتراجعت مغلوبة لكنها كتبت الى اورليان تقول انها لم تخسر من رجالها احداً لان الذين قتلوا في المعارك انما هم الروم . فهاج قولها اهل مدائن الشام فتكاتفوا وتفانوا في نصرة أورليان خوفاً من تغلب رجال زينوبيا وهم عرب جفاة اهل بادية فيستبدون بهم

على ان زينوبيا ضيقت على اورليان بدهائها لكنه تمكن اخيراً من حصار تدمر بما بذله من المال في تفريق كلمة العرب . فلم ترَ زينوبيا خيراً من الفرار الى الفرس فاقتص الروم آثارها حتى قبضوا عليها فخاف التدمريون وسلموا سنة ٢٧٢ م وقبض اورليان على خزائن المدينة وعفا عن اهلها واطلق سراح زينوبيا وقتل مشيرها . فقضت بقية حياتها مع ابنائها في طيبور كما يعيش اهل السكينة من ارباب المعاشات

وكانت زينوبيا غريبة في اطوارها لم ينبغ مثلها في النساء شجاعة ودهاء وشدة فضلاً عن جمالها وهيبتها . وكانت سيرتها اقرب الى سير الابطال منها الى سير النساء . كانت تجالس قوادها واعوانها وتباحثهم واذا جادلتهم غلبتهم بقوة برهانها وفصاحة لسانها . لا يقف بين يديها قادم الا خرّ ساجداً جرياً على عادة الاكاسرة . وكانت تتشبه بهم في تدبير قصورها واستعراض جنودها . فهي من نوادر النساء اللواتي تفتخر الامم بامثالهن

بلقيس

ومن الملكات العربيات اللواتي وصلتنا اخبارهن في الجاهلية الملكة بلقيس . ويظهر مما رواه العرب عنها انهم يريدون بها ملكة سبا الوارد ذكرها في التوراة ولها مع سليمان حديثها المشهور . فاذا صح زعمهم اقتضى ان تكون من اهل القرن العاشر قبل الميلاد . لكن يؤخذ من نسبها عندهم انها من حمير وقد نبغت في اواسط القرن الرابع للميلاد فاما انها غير ملكة سبا واختلط امرها على رواة الاخبار فظنوها اياها . أو انها ملكة سبا واشتبه عليهم نسبها . لكنها في كل حال ومهما تخلل اخبارها من الخرافات والمبالغات فالتواتر يدل على أنها ملكة عربية حكمت في جنوبي بلاد العرب وكان لها شأن في تاريخهم — وليس هنا محل تحقيق ذلك

هذا أهم ما وصلنا خبره من ملكات العرب في ذلك العهد البعيد ولا بدّ من نبوغ كثيرات منهن في الحزم والشجاعة والتعقل لم يصلنا خبرهن

ومن هـذا القبيل من نبغ قبيل الاسلام من النساء صاحبات الوجاهة والنفوذ وان لم يتولين الملك . مثل هند بنت النعمان وسكينة بنت الحسين وماء السماء بنت عوف بن جشم ويقال انها تولت الملك . ومن نسلها كبار ملوك الحيرة وينسبون اليها . وكانت صاحبة منزلة رفيعة يهاديها الاكاسرة بالجواهر ويفتخر العرب بها

٢ — صاحبات التعقل والحزم

اكثر من وصلتنا اخبارهن من هؤلاء نبغنَ في اثناء الانقلاب الاجتماعي العظيم الذي حدث قبيل الاسلام وعند ظهوره — نذكر اشهرهنّ :

(١) خديجة بنت خويلد : كانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال تنتقي من اشتهر من الرجال بالامانة والحزم فتستأجرهم بمالها وتضاربهم اياه بشيء تجعله لهم . فلما سمعت بشهرة النبي قبل الدعوة بالامانة وكرم الاخلاق بعثت اليه أن يخرج في مالها تاجراً الى الشام وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من الرجال . فلما افلح في تجارته عرضت عليه أن يتزوج بها فأجابها . وهي اول من اسلم وقد نشطته للقيام بالدعوة فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه أو تكذيب له فيحزنه فيخبرها به الا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه وما زالت على ذلك حتى ماتت

(٢) عائشة بنت أبي بكر زوج النبي : كانت من اقوى النساء خلقاً واوسعهم عقلاً واثبتهم قدماً في ما تقصد اليه من رأي أو عمل . فضلاً عن فصاحتها وعلمها بالحديث والطب وغيرهما . وتأثيرها في مجاري السياسة في صدر الاسلام أشهر من أن يذكر

(٣) اسماء بنت أبي بكر : أخت عائشة وتسمى ذات النطاقين . تزوجها الزبير بن العوام فولدت له عبد الله وعدة ابناء . ويدل على تعقلها وحزمها وعلو همتها حديثها مع ابنها يوم حاصره الحجاج بن يوسف في مكة وضيّق عليه وكانت قد عميت فجاءها لما اشتد به الضيق وتفرق عنه اصحابه فقال لها « يا أماه قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ولم يبقَ معي الا اليسير والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟ » فقالت « أنت أعلم بنفسك فان كنت تعلم انك على حق واليه تدعو فامض له فقد قتل عليه اصحابك ولا تمكن من رقبتك غلمان بني أمية . وان كنت انما اردت الدنيا فبئس العبد أنت اهلكت نفسك ومن قتل معك . وان قلت — كنت على حق فلما

وهن جنبي ضعفت – فهذا ليس فعل الاحرار ولا اهل الدين . لمَ خلودك في الدنيا؟ القتل أحسن »

فقال « يا أماه أخاف ان قتلني أهل الشام ان يمثلوا بي ويصلبوني »

قالت « يا بني ان الشاة لا تتألم بالسلخ فامض على بصيرتك واستعن بالله »

فقبل رأسها وقال « هذا رأيي والذي خرجت به دائباً الى يومي هذا . ما ركنت الى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها . وما دعاني الى الخروج الا الغضب لله وان تستحل حرماته ولكنني أحببت ان أعلم رأيك فقد زدتني بصيرة . فانظري يا أماه اني مقتول في يومي هذا فلا يشتد حزنك وسلمي الامر الى الله . فان ابنك لم يتعهد ايثار منكر ولا عمل بفاحشة ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في أمان ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد ولم يبلغني ظلم عن عمالي فرضيت به بل أنكرته ولم يكن شيء آثر عندي من رضا ربي. اللهم لا أقول هذا تزكية لنفسي ولكنني أقوله تعزية لامي حتى تسلو عني »

فقالت أمه « أرجو ان يكون عزائي فيك جميلاً . ان تقدمتني احتسبتك وان ظفرت سررت بظفرك . اخرج حتى أنظر الى ما يصير أمرك »

فقال « جزاك الله خيراً فلا تدعي الدعاء لي »

قالت « لا أدعه لك أبداً فمن قتل على باطل فقد قتلت على حق »

ثم قالت « اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل . . وذلك النحيب والظمأ في هواجر مكة والمدينة وبره بابيه وبي . اللهم قد سلمته لامرك فيه ورضيت بما قضيت فاثبني فيه ثواب الصابرين الشاكرين »

فتناول عبد الله يديها ليقبلهما فقالت « هذا وداع فلا تبعد » فقال لها « جئت مودعاً لاني أرى هذا آخر أيامي من الدنيا » قالت « امض على بصيرتك وادن مني حتى أودعك » فدنا منها فعانقها وقبلها فوقعت يدها على الدرع فقالت « ما هذا صنيع من يريد ما تريد » فقال « ما لبسته الا لاشد متنك » قالت « فانه لا يشد متني »

فنزع الدرع ودرج كميه وشد أسفل قميصه وجبة خز تحت أثناء السراويل وأدخل أسفلها تحت المنطقة وخرج مستقتلاً . فقاتل حتى قتل سنة ٧٣ هـ وتفرق أصحابه

(٤) الخنساء : الشاعرة الشهيرة . أنها كانت من متانة الخلق وثبات العزم بحيث سرّها ان يقتل أبناؤها في سبيل الحق بواقعة القادسية وكانت قد أدركت الشيخوخة

فشهدت تلك الواقعة وحرضت أبناءها الاربعة على الثبات في القتال. فلما حمي الوطيس تقدموا واحداً واحداً ينشدون الرجز يذكرون فيه وصية والدتهم حتى قتلوا عن آخرهم فلما بلغها الخبر قالت « الحمد لله الذي شرفني بقتلهم »

(٥) عائشة بنت طلحة بن عبيد الله : وأمها أم كلثوم بنت أبي بكر كانت أشبه النساء بخالتها عائشة زوج النبي . وكانت من أجمل خلق الله . ومع ذلك كانت متانة خلقها وثقتها بنفسها لا تستر وجهها من أحد . فعاتبها زوجها مصعب بن الزبير فقالت « ان الله تبارك وتعالى وسمني بميسم جمال أحببت ان يراه الناس ويعرفوا فضله عليهم فما كنت لاستره ووالله ما فيّ وصمة يقدر ان يذكرني بها أحد » واشتهرت عائشة هذه بالجسارة وقوة الجأش وسعة العلم . وكانت تجالس الرجال وتباحثهم بالادب والشعر وسائر علوم الجاهلية وكانت تحضر مسابقة الرماة وتناضل بينهم . ولها هيبة وسطوة وأخبارها كثيرة .

(٦) هند بنت عتبة بن ربيعة القرشية : والدة معاوية بن أبي سفيان كانت لها أنفة ورأي وعقل وكانت تشهد المواقع مع زوجها أبي سفيان بحروبه مع المسلمين .وشهدت واقعة أُحُد وهي تحرض الناس على القتال وخلفها النساء يضربن بالدفوف ولما انتهت الواقعة وقد قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي يومئذ وهو من أعداء زوجها بقرت بطنه واستخرجت كبده فلاكتها فلم تطق اساغتها . ولم تسلم الا يوم فتح مكة وكان لها اخت اسمها فاطمة تشبهها بالتعقل والشدة وفيها ادب وفصاحة

(٧) ام الخير : بنت الحريش بن سراقة البارقية : كانت من المتكلمات البليغات وفيها جرأة وتعقل ولها مواقف مع معاوية بن أبي سفيان في مجلسه تدل على قوة النفس ورباطة الجأش لا محل لها هنا

ومن قويات الخلق كبيرات العقل من نساء الجاهلية وصدر الاسلام ام حكيم بنت عبد المطلب وسفانة بنت حاتم طي وسلمى بنت عمر وغيرهن

٣ — صاحبات الشجاعة والفروسية

كانت النساء في الجاهلية يخرجن مع الرجال بحروب يضربن بالدفوف ويحرضنهم على الثبات . وقد نبغ في اثناء الفتوح الاسلامية كثيرات اشتهرن من البسالة والفروسية ما يعجز عنه الرجال — منهن :

(١) بكارة الهلالية : كانت فضلاً عن شجاعتها فصيحة اللسان شاعرة ناثرة شهدت واقعة صفين مع علي بن أبي طالب ولها هناك مقالات حماسية جعلت من سمعها يتفانى في محاربة الامويين ولها شعار ضغن فيهم . ولما صارت الخلافة الى معاوية وذهب علي وحزبه قالت في ذلك :

قد كنت اطمع أن اموت ولا ارى فوق المنابر من أمية خاطبا
فالله أخر مدتي فتطاولت حتى رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم للزمان خطيبهم بين الجميع لآل احمد عائبا

وجاءت معاوية في شيخوختها فذكر بعض الحضور قولها هذا فلم تنكره وقالت بل « قلت أكثر من ذلك وهذا لا يمنعني من برك » فسألها عن حاجتها فقالت لا حاجة لي الآن وانصرفت

(٢) خولة بنت الازور الكندي : أخت ضرار كانت مشهورة بالشجاعة والجمال وخرجت مع أخيها الى الشام عند فتحها . واظهرت من الفروسية ما يقصر الرجال عنه

(٣) الزرقاء بنت عدي بن قيس الهمدانية : وهي ممن شهدن صفين وكانت باسلة بليغة تحرض القوم بخطبها ولما صارت الخلافة الى معاوية استقدمها اليه وحادثها فلم تبال أن تعترف له بما قالت ضده في ذلك اليوم

(٤) كبشة بنت معدي كرب الزبيدي : أخت عمر بن معدي كرب المشهور بالصمصامة . وكانت تشبهه بالشجاعة فضلاً عن الجمال والذكاء وكثيراً ما تحضر المواقع وتحرض قومها على الثبات

(٥) ليلى بنت طريف : أخت الوليد بن طريف الشيباني الخارجي كانت تبارز الرجال في مواقف القتال ولما قتل أخوها صبحت القوم وعلى جسدها الدرع ولامة الحرب وجعلت تحمل على الناس

ومن شهيرات النساء في الشجاعة عمرة بنت دريد وناجية بنت ضمضم وعمرة بنت علقمة الحارثية التي شهدت واقعة أحد ووقع لواء قريش في ساحة القتال فلم يزل صريعاً حتى أخذته عمرة هذه فرفعته لهم فلاذوا بها

غير اللواتي كن يطفن ساحة الحرب في أثناء القتال ليسقين الجرحى ويضمدن جراحهم وهن كثيرات . ولا تزال هذه العادة جارية في نساء البادية الى الآن

٤ — الكواهن

ومما يدل على قوة المرأة في الجاهلية وصولها الى درجة الكهانة . واشتهرت عدة كواهن كان لهن شأن عظيم مثل ظريفة كاهنة حمير صاحبة حديث سيل العرم . ومهما حذفنا من المبالغات المروية عنها فانها لا تزال مثالاً للتعقل والحكمة والسطوة . وفاطمة بنت مر الخثعمية المشهود لها بالفراسة وبعد صيتها في الكهانة . وناهيك بسجاح بنت الحارث التميمية فانها لم تقنع بالكهانة فادعت النبوءة والتف حولها جمع كثير لدهائها وبلاغتها حتى قادت اكابر قومها الى رأيها . ولم تستطع ذلك لولا ما كانت فيه من قوة العقل ومتانة الخلق وكبر النفس

٥ — النابغات في الشعر والادب

اما النساء اللواتي نبغن في الشعر والادب في الجاهلية وصدر الاسلام فكثيرات ونكتفي بالاشارة الى ذلك لشهرته وخوف التطويل . ولاننا اردنا بالمقابلة بين المرأة قبل الحجاب وبعده اظهار الفرق بينهما في الاخلاق الراقية والنفوس الكبيرة التي عليها تتوقف حال الامة ومستقبل ابنائها . وقد رأيت حال المرأة قبل الحجاب ومن نبغ منهن في اثناء ظهور الاسلام ولا شك أنهن كنّ عوناً كبيراً للرجال في اثناء ذلك العمل العظيم

المرأة العربية بعد الحجاب

بلغ الحجاب حدّه في اواسط الدولة العباسية وما بعدها من الاجيال الاسلامية الوسطى . فتمّ الحجر على المرأة واصبحت حبيسة في منزلها لا تعرف ما وراءه لما توالى عليها من الضغط والذل واحاط بها من سوء الظن فما كانت عاقبة ذلك عليها ؟ كيف كانت حالها في الهيئة الاجتماعية في اثناء ذلك الحجر بالمقابلة مع ما كانت عليه قبله ؟ هل ظهر شيء من مواهبها ؟ والجواب على الاجمال انها دفنت حية فذهبت مواهبها وماتت اخلاقها وضاع استقلال فكرها . فخسرت الامة نصف قوتها المعنوية لان المرأة الراقية الخلق اكبر عون لرجلها في اعماله واحواله . والحجر عليها وسوء الظن بها لا يبقيان على الاخلاق بل هما من دواعي افسادها . فمحط شأن المرأة

الشرقية واشتهرت بضعف الخلق حتى ظن غير العارف من كتاب الافرنج ان ذلك من فطرة الشرقيين الاصلية . ولكن الباحث يراها عارضاً طرأ عليها بعد ذلك الحجر . لان المرأة الشرقية التي لم تخضع للحجاب كل الخضوع - كأهل البادية والقرويين الذين تخرج نساؤهم اليوم للعمل في الحقول او للبيع في الاسواق - تجدها قوية النفس متينة الخلق . وكذلك نساء البادية لا يزلنَ نحو ما كنَّ عليه في الجاهلية وصدر الاسلام . وهنَّ اقرب الى ذلك بنسبة بعدهنَّ عن المدنية . لان الحجاب على اشده في اهل الحضارة والثروة ويقل تأثيره كلما بعد عن المدائن والقصور . وبين اللواتي كسرن قيود الحجاب من نساء القاهرة اليوم كاتبات في الصحف وخطيبات على المنابر كارقى الامم المتمدنة . لكنهن قليلات لا يزيد عددهن على عدد اصابع اليد الواحدة

عاقبة الحجر

مضى على الحجاب الشديد نحو الف سنة لم نسمع في اثنائها صوتاً للمرأة العربية ولا رأينا لها عملاً - الا ان يكون من شعر او ادب . وقد يقال انها انقطعت الى تربية ابنائها وتدبير منزلها وهما اهم واجباتها الطبيعية التي خلقت لها . لا جدال في ذلك . لكنها قبل ان تتولى هذا العمل المقدس يجب ان تستعد له استعداداً يجعل عملها مثمراً ثمراً صالحاً . لان الامة نسيج الامهات فكما يكنَّ تكون . ولذلك وجب ان تكون المرأة ذات اخلاق راقية واطلاع واسع ونفس كبيرة ومبادئ صحيحة . وهذا لا يتأتى مع الحجر وسوء الظن والبعد عن المجتمعات العمومية . وانما يكون بالتعليم والتدريب ولا سيما في هذا العصر . فان تمسك الشرقيين بالحجاب جعلنا بعيدين عن اسباب هذه المدنية فوقفنا والناس سائرون

كانت المرأة العربية في اوائل الاسلام مثال الانفة واستقلال الفكر وقوة العقل والنفس . وكانت المرأة الغربية في غياهب الجهل والذل . فلما استبحر عمران المسلمين واشتد الحجر على المرأة في اثناء الاجيال الاسلامية الوسطى انحطت اخلاقها حتى صارت الى ما يشبه المروي عنها في الف ليلة وليلة . فان هذه القصة الخيالية فيها مبالغات كثيرة لكنها تمثل الآداب الاجتماعية في تلك العصور المظلمة . وتدل على سوء ظن الرجال في المرأة او سوء الظن المتبادل بينهما . وتدل دلالة صريحة على ان الحجاب لا يمنع وقوع الفساد والخيانة

وبعكس ذلك المرأة الافرنجية فان مدنية اوربا رفعت شأنها واطلقت حريتها ورقت اخلاقها بالتعليم والتربية حتى صارت الى ما نعلمه من الرقي الاجتماعي . واصبحت من اكثر العوامل تأثيراً في الهيئة الاجتماعية عندهم حتى عزمت على مسابقة الرجل في كل شيء كما هو معلوم . ونبغ منهن نساء تولين الحكم وانشأن الجمعيات واسسن المشروعات الاقتصادية والاجتماعية . غير من اشتهر فيهن من العالمات والشاعرات والمكتشفات . واذا كان في هذه المدنية مفاسد نسائية فقد زادها تطرفهم في الحرية لكن السبب الرئيسي انما هو فساد الطبيعة البشرية . ولذلك رأينا الحجاب لم يقوَ على منع ذلك الفساد . فالحجر على المرأة بقصد منع الفساد ضرب من الوهم . وقد يكون باعثاً على الزيادة في ذلك بسبب سوء الظن الذي يؤول الى التنافر . لان المرأة لا يعصمها الا قوة ارادتها وكبر نفسها ومعرفتها قدر العفة . وهذا لا يكون بالحجر والضغط

الحجر على المرأة وسوء الظن بها قد يبعدها عن أسباب الفساد خوفاً من رجلها أو ولي أمرها . وأما مطلقة الحرية فانما يعصمها عن الرذائل متانة خلقها ومعرفة قدر الفضيلة . وقد يتوهم الناشيء في الحجاب ولا يعرف سواه ان المرأة لا يحفظ عفتها غير الحبس والمراقبة الشديدة وهذا وهم . فان في التاريخ أدلة عديدة على تفاني المرأة الافرنجية في الامانة لزوجها حتى تضحي بحياتها ولا تخونه . والمرأة المحتجبة اذا فعلت مثل ذلك لا يظهر فضلها فيه لانها مكرهة عليه

نتائج رفع الحجاب

ورأينا بعض المدافعين عن الحجاب يبالغون في الاضرار الناجمة عن رفعه واكثرهم يعنون بالحجاب النقاب وستر العورة فهذا لا أهمية له في نظرنا اذ لا بأس من بقاء الغطاء . وانما المهم اطلاق سراح المرأة من محبسها لتخرج الى العالم فتتلقى العلم وتطلع على احوال الاجتماع وتتعلم قواعد المعاملة وتعرف ما لها وما عليها . على اننا نوافق المدافعين عن الحجاب في ان السفور واطلاق سراح المرأة دفعة واحدة قد يؤولان الى الفساد ويعودان بالضرر . لان ذلك يخالف سنن الاجتماع ولا بد من التدرج في رفع الحجاب بتهيئة الافكار له واعداد الامة لقبوله بالتعليم والتربية بحيث ترتقي العقول وتتهذب النفوس ويصبح الناس عارفين بحقائق الامور ويألفون رؤية المرأة السافرة خارج الحجاب فيقل تطلعهم الى ما تحت نقابها كما هو شأنهم في من يرونهن من نساء

الافرنج السافرات . ومرور المرأة الافرنجية السافرة لا يستلفت الانظار كمرور المحتجبة

فاذا تهيأت الامة لقبول ذلك وأطلق سراح المرأة تدريجاً ارتقت الهيئة الاجتماعية وتغيرت حالنا وصرنا الى ما نتطلبه من اتحاد الكلمة والثبات في المبادىء لان ذلك كله من وحي الامهات يرضعنه ابناءهن مع اللبن . اعتبر ذلك بما فعله الاتراك من هذا القبيل فان الطبقة الراقية منهم علمت المرأة وحلت قيودها فكانت عوناً كبيراً لهم في ما نهضوا له من طلب الحرية واعلان الدستور . وقد برهنت المرأة التركية فعلاً على أن المرأة الشرقية اذا أعطيت الحرية لا تقل عن سائر نساء العالم المتمدن قدرة على النهوض بالامة ورفع شأنها وهي محفوظة الكرامة مصونة الجانب

وناهيك بما في الحجاب من الظلم وبخس الناس اشياءهم . ان للمرأة ما للرجل من الحق في التمتع بحريتها التي وهبها الله اياها

على اننا لا نرى رأي المتطرفين في حرية المرأة الذين يطلبون مساواتها بالرجل حتى تسابقه في اعماله العملية والسياسية وانما نريد حفظ كرامتها وترقية نفسها وتعليمها حتى تقوم بواجباتها الطبيعية في المنزل حق القيام . ولا سيما من حيث تربية ابنائها على الاخلاق الفاضلة والمبادىء القويمة . فتعلمهم معنى الوطنية الصحيحة وتبث في نفوسهم استقلال الفكر والمحافظة على الوقت والاعتراف بالخطأ والوفاء بالوعد والجرأة في سبيل الحق والثبات في المبدأ وصدق اللهجة وغير ذلك من الاخلاق الراقية التي نحن في حاجة اليها اكثر من حاجتنا الى سواها من اسباب المدنية . وهذه لا ترسخ في نفوس الناشئة الا اذا رضعوها مع اللبن . ولا يتأتى ذلك ان لم ترتق اخلاق الام بالتربية الصحيحة ويتثقف عقلها بالعلوم النافعة . وأما ما أتينا به من الامثلة عن نساء الجاهلية وصدر الاسلام في اول هذه المقالة فقد أردنا به الاشارة الى ما كانت عليه المرأة من قوة النفس ومتانة الخلق بالنظر الى تلك الاعصر

الحماة والكنة(١)

(رد على سؤال)

[السؤال] جرى على الالسنة ان الحماة والكنة ضدان لا يتفقان وضرب بهما المثل في شدة التنافر حتى قيل في كل اثنين اختلفا انهما مثل الحماة والكنة والذي اراه انهما يجب ان تكونا مثالا في الوفاق لان الحماة التي تحب ولدها يجب ان تحب زوجته لانها تعلم انه لم يخترها رفيقة لحياته الا لانه احبها ووضع كل آماله فيها فيقضي الحنو الوالدي عليها بالحنو اليها ومحبتها واعتبارها بمنزلة ولدها . والكنة تعلم ان حماتها انما هي سبب وجود زوجها وهي التي ربته وهذا عليه الفضل الاعظم فيجب عليها ان تحترمها اكراماً له وان تتخذها بمنزلة والدتها لانها اصبحت أحق بها من والدته ولذلك قلت انهما يجب ان تكونا مثالا في الوفاق والذي نراه خلاف ذلك فما سبب هذا التضاد وما الوسيلة لملافاته ؟ افيدونا ولكم الفضل .

الحماة والدة ربت ولدها مذ كان في احشائها الى ان دب ثم شبَّ وهي لا تغفل ساعة عن حراسته والحنوّ اليه جاع او عطش أو توجع وكم قضت من الليالي ساهرة لا تعرف الرقاد جاثية الى سريره تغذيه بلبنها وتضمه الى صدرها . اذا بكى ربته واذا مشى استعاذت بالله من عيون الناس عليه لا يرتاح لها بال الا اذا كان الى قربها فاذا غاب عن عينيها شيعته عواطفها وحام حوله قلبها وهي لا تعرف موضعاً لآمالها الا فيه وقد تنسى سائر الناس في سبيل مرضاته واستجلاباً لراحته . فاذا شبَّ أخذت تفكر في زواجه وقد تشرع في ذلك وهو غافل عنه فكلما رأت فتاة تنظر اليها بعين المنتقد لعلها تؤانس فيها ما يؤهلها لاكتساب قلب ولدها الذي هو اعز الناس عندها ولا ترى بين اقرانه اكمل منه ولا اجمل وقد يخيل اليها ولا سيما في هذا الزمن ان آمال البنات حائمة حولها وانهنَّ انما يكرمنها او يحترمنها استجلاباً لرضاها لعل اختيارها يقع على واحدة منهنَّ وهي لذلك لا تزداد الا اعجاباً بولدها ولا سيما اذا كان اهلاً لذلك فلا تعود تعلم على من تجعل اختيارها منهن وهي في كل حال تحسب اختيارها لفتاة اكبر منة لها عليها لاعتقادها ان البنات قلما يعثرن على مثل هذا النصيب . ثم اذا وقع اختيارها على فتاة واعجبت انها لا تلاقي منها ومن اهلها اثناء الخطبة الا الاحترام والاكرام فتزداد اعجاباً بولدها وتنتظر وقت اقترانه بفروغ صبر حتى تتمتع بما تنتظره من الاحتفاء والاحتفال جزاء ما قضته في تربية ولدها من الاتعاب لتكون هي الآمرة

(١) عن الهلال سنة ١ صفحة ٢٧٥

ناهية يرجع اليها الاثنان ولا سيما كنتها في كل امر كبيراً كان او صغيراً

أما الكنة فهي في الغالب فتاة ربيت في حجر والديها لا تسمع منذ نعومة
أظفارها الا تحدث الناس في البنات والتشاؤم بولادتهن وتعوّذ الوالدين بالله من
شرهن حتى اذا شبت لا تعود تذكر ذلك لما تراه من احتفاء الشبان بها وتسابقهم
الى مشاهدتها وتقديمها في الاجتماعات العمومية والاصغاء الى حديثها وتكاثفهم على
اكتساب رضاها وان كان ذلك لا يخرج عن حدود الملاطفة الخارجية . الى أن تقع
من قلب بعضهم موقعاً حسناً ويعقد النية على خطبتها فيجتهد في استمالتها وبذل الوسائل
في مرضاتها واذا اتيح له محادثتها جعل مدار كلامه بث ما لها في قلبه من المكانة وما
يرجو لها من السعادة المستقبلة فاذا خطبها لا تسمع منه الا الاطراء في خصالها والمبالغة
في حبه لها وتكريس حياته من اجلها والسعي في ما يجلب لها السعادة . واول شيء
يتوخاه في حديثه واعماله اقناعها أن لها في قلبه المكان الاول وانه انما يريد الحياة
من اجلها وانه لم يشعر عمره بمثل ما شعر به نحوها الى غير ذلك مما يجعلها تطير على
اجنحة الآمال وتتيه في عالم الخيال وتتمثل لها السعادة عبداً رقاً فتتوق الى يوم يتم لها
فيه الموعد فتصبح صاحبة البيت ورئيسته والآمرة الناهية فيه تقوم باستقبال زائريها
وتستعد للقيام بالواجبات البيتية كما كانت والدتها في بيت أبيها لانها ستكون في مستقبل
أيامها رئيسة لعائلة جديدة مستقلة عن عائلة حميها

فاذا تمّ لها الامر ودخلت بيت حميها لا تلبث برهة حتى ترى خلاف ما انتظرت
وهكذا ايضاً حماتها . لان كلاً منهما كانت تعتقد أن ذلك الزواج سيكون سبباً لراحتها
واستقلالها والترأس على البيت فترى خلاف ما انتظرت فيقع التنافر بينهما . ويساعد
على ذلك ما بينهما من اختلاف الذوق على نسبة اختلافهما في السن والتربية وسائر
انواع المعيشة . فيزداد التنافر وقد تستحيل ازالته الا اذا كانت احداهن حكيمة
طويلة الاناة وذلك ينتظر غالباً من الحماة لانها اكبر سناً ولانها كانت يوماً ما كنة وهي
اولى بملافاة الامر والدعوة الى ائتلاف القلوب

وعلى الكنة أن تكون اقرب الى الاذعان لحماتها واحترامها وبالاجمال نقول أن
ملافاة ذلك الخصام يقوم بامر وهو في غاية البساطة يتكفل بازالة كل اسباب الخصام
نريد به أن عقد الزواج المقدس يجعل بين الحماة والكنة رابطة مقدسة أشبه شيء
برابطة الوالدة بولدها فاذا اعتبرت الحماة الكنة ابنة لها واعتبرت الكنة حماتها بمنزلة

والدتها هان كل عسير على شرط ان تعتقد كل منهما ذلك باخلاص وصدق طوية

والرابطة الوالدية التي تستحدث بين الحماة والكنة بواسطة الزواج ليست من قبيل الفرض بل هي حقيقة شائعة عند جميع الامم فان الحماة عند الانكليز تسمى mother-in-law أي « والدة بحسب الشريعة » والكنة daughter-in-law أي « ابنة بحسب الشريعة » وأما الفرنساويون فيسمون الحماة belle - mère أي والدة جميلة والكنة belle-fille أي ابنة جميلة وهو تعبير يدل على ما يؤيد قولنا لان الجمال وصف يدل على المحبة . وفي الحالين نرى أن الشرائع توجب الائتلاف بين الحماة والكنة والهيئة الاجتماعية تدعو اليه والعقل السليم يحكم بوجوبه ولا سبيل اليه الا بمعاملة كل منهما الاخرى بما بين الوالدة والولد بكل اخلاص . فعلى الحماة محبة كنتها وعلى الكنة احترام حماتها فيمتنع كل ما يدعو الى التنافر ويغلب تسلط السلام والسكينة . أما اختلافهما في الذوق فلا يقف في سبيل ذلك لانه لا يخرج عما هو عاديّ بين الاولاد ووالديهم لاختلاف ما ربيا عليه وتعوداه ولا نراه يؤول الى مثل ما يؤول اليه بين الحماة والكنة . والسبب في ذلك اخلاص المحبة وحسن النية قولاً وفعلاً فينظر كل منهما الى اعمال الآخر بعين الرضي وعين الرضي عن كل عيب كليلة

الزواج بالمراسلة (١)

(رد على سؤال)

[السؤال] قد اطلعتم بلا ريب على الاعلان الذي نشر في جريدة الاهرام تحت عنوان « طالبي الزواج » وبما ان الاعلان المذكور قد نال شهرة عظيمة جئنا نرجو من فضلكم ان تبدوا رأيكم الصريح فيه من وجهتيه الادبية والمدنية الامضاء (١١٠٣)

الزواج عقد ارتباط يبرم تحت شروط معلومة بين الرجل والمرأة غايته حفظ النوع

وكيفية التوصل الى عقد ذلك الارتباط تختلف في كل قوم باختلاف عاداتهم وأخلاقهم وأزمانهم . أما في مصر وسوريا فكانت العادة أن يتزوج الشاب اعتماداً على شهادة والديه أو أحد ذوي قرباه أو معارفه . وسبب ذلك في الغالب ميل أهل هذه البلاد الى التحجب فلا يستطيع الشاب مشاهدة الابنة الا خلسة لا تفيده في معرفة

أخلاقها ومداركها شيئاً فلا بد له من الاعتماد على شهادة والدته أو احدى صاحباتها فيقصصنَ عليه ما شاهدنه من سواد عيني تلك الفتاة وبياض وجهها ولين قوامها فيؤثر ذلك الوصف في عقله على نسبة ما بالغوا فيه وما تخيل له فيبعث والديه أو بعضاً من ذوي قرباه ليعقدوا له عليها وقد لا يراها حتى يتم الاقتران . ولا يخفى ما في هذه العادة من الخطر اذ ربما كان بين الزوجين تنافر في الطباع يجعل حياتهما أشقى من حياة ساكني السجون

ولكن هذه العادة قد أخذت بالزوال ولا سيما بين المسيحيين فصار الشاب يتردد على بيت الابنة أياماً ويتحرى سيرتها وأخلاقها بنفسه فاذا تحقق لديه موافقتها له عقد عليها وهي العادة الجاري عليها أهل اوربا كافة والمظنون انها أفضل وسيلة وأحسن طريقة الا اذا تخللها من الشطط والتهور والاساءة ما يجعلها أخطر من العادة الاولى

أما الزواج بالمراسلة فعادة حديثة في أميركا وأوربا وقد سمعنا ممن زاروا تلك الاصقاع وقرأنا في جرائد القوم ان السيدات أيضاً يعرضنَ أمر الزواج ويطلبن أزواجاً يشترطنَ فيهم شروطاً محدودة كما يفعل الرجل . وقد يرفق الرجل أو المرأة اعلانه برسمه ولهم في ذلك أساليب وطرق متنوعة . وفي كل حال فالشرفاء منهم يستنكفون من الاتيان بمثل هذا الزواج

أما في بلادنا فلم نسمع بحصوله الا مرة وعلمنا بعد ذلك انها كانت على سبيل المجون أو المزاح

وقد اوعز الينا بعضهم ان هذه المرة أيضاً من قبيل المجون فانكرنا عليه ذلك وربما انكرناه على أنفسنا لو حدثنا بشيء من مثله اذ يبعد عن اعتقادنا ان يكون بين شباننا من لا يعرف للعرض قيمة ولا يراعي للمخدرات حرمة فيستنزلهن الى مكاتبته ويغريهنَّ على مساومته استجلاباً لضحكه او تمضية لساعات بطالته . على ان مثل هذا لو وجد بيننا فالتجاهل عن وجوده أولى بنا والتعامي عن معرفة اسمه افضل لنا. وما شأننا فيما نقوله الا شأن الناظر الى ما قيل لا الى من قال

وقد آن لنا الان ان نجيب على سؤال حضرة المقترح فنقول : لا نحسب الزواج بالمراسلة الا شيئاً بعيداً عن اذواق المشارقة ومضراً بهم ادبياً ومدنياً ودينياً . فالزواج على هذه الصورة اشبه شيء بعقد تجاري يتم بالمساومة لا ينظر فيه المتعاقدان الا الى وجه الربح المادي . فمثل الرجل منهما في ذلك مثل من يعرض مستقبل حياته

للمبيع بثمن يحدده على نسبة ما تقوده اليه مطامعه من احوال الدنيا لانه لم ينظر في طلبه من اوجه المناسبة في الفتاة التي يريدها الا الى ماليتها وظواهرها وسنها وصحتها. فلو كان توفُّر ذلك في فتاة يضمن له الراحة لكان خيراً ولكنه تجاهل أمراً هو أهم ما تتوقف عليه سعادة الانسان أو شقاءه نعني به الاخلاق فانها محور حياة الزوجين اذ قد يكون بين اخلاقه واخلاقها تنافر لا تنزعه ثروة قارون ولا صحة شمشون ولا يصلحه جمال سلمى ولا دلال ليلى. ويا لتعاسة الزوجين اذا تخالفت طباعهما وتنافرت اخلاقهما ولا سيما اذا كان زواجهما بالمراسلة بغير أن يجذبهما جاذب المحبة اذ قد يتغاضى المحب عن زلات حبيبه وعين الرضى عن كل عيب كليلة

أما الفتاة عند المشارقة فجمالها الحياء وزينتها الصمت فاذا خرجت عنهما الى مراسلة طالبي الزواج ومساومة النفوس فقد ابتذلت نفسها وعرضت بضاعتها وكل معروض مهان

فما اجدر ذوات الخدر بالانزواء وراء الف حجاب والصمت عن كل خطاب من حسر برقع الحياء وعرض أنفسهنّ عرض السلع وبيع حياتهنَّ بيع المتاع

بتنا بالامس نشكو امتهان السيدات وطلب المهور (الدوتات) ولكننا نشكو اليوم عرضهن للمبيع بالمساومة فيا حبذا الحجاب ولو بولغ فيه ورعياً للعقد على يد الاقارب والاصحاب فان فيه حفظاً لكرامة البنات وصيانة لمقام العائلات

ناشدتك الله اخبرني أيها الشاب كيف ترضى الاقامة مع من زفّت اليك نفسها وساومتك ثمنها وأنت تعلم أنها لم ترضَ بك الا يأساً من نيل سواك أو رغبة في مجرد الزواج — ولا تقل حباً بحسن خصالك لانها لم تعرفك الا بالمراسلة. كأن الزواج ضرب من ضمان الاطيان أو مقاولة على توريد بعض المواد. هل فاتك ان اول شروط ذلك العقد المقدس المحبة الطاهرة وملاءمة الاخلاق فاذا خلا منهما كان عقداً فاسداً الا اذا جوّزت لنفسك وقررت في ذهنك أن تعمد الى استبدال تلك الزوجة استبدال المتاع اذا لم تؤانس منها ما ترتاح اليه نفسك فتعلن مرة أخرى وتشترط شروطاً أوضح والبلية الثانية شر عن الاولى

وأنتِ أيتها الفتاة كيف ترضين المعيشة مع من عرض نفسه لسواك على ألسنة الجرائد أم كيف تحبينه وأنت لا تعرفينه بل كيف تراسلينه ولم تعرفي من اسمه الا ارقاماً

ولو راجعنا تواريخ الاقدمين على اختلاف الطبقات والنزعات من الانبياء الى الفلاسفة فالعلماء ومن الملوك الى الامراء فالصعاليك لا نرى احداً بينهم قد خطا مثل هذه الخطوة لا سهواً ولا عمداً بل نراهم مجمعين على أن التمنع والحياء افضل ما تتزين به العذارى

هذا ونرجو أن لا يقع كلامنا هذا موقع الاهانة الشخصية لدى أحد لاننا انما نخاطب شخصاً وهمياً . وقد أحسن حضرة المقترح باخفاء اسمه اطلاقاً للقلم وتوسعة لنا في ابداء رأينا

امتهان السيدات واستبدادهن [1]

(رد على سؤال)

[السؤال] قد اطلعت على جوابكم المنون « الزواج بالمراسلة » المندرج في العدد الرابع من مجلتكم الغراء فذ كرتم قد نطقتم بلسان المشاركة كافة وشرحتم حقيقة آرائهم واستوجبتم شكرهم وثناءهم

وقد أذكرني قولكم « بتنا بالامس نشكو امتهان السيدات الخ . » مسألة طالما خامرت ذاكرتي وكثيراً ما ترددت في فهم حقيقتها وهي اننا من جهة نشكو امتهان السيدات وطلب السوقات ومن جهة أخرى نشكو استبدادهن وتقدمهن على الرجال في المعاملات والمعاشرات والاجتماعات واذا مشت مشى الى يسارها واذا دخلا دخلت أمامه واذا جلسا كانت الجالسة أولا واذا تكلما تقدمته بالقول والرأي الى غير ذلك مما اكتسبناه من عادات الافرنج . ولم اكن لاهتدي الى طريقة أعلل بها هذا التناقض فتيتكم راجياً ابداء رأيكم في كيف نشكو احتقارهن واستبدادهن في وقت واحد ولكم الفضل (ر . ن .)

المرأة بالطبع اضعف من الرجل . وقد جاء في الكتب المنزلة ان الرجل رأس المرأة وان للذكر مثل حظ الانثيين . وقد اتفق الانبياء كافة على وجوب خضوعها له وائتمارها بأمره ولكنهم حكموا على الرجل بحبها واكرامها مراعاة لضعفها كأن يكون ذلك من قبيل الشفقة عليها

والعادات المشرقية وخصوصاً العربية كانت جارية على مقتضى ذلك بالفطرة . ولما كان الرجل اقوى من المرأة وله عليها الافضلية شرعاً وطبعاً كان له اولية الاختيار في أمر الزواج فهو الذي يطلب الاقتران وينتقي الفتاة التي تحسن في عينيه فيخطبها

(١) عن الهلال سنة ١ صفحة ١٥٧

من والديها ولم يكن للفتاة شيء من ذلك ولكن الوالدين كانوا مخيرين في قبول ذلك الطالب اما من تلقاء انفسهم او بمشورة ابنتهم

ولما كان الرجل لا ينتقي لنفسه الا ما يراه موافقاً له ، وهو في الغالب لا يطلب الا من يظنها افضل من سائر ابناء صفها مع مراعاة النسبة بينه وبينها ، كان مطالباً بارضائها وارضاء والديها . ولذلك فهو يتوخى كل ما من شأنه ان يقربه من رضاء التي ارادها قرينة له . وهذا امر طبيعي جار في سائر انواع الحيوان من ادناها الى اعلاها فان الذكر فيها كلها هو الطالب وهو الذي يبذل جهده في ارضاء التي يحبها حتى اصبحت ذكور الحيوانات على توالي الازمان اجمل من اناثها وهو ما يدعوه علماء الحيوان بالانتخاب الجنسي . لان الذكر لما كان هو الذي يطلب الانثى كان يميل بطبيعته الى تحبيبها به وهي لا ترضى بطالب دون آخر الا اذا رأت فيه الافضلية . فبقي النسل الانسب وينتج عن ذلك بتوالي الدهور اختصاص الجمال بالذكور . والامثلة ذلك كثيرة نشاهدها كل يوم . انظر الى ذكور الطيور فانها اجمل من اناثه كثيراً اين جمال الديك من الدجاجة والطاووس من الطاووسة مثلاً وهكذا في سائر الحيوانات الاخرى

والانسان لا يخرج من هذه الحيثية عن هذا الاعتبار . والرجل بالقياس الطبيعي اجمل من المرأة . وقد كان الجمال وحده كافياً لارضائها في اوائل احوال الانسان ثم أخذت مرضاتها تتنوّع وتتفرّع عند كل جماعة باختلاف احوالهم واخلاقهم . فالبدوية ترضى بطالبها اذا كان شجاعاً مقداماً في ساحة القتال محباً للغزو كريم النفس حسن الضيافة . والحضرية قد تميل خصوصاً الى من كان متصفاً باوصاف الحضارة من الغنى وحسن الزي . وربما فضلت بعضهن الغني واخرى العالم واخرى الشجاع واخرى غير ذلك مما لا يقع تحت الحصر ولكن الرجل في كل ذلك طالب والمرأة مستشارة

أما المهر فسببه على ما نظن أن العادات المشرقية ولا سيما العربية تقضي على البنات أن يكنّ طوع والديهنّ في أمر الزواج . فربما قبلت الفتاة الشاب ولم يقبل والدها به فهي لا تستطيع الخروج عن رضاه . فكان الشاب اذا أحب ابنة يجتهد من جهة أن يحببها به ومن جهة أخرى أن يرضي والديها فيرضيها بما يراها ميالة اليه من اوصاف الرجال ويرضي والدها ببذل الاموال وهذا ما يدعونه بالمهر . وهو وان أعطي الى الفتاة فقد جعل في الاصل لارضاء والدها لانها لا حاجة لها بالمال متى

صارت زوجة ولا فائدة لها منه اذ ينتقل من جيب زوجها الى جيبها وهما واحد

هذه هي الطريقة الطبيعية في اختيار الزوجين. أما الزوجة فلم تكن تجهل مقامها من رجلها لعلمها أنه لم ينلها الا لانه اهل لها وقد بذل نفسه وماله من اجلها وهو ايضاً كان يشعر بسلطانه عليها لعلمه بأنها لم تقبل به الا لما رأته فيه من الكفاية والافضلية على سواه أدبياً ومادياً

أما (الدوطة) وهي ما يبذله الوالدون لتزويج بناتهم فعادة افرنجية نشأت في أوربا وسببها على ما نظن معاناة اهل تلك البلاد في الاجيال المتأخرة الحروب المتواترة حتى قلّ الرجال بالنسبة الى النساء ...

أما نحن فقد قضت علينا الايام أن نسير على خطوات أهل تلك البلاد ونقتدي بهم في أعمالهم شأن الضعيف مع القوي فاخذنا عنهم كثيراً من العادات الحسنة والقبيحة وفي جملتها هذه العادة

ولكنها ليست من العادات الملائمة لنا لانها لم تنشأ بيننا ولا استلزمتها حالتنا ولكن قضى علينا الضعف أن نتخذها اقتداء بمنشئيها . ولا يخفى على احد ما كان لها من العواقب السيئة في جميع الاحوال فان شباننا (ولا نقول كلهم) اصبحوا عالتي الآمال بالاثراء بواسطة الزواج . وقد يكون بعضهم من اصحاب المواهب التي لو استعملوها وثابروا على العمل بها لاغنتهم عن اموالّ الناس وربما صاروا من الاغنياء ولكنهم يعلقون آمالهم بنيل (الدوطة) ويقدرون مقدارها وربما تاهوا في عالم الخيال وجعلوا يحسبون مقدار ربحها لو تاجروا بها ويضيفون الربح الى رأس المال حتى يخيل اليهم أنهم اصبحوا من اصحاب الملايين فتكبر نفوسهم وتغلّ ايديهم عن العمل فيقضون أثمن سني حياتهم في مثل هذه الاوهام فلا يفيقون من غفلتهم الا وهم على شفا جرف يكاد يذهب بمالهم اذ يشعرون بخلو أيديهم وجيوبهم وبيوتهم واذا ارادوا عملاً لم يستطيعوه لما تعودوه من البطالة والكسل وهم كل سنة أقل املاً بنيل (الدوطة) من السنة الماضية فيدركون الكهولة ويدركهم اليأس وهم لا يستطيعون الزواج لان اصحاب الدوطة لا يقبلونهم وهم لا يتزوجون بغير (دوطة) لقصر ذات يدهم عما تقتضيه الزيجة من النفقات والمهمات فيعودون بصفقة المغبون وما ربحت تجارتهم ولا كانوا مهتدين

وهب أن واحداً منهم بعد طول الانتظار تزوج وقبض الدوطة فماذا يعمل بها ؟

لا أظنه الا يقضي باقي عمره مثل ماضيه وهو خادم لآ ماله أسير التي أتت به ... حتى أنه لو أراد عملاً فقد لا يستطيعه أو ربما لا توافقه هي عليه لسبب يخطر لها ... اليها أنها لم تأخذه الا ليقوم بواجب خدمتها واذا عصاها تهدده ... وربما جمعت عليه الجيران واتهمته بالبلادة والكسل فاستجارت بالله من مصيبتها وهي مصيبة باستجارتها لان من كان مثل زوجها خليق بالاحتقار ولا ... رضي بالكسل والبطالة استناداً على مال الزوج . وهذا اكبر سبب من اسباب استبداد السيدات مع ما نشكو من امتهانهن . وقد كان استبدادهن مقصوراً في مثل هؤلاء فعمّ الأكثرين الآن وصاروا ينظرون الى المرأة نظرهم الى شخص يستوجب احترامهم وهم يفعلون ذلك ويحملونه محمل اكرامهم لضعفها

ولا بد لنا قبل ختام الكلام في هذا الشأن من التصريح إننا مخطيء طالب الدوطة اذا كان انما يريد الزواج لمجرد الاثراء بقطع النظر عن اخلاق الفتاة ومنزلتها ونسبتها. ثم يجب التمييز بين الدوطة وحق الارث فان بعض البنات يرثن من والديهن اموالاً طائلة وهي حق لهن ينلنه تزوّجن أم لم يتزوجن فاذا تزوج شاب فتاة لحسن خصالها وكان لها مال بحق الارث من والديها أو أحد أقربائها بمقتضى الشرع فان ذلك المال لا يعد من قبيل الدوطة لأنه حق شرعي لها تناله على أي حال . ولكن الدوطة المرادة هنا ما يشترط الشاب نيله قبل عقد الاقتران كأنه يقول أنا لا اقبل بفلانة الا اذا اعطيتموني المقدار الفلاني من المال . وقد لا يكون والدها مالكاً لذلك القدر وربما اضطر لتزويج ابنته الى بيع عقاره أو الاقتراض من أحد بالربا فما شأنه اذ ذاك الا شأن من استأجر خادماً لابنته بأجرة كبيرة

وخلاصة القول أن من يتزوج فتاة لمجرد الحصول على مالها بقطع النظر عن خصالها فقد باع نفسه لها والتي تقبل بمن لم يطلبها الا رغبة في مالها فقد قيدت نفسها بيدها وابتاعت البلاء بدرهمها . لان الرجل ان لم يكن رأس امرأته ورئيس اهل بيته فانه يكون بلاء على اهله وقدوة سيئة لاولاده وحملاً ثقيلاً على عاتق ذوي قرابته وصحبه . والامرأة العاقلة لا تريد الرئاسة على رجلها ولا مفاخرته في شيء بل تود أن تكون تابعة له مقتدية به وأن يكون هو مصدر فخرها ومحور افتخارها كما ... الله وكما نصت عليه الكتب المنزلة

ومما تقدم يظهر سبب احتقارنا للسيدات واحترامنا اياهن في وقت واحد

شبان اليوم (١)

(رد على سؤال)

[السؤال] افسحوا لي مجالا في مجلتكم الزاهرة للاستفهام عن امر يهمني كثيراً واظنه يهم كل فتاة وكل شاب . ولكنني ارجو ان يبقى اسمي ومحل اقامتي مكتومين في إدارة « الهلال » لاننا معاشر النساء الشرقيات لم نصل الى درجة يتاح لنا فيها البحث في مسألة الازواج ومعاملتهم ولعلي أول من فعلت ذلك حتى اني ارجو ان يعود هذا البحث بالنفع على فتياتنا وفتياننا فقول

أعرف فتاة ربيت في مهد الدلال حتى تعلمت وتثقفت وآن الزمن الذي تظنه بنات جنسنا زمن الراحة والسعادة فقدرت لها العناية ان تقترن بشاب كنا نسمع ثناءً عليه واطناباً به وهو مستخدم في بعض المصالح براتب حسن وكنت اراه اذا جاء منزل خطيبته تزيا باحسن اللباس وتظاهر بافخر ما يظهر به الخطاب وكنت أرى من ميله وانعطافه وكثرة تردداه ما يبشر تلك الفتاة بمستقبل سعيد . ولكنهما ما لبثا ان اقترنا حتى مضت الاشهر الاولى بين الريب والامل ثم لاحظت بينهما فتوراً بدأ في الشاب وذلك انه أخذ في الغياب عن البيت وما زال يزيد غيابه حتى اصبحت امرأته لا تراه الا ساعة الغداء أو وقت العشاء فاذا كان المساء خرج ثم لا يعود الا في منتصف الليل وكنت اتردد على تلك المرأة في اثناء ذلك لصداقة قديمة بيننا متصلة بايام المدرسة فشكت اليَّ امرها فأشرت عليها بمعاتبته ففعلت ولكنها لم تنل منه الا وعوداً لا انجاز لها . واغرب من ذلك انها صارت ترى فيه حدة وقسوة فصبح يغضب لأقل سبب أو بلا سبب وكلما شكت تغيبه قهر وانتهر ولم يزدد الا غياباً . واذا اتفق انه لاطفها كان مدار كلامه معها التشكي من ضيق ذات يده مع علمي يقيناً انه لا ينفق في منزله نصف راتبه . وقد يشكو من انحراف في صحته وهو صحيح لا علة فيه ولا أرى داعياً الى ذلك غير سوء حظ تلك المسكينة ونكد طالعها وما زال يزداد نفوراً واعوجاجاً حتى اصبحت اخلاقه كاخلاق المتوحشين ولم تعد امرأته تستطيع مخاطبته في شيء

جئت بهذه السطور أسأل الهلال الاغر سؤالا سرياً اقوله على رؤوس الاشهاد راجية الافادة عما اذا كان ذلك شأن الرجال كافة أو ان لذلك النفور سبباً متصلا بالمرأة

(فتاة شرقية)

ان كتابك أيتها السيدة يدل على حرية لم نعهدها ببنات المشرق وقد يندر مثلها في بنات المغرب . ولا يبرح من ذهنك ان كتمان اسمك واسم صديقتك ومحل اقامتكما سيكون سبباً في ايقاع الشبهة على كثيرات ممن يشكين مثل شكواك . ولكنهنَّ لم يجرأن على التصريح بما صرحتِ به . على أن شكواهنَّ قد بلغت مسامعنا همساً وبين أزواجهن كثيرون ممن عرفناهم فوجدنا بينهم أناساً يعذرون بعض العذر على ما يأتونه من الجفاء والفتور ونساؤهم قد أغفلنَ واجباتهنَّ نحوهم . فقد تقضي المرأة أوقاتها في

(١) عن الهلال سنة ٥ صفحة ٣٣٩

مهامها الخصوصية بالتبرّج والزينة والزيارات فيجيء زوجها فلا يجدها في البيت وقد يكون في حاجة الى شيء لا يناله بدونها فضلاً عمّا قد تتطلبه هي من النفقات الطائلة على اللباس والمودة مما قد لا يكون هو في سعة للقيام به فهو معذور في نفوره وفتوره. وقد يساعد على ذلك النفور الاختلاف بين الزوجين في المشرب والذوق ونوع التربية فربما أرادت السير على موجب التمدن الحديث من مخالطة الرجال ومعاشرة الشبان وهو لا يزال باقياً على ما ربي عليه أبواه وسائر أهل بلاده من صيانة المرأة بالحجاب أو لعله خطبها وهو لم يحبها ولكنه أحب مالها وثروتها فلما تزوجها لم ينل ما أمله فزال ما كان يحمله على التقرب منها وربما كان هناك سبب آخر نلتمس للرجل فيه بعض العذر على ما ذكرت

فاذا كانت صديقتك عالمة بواجباتها وبحقيقة النسبة بين المرأة وزوجها عاملة على تتميم ذلك ولم يكن بينها وبينه اختلاف في المشرب والتربية والاخلاق ولا كان زواجه لها من أجل مالها فيكون لتغيير أخلاقه وسوء تصرفه أسباب كثيراً ما تشغل الرجال عن نسائهم لا يسعنا تفصيلها ولا يليق بنا التصريح بها. والا فهناك سبب آخر يجب ان يكتب بحروف من نار على جبهة التمدن الحديث لانه أصبح عاراً عليه وآفة لكل حسناته. أتدرين أيتها السيدة الفاضلة ما هو ذلك السبب؟ هو داء عضال تمكن في كثيرين من شبان هذه الايام وقد أشرنا اليه مراراً في «الهلال» وهو وحده قادر على افساد الاخلاق وتغيير الاطوار نعني به (المقامرة). فان المقامرة وقانا الله من فتكها داء تمكن من شباننا حتى نخر عظامهم وغير أخلاقهم وأفسد ما بناه آباؤهم. فهو وحده كاف لتوليد الاخلاق الفاسدة والاطوار المعوجة وتكدير عيش الزوجين والوالدين فان من تعود المقامرة أصبح قصير البال ضيق الخلق قليل الاحساس ضعيف الرأي سيء الظن. فقد ترين المقامر وأنت لا تعرفينه فتقرأين اسمه على وجهه وأخلاقه فترين فيه وجهاً عبوساً ولوناً ممتقعاً ونفساً منقبضة وأفكاراً تائهة لا يخاطبه أحد ويسمع جوابه الا ويعلم انه من اهل هذه الصناعة قبحها الله. على انها في مصر محصورة في الرجال ولكنها في بيروت تتناول النساء أيضاً والعياذ بالله

فيلوح لنا أن سبب نفور هذا الزوج أنه تعلق بالقمار فانفق فيه ما وصلت اليه يده ولعله استدان فوقه ويؤيد ذلك شكواه من ضيق ذات يده مع انه لا ينفق على منزله الا نصف راتبه

الفتاة الشرقية

في هذا العصر (١)

قضت الفتاة الشرقية قروناً متطاولة وهي ساذجة محتجبة لا تعرف غير غرفتها أو منزل والديها او بعض اقربائها ولم يكن يطلب منها ان تعرف غير ذلك ولا هي كانت تتطلبه على انها اذا التمسته لم تكن ترجو الحصول عليه لما كانت فيه بلادنا من الميل الى الحجاب مع قلة وسائل التعليم . على ان رجل مستقبلها لم يكن يرضاها الا اذا كانت على هذه الحال حتى اذا أرسل والدته او عمته او خالته تنتقي له عروساً عادت معجبة مصفقة وهي تقول « ان فلانة لا تعرف من الدنيا غير بيتها ومطبخها » ثم تبالغ في مدحها فتقول « ان لها فماً يأكل وليس لها فم يتكلم » تلك غاية ما بلغ اليه وصف العرائس عندهم اذا وقعن موقع الاستحسان

فدخل هذا القرن ومضى نصفه الاول ففتحت المدارس للبنات وزاد اختلاطنا بالافرنج فتعلمنا لغاتهم واقتبسنا عاداتهم واخلاقهم فشبت فتياتنا على غير ما تعودته امهاتهن من الحجاب والسذاجة . وقد رأينا ذلك فيهن لاول وهلة شيئاً مستحسناً لان فتاة هذا العصر مطالبة بواجبات لم تكن تطلب من فتاة الاعصر الخالية فلو كلفنا ابنة القرن الماضي ادارة منزل من منازل هذه الايام ما استطاعت الاتيان بحركة . ولا جرم ان لكل عصر شأناً والمرء يتغير بتغير الايام لانه ابنها بل صنيعتها أو ثمرة تعليمها

فالفتاة الشرقية في هذا العصر لا يرضينا منها ان تكون ذات فم يأكل ولا يتكلم ولا ان تحبس نفسها بين جدران غرفتها لا تنظر الى الطرق الا من خلال نوافذها واذا خطبها رجل تعلم سنها واذا ساومت بائعاً باعها القطن حريراً والنحاس ذهباً . او اذا رأت برقاً ظنته شرراً يتطاير من عيون الجان او سمعت رعداً خالته دبدبة خيول العفاريت او اذا رأت حلماً اصبحت تلتمس تفسيره وهي بين خائفة ومستبشرة . واذا قيل خسف القمر عمدت الى النحاس تدقه تخويفاً للحوت الذي ابتلعه تقضي نهارها تسمع من عجائز الخادمات خرافات واقاصيص لا تزيد الجاهل الا جهلاً فاذا انقضت سمعت الاقاصيص عمدت الى اصلاح وجهها بالخضاب وغيره .

(١) [illegible] صفحة ٦٢٩

وهي انما تفعل ذلك تشاغلاً عن البطالة ثم تعمد الى الشوق قد تعمل على المائدة خفية وقد اصبح عقلها خزانة اوهام ومخاوف . فضلاً عما قد تأول اليه الخلوة والبطالة من العادات القبيحة مما لا يليق ذكره . وفي المثل المأثور « رأس الفارغ مغارة ابليس » فالفتاة الجاهلة المحتجبة تعتاد الاحاديث الملفقة ويهون عليها الكذب والنميمة والغيبة ونحوها

فلا يليق بالفتاة الشرقية ان تكون على هذه الحال وقد عرف الناس قدر العلم ففتحت المدارس وتكاتف أولو الفضل على بذل الدرهم والوقت في تسهيل التعلم على الفقراء وتقريبه من الاغنياء بل يجدر بها اذا جالست احداً ان يكون فمها متكلماً لا آكلاً فقط واذا تحادث الناس في علم او ادب لذ لها الحديث ولذ للناس حديثها واذا رأت حادثاً طبيعياً من برق او رعد او خسوف علمت اسبابه وسبحت الخالق لما اودعه في خليقته من الحكمة والموعظة فتنبذ الخرافات والاوهام وتستبدلها بمطالعة ما يفيدها صحياً وادبياً من الكتب او الجرائد او المجلات فيزداد عقلها تثقفاً واخلاقها ادباً وظرفاً وتعلم معنى الطهارة وتفهم المراد من العفة وتدرك ما هي حقوقها وواجباتها فتكون مصدر سعادة لرجل مستقبلها ومبعث علم وفضل لاصدقائها ومثال ادب ولطف لعشرائها وقدوة حسنة لاهل منزلها . هذا ما نرجوه من الفتاة الشرقية في هذا العصر

ولكننا نرى بعضهن قد تجاوزن هذا الحد الى ما حبب الينا ايام الحجاب وابكانا على ازمان الجهل . فاصبحنا نندب يوماً لازمت فيه الفتاة منزلها واقتصرت على معاشرة خدمتها وقد اغلقت عينيها وفتحت اذنيها واوثقت يديها واطلقت اصغريها . يوم كانت لا تعرف الازياء وضروبها ولا يهمها من اللباس الا البسيط ولا تطمع الفقيرة في ثوب لبسته الغنية ولا تؤثر ظواهر القيافة على جوهر الصحة فلا تشد خصرها بآلة من حديد تكاد تعصر احشاءها فتعيق حركة الدورة وتفسد عمل الهضم مما يجلب السقام ويذوي زهرة الجمال

فهل حلم اهل الاجيال الغابرة أن بناتهم سيلبسن تلك الآلة الجهنمية أو هل خطر لاحد منهم أنه سيظهر من انسابهم جيل من النساء يخاصرن الرجال في مجلس جمع من الشبان والغلمان شتاتاً ؟ بل هل دار في خلدهم رحمهم الله أنه سيأتي عصر تجلس فيه ربات الخدر على موائد المقامرة يقلبن الورق وقلوبهن تختلج خوفاً من الخسارة .

.لا نخالهم اذا بُعثوا من قبورهم وشاهدوا ما نشاهده الا مكبرين مستغفرين يستعيذون .لله من الشيطان الرجيم

وقد يقول قائل من شبان هذا الزمان « ان ما ذكرت ان هو الا عادات جرى .عليها أهل هذا القرن في العالم المتمدن ونحن انما نسير على خطواتهم ونقلدهم في سائر .حركاتهم فكيف تعد ذلك عيباً وهو جار في اشرف منازل الامراء في أعظم عواصم .الارض » نقول ولا تنكر ذلك عليك ولكن لكل أمة شأناً ولكل قوم عادات .اخلاقاً . فللشرقي غير اخلاق الغربي فاذا قلد أحدهما الآخر كان ذلك من قبيل .وضع الشيء في غير محله . فما زينة المرأة عندنا الا الحشمة والحياء بل هي زينتها عند .كل أمم الارض من اهل الحضارة وغيرهم ولكن الشرقي اختص بذلك وبالغ فيه .حتى وضع دونها حجاباً ولو استطاع لاسكنها نفقاً أو سرداباً وهو امر مستهجن .لا نرضاه لنسائنا ولكننا ذكرناه مثالاً لاخلاق الشرقيين وميلهم الى الحجاب .ورغبتهم في الحشمة

فالفتاة الشرقية في حاجة الى تثقيف وتعليم لتعرف حقوقها وواجباتها وتحسن .سياسة منزلها وادارة شؤون عائلتها على القوانين الصحية والوسائل الاقتصادية . ذلك .هو التمدن الحقيقي فاذا تجاوزته الى الرقص والمقامرة والبذخ والمبالغة في الحرية صار .الى ضده

وقد تعترض فتاة وتقول في باطن سرها « ان الهلال ينهانا عن أمور نرى شبان .هذا العصر مجمعين على استحسانها فهم لا يخاطبون فتاة ولا يرتاحون الى مجالستها الا .اذا أحسنت انتقاء الازياء وبالغت في البذخ واتقنت الرقص واللعب وسائر عوامل اللهو .ولولا ذلك لم يروا سبيلاً الى معاشرتها لعل اختيارهم يقع عليها . فاذا زاروا منزلها .وكانت لا تعرف شيئاً من هذه الالعاب عدوا ذلك منها بلاهة أو جهلاً . والهلال .يقول عكس ذلك فيا لتعاسة جنسنا ما أكثر ضروب الانتقاد عليه »

نقول خفضي عنك أيتها الفتاة الحسناء انني أعترف بصدق ما تقولين ولا اجهل أن .بين شباننا من لا يرتاح الى مجالستك الا ان كنت على ما تصفين . ولكن هؤلاء شرذمة .قليلة لا يصح أن تكون مثالاً . على أن الشاب الذي ترينه معجباً ببذخك راغباً .في مخاصرتك أو ملاعبتك انما يفعل ذلك قضاء لاوقات الفراغ بالمعاشرة .والمداعبة . واختياره اياك دون أترابك للرقص أو اللعب واطنابه ببذخك وتبرجك

وحسن زيك لا يدل على أنه يرضاك زوجة له. وقد سمعنا بعضاً من هؤلاء الشبان وقد سئل لماذا لا تقترن بفلانة فانك تحبها وتقضي الليالي في بيت والدها فقال « اني ارضاها عشيرة لا حليلة ومن كانت في مثل ما هي فيه من البذخ واللهو لا تصلح لادارة المنازل فان المعاشرة واللهو شيء والزواج وقيام البيوت شيء آخر » وقد صدق

فلا يغرنك استحسان الشبان للبذخ واللهو فانهم انما يختارون الزوجات من ابسط البنات لباساً واكثرهن اقتصاداً واوفرهن حشمة . وقد ينقم الشاب العازب على فتاة لم تطلق له الحرية في معاشرتها ولكنها اذا اباحت له ذلك نفر منها واحتقرها وساء الظن في آدابها

ناهيك عما لتلك العادات من العواقب الوخيمة جسماً وعقلاً وصحة وادباً . فعاقبة « المشد » امراض الكبد والمعدة والامعاء ونقر الدم . . .

وعاقبة « المخاصرة » على ما هو جار عند بعض الجماعات أضرار صحية وأدبية . أما الصحية فان الفتاة اذا دعيت الى ليلة راقصة لبست لباساً حاسراً عن معظم صدرها وذراعيها وبعد ان تقضي ساعات متوالية واثبة متنقلة ذهاباً واياباً حتى يكللها العرق تخرج الى الهواء البارد فيلفحها ولا يخفى ما في ذلك من أسباب العلل الصدرية . فكم من فتيات أصبن بداء السل الخبيث وذهبن ضحية هذه العادة بعد أيام معدودة . أما الاضرار الادبية فان الاختلاط بالملامسة على هذه الصورة يقود ضعيفات العقول الى شراك الهوى بين يدي شبان يخدعونهن برشاقة الحركة وحلو الحديث في أثناء الرقص وهن غافلات العقول مستيقظات القلوب فلا يشعرن الا وقد سيقت قلوبهن الى سجن لا يرجين منه خلاصاً

والحب اول ما يكون مجانة   فاذا تمكن صار شغلاً شاغلا

وهذا ما حدا بمريدي هذه العادة من اهل الطبقة العليا في العالم الافرنجي الى انتقاء مدعويهم والتصريح باسمائهم قبل الاجتماع حتى يكون كل واحد على بينة ممن سيخاصر امرأته أو شقيقته في تلك الليلة وله بعد ذلك ان يقبل الدعوى أو يرفضها

وعاقبة « المقامرة » لا تحتاج الى بيانها وقد كتبنا فيها الفصول المطولة وهي اضرار أدبية ومادية وصحية . أما الاضرار الادبية فيكفيك منها ان المقامرة مميتة للفضائل موقظة للرذائل فهي تزيل الشفقة والحنو وتذهب الحياء والحشمة وتحيي الطمع والشره وتوقظ الانتقام والبغض . أليس من موجبات الاسف ان تقتلع تلك الفضائل من

قلب المرأة وهي زينتها ونغرس فيه هذه الاشواك السامة فبعد ان تكون ملاكا مصلحاً تصبح شيطاناً مفسداً . واما الاضرار المادية فالخسارة المالية التي لا يأمنها مقامر ذكراً كان أو انثى . وأما الاضرار الصحية فهي ما لا بد منه في من يخسر العشرة والمئة بقلب ورقة أو ورقتين فيقضي ساعات بل ليالي متوالية ساهراً وقلبه واجف وعواطفه متهيجة خوفاً من الخسارة . والنساء أقل احتمالاً لهذه المخاوف من الرجال

أما «عاقبة البذخ والتبرج» فللاسراف القبيح الآيل الى خراب البيوت العامرة مما قد تعجز عن مثله المقامرة . فكم من امرأة لا يملك زوجها ما يسد به الرمق وهي مع ذلك تكلفه ابتياع الاقمشة الثمينة اقتداء بجارتها الغنية وتلك آفة من آفات التمدن الحديث وقانا الله شرها

وخلاصة القول أن الفتاة الشرقية اذا اقتصرت من تقليد الافرنج على اقتباس العلم وتثقيف الذهن واكتساب ملكة الاقتصاد وتدبير المنزل مع البقاء على الحشمة والحياء والبعد عن القصف والترف واللعب والرقص تكون قد جمعت بين حسنات الشرق والغرب أما اذا تعدت ذلك الى ما قدمناه من الاضرار الادبية والمادية كان عدنها وبالاً عليها وعلى اهلها وذويها . وفي ذلك كفاية كفانا الله شر الغواية

الشاب الشرقي

في هذا العصر (١)

دخل التمدن الحديث بلادنا وأول من ابتدأ باقتباسه منا الشبان لانهم أقرب من النساء اختلاطاً بالاجانب . فلبسوا الجاكت والبنطلون وعقدوا الكرافاته وتكلموا اللغات الافرنجية والنساء لا يزلن في مجاهل الحجاب لا يعرفن ما وراء جدران منازلهن . فأخذوا في انتقاد عوائد آبائهم والتنديد ببساطة معيشتهم وسذاجة ألبستهم ثم جعلوا يتقلدون الافرنج في انتقاء الزوجات فلم يعد يرضيهم غير المعاشرة والاختبار قبل الاقتران . ولكنهم لم يكونوا يستطيعون ذلك الا بجهد ومشقة لبقاء آبائهم على القديم من عادات الشرق فاذا رأوا خطيباً وخطيبة يتحادثان استعاذوا بالله من سوء التربية وعدوا ذلك من قبيل فساد الاخلاق ومستقبح العادات . على ان التقليد

(١) [illegible] ٣٣٣

ما زال آخذاً مجراه الطبيعي فلم يمض ردح من الزمن حتى انقضى جيل الآباء فضعف حزبهم وتغلب رأي الابناء وكانوا قد أصبحوا آباء وأمهات فأطلقوا لاولادهم العنان في ما أرادوه من التفرنج أو ما يسمونه التمدن

على انهم لو أحسنوا اختيار تلك العادات لكانوا أسعد الامم حالاً بلا استثناء. لاننا معاشر الشرقيين (ونريد بالشرقيين بنوع خاص أهالي مصر وسوريا) أكثر الناس امتزاجاً بالافرنج على اختلاف لغاتهم ونزعاتهم وطبقاتهم يمر بنا من عادات أصناف ومن الاخلاق أشكال وقد أوتينا قوة التقليد على أرقى درجاتها فلا نخالط أمة الا تعلمنا لغاتها ودرسنا أخلاق أهلها واقتبسنا عاداتهم فلو أوتينا حكمة وسداداً لانتقينا من تلك العادات افضلها واقتبسنا من تلك الاخلاق أرضاها وحافظنا على بعض ما ولدنا فيه من عادات آبائنا ونبذنا سيئها وسيئات نزلائنا فيجتمع فينا حسنات التمدن الحديث ونصبح في حال من الكمال يحسدنا عليها أهل الارض . لان الامم العظمى مهما قيل في ارتقائها وسؤددها لا تخلو من نقص هو من فطرة نوع الانسان وقد يرى عقلاؤها ذلك فيها فينتقدونه ويحرضون عامتهم على هجره فلا يؤانسون اصغاء. لا لجهل أو حماقة ولكن الكبر يغلب على طباعهم فيستنكفون من تقليد أمة أخرى يعدونها مناظرة لهم في سلطانهم وتمدنهم فيعمدون الى تحسين سيئاتهم في عيون أنفسهم مغالطة واستكباراً . فلو رأى الانكليزي عيباً في بعض عادات أمته أو فساداً في أخلاقها لم يرَ مثله عند الفرنساويين مثلاً لاستنكف من العدول عنه حاسباً ذلك انقياداً للفرنساويين وهكذا يقال عن الفرنساوي في عادات الانكليز أو غيرهم

وأما نحن فقد كُتب علينا أن نقلد الامم المتمدنة فنكتسب علمهم وصناعتهم ونقتبس عاداتهم وأخلاقهم ونلبس لباسهم لا نرى في ذلك حطة ولا عيباً بل قد نعدُّه شرفاً وفخراً . فما بالنا لا نختار من تلك العادات خيرها وننبذ القبيح منها مع مراعاة مطابقة ما نقتبسه لما رسخ فينا مما يخالف ذلك .

ومن ضعف الرأي أن نعتقد الكمال في تلك الامم والنقص في أنفسنا وبين عاداتنا ما لا تفضله عادة عند أهل الارض مشرقها ومغربها . فلا يغلو بعض شباننا وقد سكروا من خمرة التقليد أن ما يعمله الافرنجي هو الكمال بعينه وأن ما يخالفه من أعمالنا هجر وضلال

وزد على ذلك ان الذين يفدون علينا من جالية الافرنج ليسوا سواء في المرتبة الادبية بين رهطهم في بلادهم . فان فيهم الرفيع والوضيع والاديب والبذيء فما كل ما نراه من أعمالهم مقبول عند ادبائهم . فقد رأينا بعضهم يستكبر ما نراه من عادات قومه بيننا . فرأى مرة شاباً منهم خارجاً على جواد وفتاة على جواد سائرين معاً الى ضواحي المدينة فقلنا ما قولك في هذين قال اذا كانا من الاقرباء الادباء لا بأس بخروجهما والا فانهما يعابان على ذلك . فعجبنا من قوله لما سبق الى ذهننا من عادتهم في خروج الشبان والبنات معاً عن غير رابطة القربى أو الصداقة المتينة . واحكينا له ذلك فانكره كل الانكار وقال انه اذا وقع انما يقع بين السفلة . قال واذا ارتكبه أديب هنا انما يفعله لبعده عمن ينتقده من معارفه . وسألناه عن عادة الدوتة فانكر امرها وقال ان الشاب يؤاخذ على طلبها اذا لم يكن هو من اهل اليسار . فلا يغتر شباننا بما يشاهدونه من ماجريات بعض الافرنج بيننا على اننا اذا فرضنا جوازه عندهم فذلك لا يدعو الى اعتباره قاعدة عامة تجوز رعايتها عندنا

ولكننا لسوء الحظ نرى شباننا عاكفين على أقبح ما يظهر من عادات هؤلاء وحجتهم فيها انهم انما يتمثلون بقادة التمدن الحديث . فلا يكاد الشاب الشرقي يدرك الحلم حتى يحلم بالدوتة ومقدارها فلا يذكرون له فتاة الا سأل عن دوتتها وهو لا يملك شروى نقير فيقضي أثمن سني حياته ينتظر تلك السعادة فيتجاوز سن الزواج وهو لم يدركها فاذا يئس منها وقنع بالادبية الفقيرة نفرت هي منه وتباعدت عنه لانها اذا رضيته في مقتبل عمره قد تعرض عنه في كهولته فاما ان يقنع باقل من ذلك او يقضي بقية حياته عزباً متعذباً وقد خسر المال والبنين وهما لذة الحياة الدنيا . ويؤيد ذلك ما نشاهده من كثرة العزّاب الكهول بيننا وهم من الجيل الذي شبَّ أبناؤه وعادة الدوتة في ابانها فعلقت آمالهم بها فتجاوزوا سن الزواج ولم يتوفقوا الى ما أملوه فصاروا من الكهول العزاب ووقع ذلك أيضاً في فتياتنا ولا سيما الفقيرات وبينهنَّ بانيات البيوت ومحييات الفضيلة فذهبن وذهب امثالهنَّ من الشبان ضحية تلك الآمال الكاذبة

ولو تبصر شباننا لتمثلوا بعقلاء الناس الذين انما يبحثون عن ادبيات الفتيات لا اغنيائهن وهكذا يفعل عقلاء الافرنج فان بينهم نخبة من كبار الموسرين تزوجوا بافقر البنات وأحسنهنَّ ادباً كما فعل اديسن المخترع الكهربائي الشهير فانه رأى في بعض معامله

باميركا فتاة تعمل باجرة زهيدة فآنس فيها ادباً ولطفاً فتاقت نفسه اليها فخاطبها بأمر الزواج فظنته يمزح فأكد لها عزمه فقبلت فخطبها من اهلها . . . وامثلة ذلك كثيرة حدث مثلها في بيروت فاننا نعرف وجيهاً من وجهاء تلك المدينة ذهب الى مدرسة من مدارس البنات هناك وسأل رئيستها عن افقر تلميذاتها واحسنهنَّ ادباً واكثرهنَّ ورعاً وتقوى فأتته بواحدة فاقترن بها وعاش سعيداً ولم يزدد الا غنى وتوفيقاً وهو قدوة الناس في كرم النفس والشهامة حتى الآن

ومن يغتر بالمال ليس باقل ضلالاً ممن يغتر بالجمال ويتعامى عن الادب والتهذيب ولين العريكة لان الجمال عرض لا يلبث ان يزول ولا يبقى غير الاخلاق فاذا كانت حميدة اورثت السعادة او قبيحة جرت الى الشقاء . وقد عرفنا فاضلاً رحمه الله ذهب شهيد هذا الخطأ لانه لما اراد الاقتران سأل رئيسة بعض المدارس في بيروت ان تريه تلميذاتها ليختار منهنَّ زوجة فوقع نظره على واحدة بهرته باشراق وجهها وفتنته بجمال عينيها فسأل الرئيسة عن أهلها فقالت أظنك اخترتها . قال نعم . قالت لقد اخترت أجمل تلميذاتي خلقة لا خلقاً ونصحت له ان يرجع عن عزمه فابى الا ما أراد وكان من حاله معها ما يتفتت له الصخر الاصم لفرط ما عاناه من البلاء في عشرتها حتى مات حسرة ونكداً وقصته مشهورة هناك

فاليك أيها الشاب الشرقي بهذه الامثلة القليلة عبرة وعظة واعدل عن الاوهام الى الحقائق وعن الحلم الى اليقظة . فلا يغرنك من الفتاة وجه حسن او مال كثير فانهما اعراض لا تلبث أن تزول او يزول ميلك اليها . فتفيق من غفلتك فتهزأ باحلام العزوبة وتفقه ان اغترارك بالمال والجمال كاغترار الظمآن بلامع الآل . وان الخصال الحميدة والادب والدعة والصحة الجيدة هي القواعد الاساسية في سعادة الزوجين فتندم ولات ساعة مندم

قل لي رعاك الله هل رأيت فقيراً تزوج بغنية طمعاً بمالها وكانت سعادته بالمال ؟ ألا تعلم ان من يفعل ذلك انما يتجر بشبابه ويبيع نفسه بيعاً بخساً . فابحث عن الفتاة الادبية ذات الاخلاق الحسنة التي قد تموت لموتك وتحيا لحياتك وتحتملك في سرائك وضرائك وتقنع بفقرك وغناك . فاذا كنت رجلاً اكتسبت المال بسعيك ونشاطك وهي تحفظه بتدبيرها وتربح بابك بدعتها ولينها وتوطد علاقاتك مع اقربائك واصدقائك بحسن سياستها . أما اذا كنت خاملاً وجاءتك امرأتك بمال قارون وجمال بلقيس لا تلبث ان

تضيع المال والجمال ولا يبقى بين يديك غير النكد والحسرة

وقد تعتذر بانك لا تجعل المال شرطاً اولياً بل تلتمس الادب والاقتصاد والصحة والتهذيب ثم المال والجواب على ذلك انك ما زلت تلتمس محالاً فكيف وانت صفر اليدين خالي الوطاب تشترط شروطاً مثل هـذه . أيخيل لك أن البنات ملقيات على الطرق وقد انقطع وارد الرجال فلم يبق سواك . أم تظن في نفسك قوة السحر الحلال حتى تشترط ذلك ؟ ألا تعلم ان التي توفرت فيها هذه الصفات لهي أعز من بيض الانوق وهب انها وُجدت فهل تحسبها عميت حتى ترضى بالفقير العاجز وقد حام حولها الطلاب من اهل اليسار . واذا كنت من اهل اليسار والجاه فلعلك تدعي كما يدعي كثيرون انك تطلب مال الفتاة ليبقى معها لا لتمتلكه أنت . فمن العبث أن تجعل المال شرطاً لاقترانك سواء بقي معها او معك وانتما واحد وقد اعطاك الله مالاً وجاهاً . أليس من الشهامة وعزة النفس أن تبحث عن فتاة فقيرة تصلح للزوجية فتنتشلها من وهدة الفقر وتجعل نفسك وسيطاً لسعادتها فتعيش معها ناعم البال كما فعل صاحبنا البيروتي الذي تمثلنا به في صدر هذه المقالة فتكون قدوة لاقرانك

الكهل العزب

في هذا العصر (١)

اذا دخلت منزلاً فرأيت فيه رجلاً مقطب الوجه أشمط الشعر يخطر في غرفته حائراً ورأيت اهل منزله من والدة أو شقيق أو شقيقة سكوتاً يحاذرون أن يكلم أحدهم الآخر مخافة أن يسمعوا انتهاراً او سباباً فاعلم انك في منزل كهل عزب قضى زمن الشباب يفتش عن عروس حتى وخطه الشيب فنفرت منه العرائس. ولو تأملت شعره لرأيته قد خف مما نزعه من شعرات ابيضت قبل اوانها حتى اذا كثر ما ابيض منها تركها وشأنها وقد تولاه اليأس وضاق خلقه فنقم على الخليقة واصبح لا يرى في الكون حكمة ولا يفهم للوجود معنى فلا يستقبل الناس الا منقبضاً ولسان حاله يقول

(١) عن الهلال سنة ٦ صفحة ٤٥٢

هجرت الشعر والشعرا وعفت الخُبر والخبرا
فلست برامق شمساً ولست براقب قمرا
ولست بغارس شجراً ولست بآكل ثمرا
ولست بمزعج نفسي أطال العمر أم قصرا
ولست بعابىء أبداً أهُدّ الكون أم عمرا
أم اشتدت زلازله فما ابقت له اثرا
جميع الخلق لا اعتد في نظري له نظرا
كأنهم رفات أو جوانح ميت قبرا
فما لي منهمُ نفعٌ ولا يؤتونني ضررا
فيومي كله بشرٌ اذا لم انظر البشرا
وليلي كله قلق اذا لي طيفهم صدرا

ولو جلست اليه ودار بينكما الحديث في شأن من الشؤون لرأيته قليل الصبر ع الجدال سريع الغضب سيء الظن وقد يجاريك في احاديث المجون والهزل حتى يش من حديثك الخوض في موضوع الاعمار فترى هزله تحوّل الى جد وعتب لما فر منك من عبارات الاهانة والازدراء او تراه يحول الحديث ويبعد عن الموضوع واحذر أن تذكر عمره بما فوق الثلاثين فانه حريص على عمر الشبيبة ولو ادر الكهولة وهو شديد الحرص على العقد الرابع من عمره فلا يزال سنه تحت الاربع ولو جاوز الستين ولا عبرة في الشيب فهو عنده من نتائج المزاج وطبيعة البنية ولو مل صبراً لعمد الى الصباغ واراك البياض سواداً والسواد بياضاً

واذا جركما الحديث الى النساء واوصافهن سمعت منه طعناً فيهن بوجه الاجما ورأيت همه منصرفاً الى اقناعك بان الزواج مركب لا يركبه الا الغاوون وما البنو عنده الا عذاب في الدنيا والآخرة ولكنه اذا دعي الى حفلة راقصة سوّد سالف وعارضيه وجاء مسرعاً « بالفراك » و «الجوانتي» لعله ينال لفتة او يحظى برقصة

ويغلب في اخلاق الكهل العزب القسوة والجفاء لان الرجل اذا عاش بلا امرا ولا اولاد ظل قلبه خشناً قاسياً لما في معاشرة المرأة مما يهذب النفس ويلين الطباع . أ تربية الاولاد فانها تنمي في قلب الرجل الحنو والاشفاق . فالرجل بلا امرأة ناقص وهي متممة له مدمثة لاخلاقه . والعناية في تربية الاولاد تلين قلبه وتغذي عاطفة الحب والحنو ف

واذا رأيت بين الكهول العزاب من لان طبعه وتدمث خلقه وتهذبت نفسه فيكون ذلك من فطرة طبيعية أو تثقف صناعي بالعلم والادب وحسن التربية فتتغلب قوة الارادة على طباع الكهول

واذا تدبرنا أمر الكهول العزاب في هذا القرن رأينا عددهم فيه اكثر كثيراً مما كان في الاعصر الغابرة . ولو امعنا النظر لرأينا السبب في ذلك تعنتهم في اختيار الزوجة واشتراطهم فيها الجمال والمال والاخلاق والصحة والعلم وغير ذلك ولو إقتصروا على الشروط الاخيرة لما ظلوا عزاباً لانها متوفرة في معظم فتيات هذا القرن . ولكن المال يندر أن يرافقها واذا رافقها فقد يكون حائلاً بين العروسين من جهة الفتاة . فلو غض النظر عن الدوطة واقتصر على الشروط الاخرى لانقذ نفسه من تلك الكهولة وعاش سعيداً وكان عضواً عاملاً في جسم العمران

على اننا نبخس الكهولة حقها اذا جعلنا كلامنا شاملاً كل الكهول العزاب وبينهم من كانت عزوبته اكبر مساعد له في خدمة بني الانسان فقد ذكرنا في غير هذا المقام ان الجانب الاكبر من رجال الاعمال واصحاب المشروعات انما كانوا أناساً هجروا الزواج ومشاغله واستعاضوا عن تربية الاولاد بتربية الرجال فألفوا الجمعيات والاحزاب وقاموا باعمال يقصر عنها ارباب العيال الذين لا يسع وقتهم شيئاً عن الاشتغال بمهام العائلة من تربية وتمريض وتدريس . يكفيك من أولئك علماء الاكليروس من الرهبان الذين انقطعوا للعلم أو الدين فألفوا الكتب وسنوا الشرائع في أعصر ادلهمت واشتد ظلامها . ناهيك عن جماعة كبيرة من رجال العلم والسياسة ممن لا تزال نتائج أعمالهم باقية حتى الآن . وقد يقال أن هؤلاء وأمثالهم لو كانوا متزوجين ما استطاعوا شيئاً كبيراً

نقول ذلك نادر لا يقاس عليه بالنظر لما آلت اليه الكهولة في اكثرهم فضلاً عن مخالفة ذلك لمجاري الطبيعة فقد خلق الرجل ناقصاً حتى يكمل بالزواج وفطر على الخشونة والقسوة حتى يلين ويشفق بمعاشرة الزوجة وتربية الاولاد . فمن العبث أن يضيع سني حياته يلتمس لامع السراب من دوطة ونحوها وقد خسر مستقبل أيامه وسلب المجتمع الانساني حقوقاً له عليه فاضاع نفسه ونسله هباء منثوراً . ألم يكن في حكم الممكن لو تزوج ذلك الكهل أن تكسب الهيئة الاجتماعية من اولاده رجالاً يعملون اعمالاً لو جمعت لزادت على أعماله . وهب أن النسل لم يكن مقدوراً له ألم

يكن وهو متزوج (بغير شرط الدوتة) أقدر على العمل منه وهو عازب

فالدوتة والتعلق باهدابها أصل هذه الشرور فهو يحيث من سجن حالتي الزواج لما بقي شاب عازباً وبنات هذا العصر يفضلن بنات سائر العصور علماً وتدبيراً وحكمة وتهذيباً

ومما قد يحول بين العزب وزواجه عمر الفتاة فقد تكون سنه حوالي الاربعين ولا يرضاها الا دون العشرين ولم تفهم الحكمة في ذلك ألعله يرى في صغر السن كمالاً أم يقدر لنفسه من الحياة اجلاً اطول من أجلها فيخاف أن تموت قبله فيعيش بقية حياته ارمل والآجال والاعمار بيد الله . فضلاً عما يتوفر في كاملة السن من كمالات اللازمة للزوجة ولا يخفى عليك ما ينشأ عن تفاوت الاعمار بين الزوجين من اختلاف الاذواق وما يترتب على ذلك من النكد ومرارة العيش

ومن الشبان من يختار العذوبة فراراً من متاعب الزواج فلا تكر عليه ما في الزواج من المتاعب والمشاغل ولكن تلك المتاعب تمازجها حلاوة البنين وأنس العائلة ويخففها حب الزوجة . وأما متاعب العزوبة فيمازجها نكد العيش ومرارة اليأس . لا نطلب على ذلك شاهداً غير ضمائر الكهول العزاب فمن من يخاص القول منهم يعض على انامله ندماً لضياع ماضي شبابه بلا زواج . واما ملاذ الزواج وسعادته فتؤيدها شهادة المتزوجين واذا رأيت بينهم شاكياً او نادماً فانما يكون ندمه لوقوعه بين يدي امرأة غير صالحة للزواج وقد يكون ذلك ناتجاً عن سوء سياسته واعوجاج اخلاقه

ولا تظهر تعاسة تلك الكهولة ظهوراً واضحاً الا في من ليس في منازلهم احد من الاقرباء فيعيشون فرادى فاولئك سلهم ينبئوك عما يقاسونه من الوحشة وجفاف المعيشة ومرارة الحياة . ولقد سمعناهم يتأسفون على ما مر من ايامهم وما فاتهم من الفرص مما لو التمسوا عودته لم يعد . ان المرء اذا تدبر كانت معيشته في زواجه اقل نفقة منها في عزوبته والوقت ثمين يمر مر السحاب واذا توقع الرجل مستقبلاً حسناً فانه يناله بعد الاقتران بل يكون اقدر عليه

فليفق شباننا الذين لا يزالون في غفلة عن مستقبل شبابهم . وقد ادركوا الكهولة او كادوا فانه سيأتي يوم يندمون فيه ولات ساعة مندم

